وطر الروح

وَطَرُ الروح: رواية
الكاتبة: وئام أبو شادى
تصميم الغلاف: أحمد الصباغ
تدقيق لغوي وإخراج داخلي: الباشا عبدالباسط
رقم الإيداع: 2018 / 8050
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 664 - 123 - 3

دار لوغاريتم للنشر والتوزيع والترجمة

E_mail: Logarithpublish@gmail.com

Tel.: **01015642559**

المدير العام: إيناس ناصر
ألمدير التنفيذي: شادي أبو شهبة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

وطر الروح

رواية كتبها الشيطان

الكاتبة

وئام أبو شادي

لوغاريتم للنشر و التوزيع
Logarithm
Publishing & Distribution

إهداء

إلى روح من وهباني عشق القلم "أبي وأمي"
إلى ذراعيَّ قلبي إخوتي "آلاء ومصطفى"
إلى نور عينيَّ "سيف وكريم"
إلى شقيقتي روحي وخليلتي نبضي "حسناء حسن.. شيماء صقر"
إلى روح أستاذي أسامة أنور عكاشة

إلى كل من ضلت أرواحهم، لم ترافقهم إلى دين الحب
أول أعمالي في عالم الرواية

* * *

الجبل العظيم

- أنا راغب داود.. اليوم تحديدًا 7/16 أتممت عامي الأربعين.. وهناك حقيقة يقينية مفادها أن الرجل حين يبلغ عامه الأربعين تتبلور شخصيته وتغوص ركائزه في الحياة نحو الثبوت.. وهذا ما يؤكده قول الرحمن في الآية الكريمة (حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين عامًا قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ")..إنه إذا سن الاستيفاء العقلي والنفسي.. ومنذ الليلة الماضية وأنا أعد العدة لأقرأ ذاتي التي أنهكتني على مدى السنوات الأربعين.. إستلقيت أمام ضوء النار في الشموع وعلى الكرسي الهزاز الذي حمل جثتي المغتربة وأنفاسي المتعبة.. وسألت نفسي السؤال الذي تدور حوله النفس البشرية.. متى يكون الإنسان سعيدًا؟!! .. هل السعادة منبعها العقل.. القلب... أم الاثنان معًا.. أم منبعها الروح؟

هل يعيش الإنسان عمرًا واهم السعادة.. كيف تكون السعادة قناعًا مزيفًا وحقيرًا؟

لقد عشت السعادة على طرفي المنحنى.. بالخير والشر معًا.. نعم كنت أمارس الشر الذي لم أره يومًا شرًّا.. كنت أبرر كل ما أفعله من ضلال بأني أريد أن أكون سعيدًا.. لم تعترِني يومًا أي رغبة في التخلي عن مبرراتي والتحول عن دوافعي.. كان فقط خوفي الأكبر أن لا أبدو مثاليًّا في عين أسرتي وأصدقائي ومحيطي.. حتى أني أقنعت ضميري ورشيته كي أتعاظم

أمام مرآتي وظلي على الأرض بأني أشرف وأطهر الرجال.. حتى أخذتني العزة بالإثم أن أدعي على الله أيضًا أنه سيقبل مني زعمي هذا.. كان لضميري صوت يشبه صوت الجبل العظيم.. وغدوت أجثم على صدره حتى لم أعد أسمع حثيثه فظننته قد مات ميتة سوء.. عاري السوءة لا أجد غرابًا يعلمني كيف أكرم مثواه.. إنه الجبل العظيم الذي يقف ناشز الموت مستور الكتف على كلماتي الساعة.

وإنني لأسأل الآن ربي الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون إنك قلت لأحب خلقك عليه الصلاة والسلام " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء".. تُرى من هم الذين ترفع عن بصائرهم ختم غضبك لتدخلهم في هدايتك ومشيئتك؟!

وماذا عن سنواتي الأربعين؟ هل هناك من أدرك حقيقيتي المغزولة بدم إبليس والمحاكة بفحيح الأفعى ذات الأجراس؟

إني لأعرف جيدًا أن هؤلاء الذين يأخذ منهم الشر وموت الضمير مأخذ السرطان من الجسد.. ترتعش بواعثهم ولو لوهلة أمام الحق أحيانًا.. أما الجديد على بيانولا السواء في ذاتي.. أنني لم أهتز أبدًا ولا لوهلة واحدة؟!!.. وهذا ما يضحكني من الأعماق ضحكة تتبعثر فيها الشيطانية والملائكية والإنسانية أيضًا.. فأحيانًا يتحول الشر في بعض فصوله لكوميديا مستفزة لا ترقى للضحك المنبعث من البهجة ولا ترنو للازدراء لتوقفك عن الضحك.

و لابد كي أجيب على كل أسئلتي التي هي بالتأكيد أسئلة كثيرين عانوا من تخمة الحقد.. أن أسطر البداية أو ما أظنها البداية وأنا أستنكر كل ما فعلته إلى حد مضغ وجهي الذي لم يدرك الحياء برهة.. فلم يكن لي أي دوافع منطقية ولا واهية لما كنت أصوغه من سموم تجاه نفسي والآخرين غرباء أو قريبين.. أحباء أو أعداء..

لقد كنت أمارس الشر لأجل الشر كما يقول هؤلاء الخيرين "الحب لأجل الحب".. وكان للشر في حواسي مذاقًا يفوق في متعته.. متعة لقاء حميمي مع أجمل نساء الأرض على أجمل شواطئ الدنيا.. هههههههه.. أنا الآن أرمق السماء وأرسل مقلتيَّ الميتتين تدقان أبواب الله.

يا الله!!!! كنت تراني وتمهلني كل ذاك الوقت؟!!! أعرف أنك كنت تراني ولكني أسأل نفسي.. أكانت رحمتك تشملني بالمن هكذا؟ وكانت رحمتك أقوى من كل شري الأبلج.. إنها قوة الرحمة.

يا رحيم!!!.. لقد أحييت الجبل العظيم الذي دكه دنسي ومن غيرك يحيى العظام وهي رميم؟؟ سبحانك.

ولادة الفجر

كنت طفلًا جميلًا.. ذا عيون بنية واسعة وأهداب طويلة ورقيقة ووجه أبيض مستدير مشرب بحمرة الورد.. وشعر بني بلون البندق الطازج كثيف وناعم كخيوط الفجر.. أحمل ثغرًا لا يخلو من ابتسامة البراءة ولكن هذا الوجه رغم براءته يقذف في نفسك شعورًا بأنه وجه رجل مخضرم.. ذاك ما كانت تنقله إليَّ أمي عندما كنت أرواغها.

كنت طفلًا مدللًا إلى حد السخف رغم أني الأوسط بين اثنين أخي نزار الذى يكبرني بثلاثة أعوام وأختي أمل التي كانت تصغرني بعامين.

ولدت بحي الزمالك العريق في ذلك البيت الكلاسيكي الكبير الذي ورثه والدي عن جدي سليل العائلة الملكية..

كان بيتنا على بعد خطوات من النيل – كنت أراه من شرفة غرفتي.. والمفترض أن هذا المشهد المهيب للنيل والذي يحلم أن يقطن أمامه أي إنسان.. مشهد يحرك كل المشاعر والإرهاصات النبيلة في النفس.. فليس أجمل ولا أكثر عطاءً من هذا الصامد الصامت الذي فاض علينا حبًّا وصبرًا وأملًا.. لم تستوقفني أيضًا بسالته وروعته لأنحني أمام أي خيط أبيض يتبتل في قلبي..

كنت حديث عائلتي كلها من الأب والأم.. كبيرها وصغيرها.. متفوقًا إلى حد أخذني فيه غروري الخفي أن المركز الأول لي في كل شيء.. وكأنه هو من

يبحث عني ويتوسلني لأعتليه.. نعم كنت الأول في كل شيء.. ويحضرني الآن تبلور قصة الصدارة معي وأنا في السنة الثانية من المرحلة الابتدائية في أحد مدارس الرهبان حيث كان يتنافس معي زميلي وصديقي حاتم على المركز الأول.. وكانت إحدى الامتحانات الهامة من أعمال السنة وكان مصابًا بالحمى ولكنه حريص على أداء الامتحان وتغيب عن المدرسة لشدة مرضه ولم يعلم بأمر الامتحان حتى أخطرته المدرسة هو وأسرته بموعده.. ورغم ذلك إلا أنني استطعت أن أضللهم جميعًا وأقنعتهم أن الموعد قد تم تأجيله.. وكانت النتيجة الحتمية أنه لم يؤدِه.. وتعللت حينها بأنني تصورت ذلك حتى أنني لم أستعد أنا أيضًا له وسقت إليه وإلى والدته التي كانت صديقة والدتي كل الأعذار والمبررات البريئة على وعد مني له بيني وبين نفسي أن أثنيه عن المركز الأول.. ليس بالتنافس الشريف.. ولكن بشغله عن التفوق أيًّا كانت الوسيلة..

وبالفعل كنت ألازمه كظله حتى تراجع عن الأول إلى الثالث.. الغريب في الأمر أنه قد ظهر آخر للتنافس معي ولكني شُغلت بحاتم وكأن تراجعه أمامي هو حصاني الرابح في لعبتي القذرة مع نفسي.. لقد حرمني شري في سني هذه من الاستمتاع بطفولتي كما ينبغي لطفل.. وأذكر أن المسكين بقيَ ملازمًا لي من سنة لأخرى.. حتى أني من سطوتي على براءته وإخلاصه الطفولي لي سألني في ذات مرة باعتباري صديق صدوق.

-أنا زعلان أوي يا راغب إني مش عارف أطلع الأول زي زمان

أجبته سعيدًا بانكساره وقد كسا ملامحي المكر والبراءة

-بس إنت الأول في حاجات تانية كتير.. في السباحة مثلًا.. هو انت عايز تبقى الأول في كل حاجة؟ ما أنا أهو مثلًا فاشل في السباحة وانت الأول زعلت أنا.

وأطلقت ضحكة مسمومة صغيرة وطبعًا ضربت له مثلًا بالسباحة لأني كنت أكرهها وكان والدي يجبرني على ممارستها ولم تكن تروق لي فكرة الذهاب والإياب في حوض ماء كأسماك الزينة البلهاء في بيتنا..

- ما تزعلش.. ركز إنت بس وإنت أكيد هتطلع الأول

هز رأسه مستسلمًا لشري المعقود على كفي الذي يربت عليه.. وكان حاتم طفلًا رقيقًا تقطر ملامحه مصرية لكنها أرستقراطية جدًّا وبقيت ابتسامته الوديعة عنوان ملامحه وسلامه الداخلي الذي كان يجرى منه مجرى الدم من عينيه والتي استفزت غوائل حقدي الأسود عمرًا بأكلمه.. من أين له بكل هذه الوداعة.. على الرغم أنني طالما نُعت بالوداعة والبراءة أيضًا لكن عشقي للشر من مستصغره إلى أكبره والذي كان يقطن كل نوافذي جعلني لا ألتفت إلى بصمة الله البديعة الوهابة لخلقتي أو استثمارها على أي نحو.. وهكذا بقيَ وجه حاتم الذي كان يحمل روح العصافير عائقًا بيني وبين سلامي الداخلي ليالٍ طويلة.. تبًّا لكل نظراته الرحيمة.

- ومضت طفولة أتأبطها شرًا وكانت مرحلة أتقصى فيها ملكاتي الحقيقة الوليدة في الشر كمن يبدأ لعبة الكاراتيه فيتدرج من حزام للآخر حتى يحصل على الأسود.. وبقيت مرحلة الطفولة بالنسبة إليَّ حجر الأساس العتيد لكل تداعيات جرائمي التي تلتها..

فأذكر أن أستاذ اللغة العربية والذي أراه من مجهرٍ دقيقٍ الآن رجلًا مكافحًا نبيلًا كان يزرع فينا حروف اللغة وينقب عن ثمارها ويجود علينا بجمال المفردة والمعنى ويحصد من حبنا للمادة سعادته في الارتقاء.. طبعًا لم يكن هذا المعنى الفريد ما كنت أراه حينها.. بل كنت دائمًا أضعه في بورتريه ملقن المسرح الذي يضحك المتفرجين كأنه جثة وليدة الالتحاق باللحد في صندوق مهلهل ويظل يَلُكُّ ويَلُك.. يدور حول نفسه يفخم ويرقق.. يطول ويقصر.. تبًّا.. ما يلبث أن يفتح شفتيه حتى يغلقها على حروفه جرًّا وعطفًا ورفعًا ونصبًا.. كان مملًا كالوقت المُنتظر.. وظل يلاحقني من عام لعام.. ثلاثة أعوام اصطدمت فيها رياحي بقطب من الملل بتسعة حصص في الأسبوع.. واستسلمت لشري.. ما عدت أرغب في رؤية هذا الملقن المتلحد بسبورته.. عليَّ أن أفعل شيئًا لأنقذ شعوري الذي جثم عليه كل هذا السخف.. حتى أتتني رائدة رائجة تفوح برائحة لا تغالطني.. إنه أفيون الشر.

واتجهت له في يوم دراسي قرب انتهائه وزعمت له أني أريده أن يشرح لي شيئًا ما لم أفهمه في أحد النصوص.. وكنت أعلم أنه لا يتوانى عن تقديم

المساندة والفهم لأي طالب عاقه سوء الفهم وتقصير الشرح.. وألقيت عليه براءتي واصطحبني بدوره لأحد الفصول التي غادرها تلاميذها في حصة التربية الرياضية بعد إيعاز مني بذلك.. وجلسنا هو يشرح وأنا أتقن دور الاستيعاب حتى مرت خمس دقائق فاعتذرت منه لنكمل لاحقًا لإصابتي بمغص حاد واضعًا يدي على بطني مدعيًا الامتعاض ثم ربت عليَّ بحنان أبوي حقيقي و استأذن هو أيضًا للانصراف لضيق الوقت وإنهاء اليوم على وعد منه بإكمال الشرح في اليوم التالي.. وبالطبع حسمت الموقف في تلك اللحظة بدهاء فطري.. فقد دق جرس المصيبة حين رأيت إحدى الدادات تنظف أمام الفصل وأحد التلاميذ قد دخل يأخذ غرضًا ما من الفصل الذي كنا به ثم اتجهت من توّي إلى الناظر مهرولًا أولول كامرأة ثكلى وقد عبثت بهندامي ليبدو عشوائيًا غير مهذب فهال الناظر منظري.

- ما لك يا حبيبي في إيه؟

باغتُّه بصوت امرأة تنتحب متقطع الأنفاس مفتعل الدمع.

- أستاذ ناصر.

- ما له يا ابني جرا لُه حاجة؟

بجرأة واقتحام.

-كان عايز يعمل فيَّ حاجات وحشة.

فتح الناظر عينيه حتى شعرت بالفاجعة أكلت عروقه .. و كأن أنفاسه

احتبست بينه وبيني.

- أستاذ ناصر؟ إنت بتقول إيه؟

- أيوة وخدني فصل خامسة تالت وقال لي تعالى أشرح لَك الفصل فاضي و.... وفك البنطلون و....

قاطعني.

- بنطلون.. بنطلون مين؟

رمقته بنظرة تكاد تنفجر ضحكًا هيستيريًّا لهول تعبيراته الفطرية الغبية لكني تماسكت حتى لا يعوق المشهد أي مؤثر وأنا أصرخ فيه بلا صوت "هيكون بنطلون مين يا غبي"... ثم صرخت فيه ببكاء حاد.

-بنطلونه.

فهز رأسه بمزيد من الغباء المُلهم.

- أيوة أيوة.. مفهوم.. مفهوم.

فتح عينيه مرة أخرى.

-أستاذ ناصر؟! إنت متأكد يا ابني مش ممكن ناصر..

أوشكت أن أحضر له ناصر ليتحرش به كي يصدق المعتوه.

- أيوة.. أيوة كلموا لي بابا.. بابا لازم ييجي دلوقتي.

وأخذ يدور بكرشه يمينًا ويسارًا يستجمع سنوات شيبه التي أرساها في موقف عصيب كهذا.. موقف سيعصف بتاريخه وبناصر وبالمدرسة

جمعاااء.

-طيب يا ابني اِهدا واقعد.

ثم صرخ مناديًا.. يا نجيب.. يا نجيب.

حضر أحد تنابلة السلطان.. الأخصائي الاجتماعي الذي ما مارس دورًا واحدًا مفيدًا منذ التقيت بخلقته في تلك المدرسة وما إن حضر وحملقت فيه حتى أيقنت أنني ارتكبت جريمة شنعاء بإلصاق التهمة بالأستاذ ناصر.. فنجيب كان هو جحا الذي هو أولى بلحم ثوره.. مسكين ناصر.. سيلقى مصيرًا يستحقه آخرون أكثر بلاهة ومللًا

حضر (المابيت شو).

- أيوة يا أستاذ ميلاد.

صرخ الناظر

-ناصر فين؟ أنا عايزه حالًا.

- دا لسَّا ماشي يا أستاذ ميلاد.

- مشي؟ مشي ازاي.. إزاااي؟

ثم أشاح بيده راكلًا نجيب قربي وخرج من غرفته هائمًا وترك لي نجيب يحملق في وجهي ببلاهة غير مسبوقة فصرخت فجأة حتى ظننت أن نجيب فقد حاسة النطق والسمع في آن واحد.

- أنا عايز بابا.. عايز بابا.. أنا مش عايز المدرسة دي.

وقامت القيامة وحان وقت الحساب والعقاب واقتحمت فضيحة ناصر كل مليمتر في مدارس الرهبان قاطبة وبالطبع لم تكن فضيحة اعتيادية بل طالت توابلها محافظة القاهرة كلها والتي تم فصله من كل مدارسها بالإضافة إلى كرامته التي أصبحت وحلًا يعصف ببيته وأولاده ثم تعويض المدرسة لي عن الحادث الأليم الذي انتهك طفولتي البريئة وكان لعاملة النظافة التي كانت تنظف أمام الفصل حينها فضلًا غير مفضول في ارتداء الرجل الشريف زي اللوطي الدنيء.. وكذلك زميلي الذي دخل الفصل حينها واسع الفضل في إكليل الدنس الذي أحاط الرجل بكل انكسار.. فهما شاهدا عيان على تواجده معي في ذلك الوقت.. وخلت المدرسة من صوت الأستاذ ناصر الذي كان نخلتها الشامخة تركها وقد أحرق تلاميذه سنابله الماسية على مدار أعوام حصيدة.. مات ناصر عبد الرؤوف في عيون طلابه وأخذت أنا عزاءه كمن قتل القتيل ومشى في جنازته.. كم أنا بارع.. واحتسيت نخب فحيحي جريمة أخرى ينعق فيها شري الأبلج.

الضمير.. تلك الكلمة التي كنت أسمعها فأشعر بالغربة كمن هاجر لأرض أخرى تاركًا وطنه.. لكنه تركه محتلًا.. ضائعًا منثورًا على بقايا خارطة .. كلمة لم أتذوق حتى وقع حروفها بل كان يستثير أصحابها مزيدًا من لذتي بالحقد غير أني أبدًا لم أرَ نفسي حقودًا بل مجرد مخلص للبشرية من بعض شراذم الأغبياء الذين تورطوا وورطوا العالم في ما يسمى بطيبتهم.

إنجي.. تلك التي شربت عيناها البحر الأبيض المتوسط كله ونزحت إلى النيل كي يتذوق بعضًا من قلوع عينيها نحو الجموح .. السمراء ذات الضفائر الكستنائية.. الأنوثة تطل على شفتي طفلة والطفولة على خدي أنثى.. أي شر يتدلل أمام تلك الأميرة المتصعلكة على خواطري.. كلما وقعت في بحر عينيها ونويت الإقلاع أقلعت هي في رغباتي.

في أول يوم للدراسة بالعام السادس الابتدائي.. كنت أجلس في المقدمة لأني قصير القامة.. ولا أعرف كيف بارك لي الرب لألامس رطب النخيل فيما بعد. بدأ أمجد مدرس اللغة الإنجليزية بالنداء اسمًا اسمًا.. "إنجي أكرم رشوان .." التفتُ لها حيث وقع صوتها فيَّ مختلفة نبرته عن نبرة كل زميلاتها.. حينذاك كان صوتها يشبه صوت الموج في الصدف.. التفتُّ بلا إرادة أرمقها.. وتخثرت كل مراحلي في تلك اللحظة من الطفولة إلى الرجولة.. تلك اللحظة التي أدركت فيها أن لدي قلب.. وذكورة وهوًى يميل ويحن.. "إنجي أكرم رشوان".. شكرًا أكرم رشوان مع كل الامتنان.

ووجدت منفذًا إلى متعة الخير.. إنه الحب الطفولي الذي سيعيدني إلى طفولتي الموءودة في براثن غلي السحيق.. كنت أرمقها ذهابًا وإيابًا على بعدٍ غير بعيد وقربٍ غير قريب أرسل لها باقات إعجاب ملتهبة تأكل ملامحها بشراهة الآن أضحك من نفسي حقيقة كيف كنت الطفل الذئب؟.. يا لسوداويتي البريئة!!!

كان جسدها يرسل إشارات إلى باكورة رجولتي لتعلن صفارة البدء.. وأدركت لأول مرة أني أتحول من الطفولة إلى الشباب على ورودها التي ظننت أنها تتفتح لي برعمًا يلي البرعم..

كانت هي الأخرى تلتقط إشاراتي المتتالية والتي لم تكن بالذكاء الكافي كي تستتر عنها.

يقول علماء النفس أن المرأة منذ طفولتها أنضج نفسيًّا وإدراكيًّا عشر سنوات عن الرجل منذ طفولته.. وهذه قاعدة سيكولوجية بيولوجية عامة بين الرجل والمرأة.. لكنها ترسخت لدي عندما عرفت إنجي فكان حس الأنثى لديها يفوق براءتها المزعومة على سنواتها الإحدى عشرة.

كانت تدعوني لمشاركتها.. المشاركة على أي نحو.. أنَّى ومتى شئت.. واقتربت من دعودتها شيئًا فشيئًا ألبي النداء.

في اليوم الخامس من بدء الدراسة.. ودراستي لثكنات الوثوب على الطفلة الأنثى.. في حصة التربية الرياضية أخذَت تستعرض نقطة الانطلاق من الطفولة للمراهقة في دلال وعفوية مقصودة.. تتمايل كأنها ترقص التانجو المثير في الملعب.. وأخذتُ أتأمل الصباح على أطراف أقدامها الوثيرة.. وفي ظل تأملاتي الهائمة إذا بي أقع أرضًا على غير انتباه فهرول الجميع نحوي بينما تطلق هي ضحكة دسيسة وكأنما وقعتُ في قلبها وليس على الأرض.. إنجي لقد كررتِ خيط شري.. إذن أعدِّي العُدة أيتها الصغيرة.

عدنا إلى الفصل وأنا ألحقها عامدًا أن تراني كظلها وهي تسبقني كمن يدرك أن أحدًا يلاحقه.. أسرعت نحوها وقد كسا جبيني قطرات عرق تُعرف برائحة الطفولة.. جلَسَت على مقعدها وارتكزتُ أنا بكلتا يدي على تختها أطلق عينيَّ كمهرٍ صغير في سهول عينيها الغضة وهي مذهولة.

- كنتِ بتضحكي ليه؟

-عادي.

-يعني إيه عادي؟.. عادي أقع واتعور.. وانتِ تضحكي؟

ناولتني ضحكة أكثر استفزازًا.

- أصلك وقعت فجأة.. لقيتني باضحك فجأة.

لم تعْنِنِي إجابتها.. لقد كان البحر في عينيها يعلو ويهبط يتقلب في هدوء النسيم.. الطفلة الأنثى.

-وبعدين؟

بابتسامة أكثر نورًا.

-اِبقى خلي بالَك المرة الجاية.

أجبتها داخلي بصوت يغرق فيها

-انتِ جميلة قوي.

عدت لبيتي يومها يرافقني حاتم الوديع والذي لم تكن له ميول عاطفية رغم وداعته.. وأخذ يعبئُ رأسي ويحشوها بما هو علينا بقية الأسبوع وأنا بالطبع

لا أسمعه.. أنا أسمع إنجي فقط.. فقط.

كنت أغار عليها من معلمينا.. فالمعلم رجل مكتمل الرجولة وأنا أخط أول ألواني عليها.. تبًّا لرجولة زائدة انتقصت من طفولتي 10 كجم.

وعلى غرار القمر والليل أردت أن أجلس بجوارها ليتسنى لي كل ما يتسنى لاثنين في بداية اللعبة.

وجدتها معه في الفسحة يتمشيان بين الورود وتسند رأسها بدلال على دفئ الشمس وتسأله وهي تناوله الشيكولا

-أنا باحب الميوزيك قوي.. وانتَ؟

- أنا باحب أقرا القصص البوليسية قوي.

حاتم الوديع يلقي بوداعته على محبة الميوزيك.. وماذا بعد؟

-انتَ نفسك لما تكبر تبقى ظابط صح؟

-مش عارف.. ساعات باحس نفسي أبقى ظابط وساعات أحس نفسي أبقى ممثل.

فتحت عينيها بدهشة وشغف.

-ممثل؟ بجد؟!

-آه ممثل.. انتِ بقى نفسك تكوني إيه؟

- أنا كمان نفسي أمثل قوي وأكون زي سعاد حسني أرقص وأغنى وأمثل.

تقدمت نحو نجميّ القرن.. ورمقته بغلي السحيق.. ولا أعلم حتى الآن لماذا

ارتبك كل هذا الارتباك حين رآني.. لكن تأكدت حينها أنها أصبحت تعنى له شيئًا ما.. فاتخذت متكأً بينهما وأنا أنظر في عينيه تارة وفي عينها تارة أخرى وأبتسم كالأفعى الوليدة.

-حاتم دا يا إنجي ما ينفعش يبقى ممثل خالص.. بس ممكن يبقى ظابط.

ابتسمت وهي لا تعلم أنها تكر خيط شري المستصغر.

-لا.. ينفع جدًّا والله يا راغب.. طب أنا هاخلي بابا يكتب فيلم وأنا وهو نمثله لما نكبر.

إنها تُخطط لقصة ما ستدوم.. برعاية توكيل بابا ومشهدين من فيلم حسن ونعيمة.

-تعرفي؟ أنا بامثل حلو قوي يا إنجي.. خلي بابا يكتب الفيلم وتشوفي أنا بمثل حلو إزاي.

-وانتَ كمان بتعرف تمثل؟

-آه والله بس حاتم ما بيعرفش صدقيني.

حاتم المسكين ضحية وداعته

- راغب يعرف أكتر أنا باتكسف أمثل.

-شُفتِ بقى أهه قال لِك أهه.

دق جرس العودة للفصول وقد كَست عيون حاتم نظرة اتِّقاء واستسلام لشري.

تعرضت لوعكة صحية ألمَّت بي وألزمتني الفراش ليومين متتالين.. كان أسوأ ما فيهما أنني لم أرَ إنجي وكنت في صبيحة اليوم الثالث يعتريني شغف غير اعتيادي للقائها.. فذهبت للمدرسة متأخرًا نصف الساعة حيث تعطلت بنا السيارة وقام عم فرج السائق باللازم لألحق بموعد المدرسة.. ها أنا ذا أصل أخيرًا يا إنجي.. طرقت باب الفصل وكأن روحي من تدقه.. لم أنتظر صوت المدرس يأذن لي.. دخلت وعينيَّ تطير في كل ركن تلتقطها.. إنها غصة قلبي.. لقد انتقل حاتم للجلوس بجوار إنجي.. تسمرت عيناي وقدماي تَجُرَّانني وتجران معهما قصة طويلة أنا..و.. إنجي و...حاتم.

وبقيت لثلاث سنوات أجتهد أن أحبك كل نقاط ضعف حاتم على شغف الأميرة به وكنت أتفنن في إشعال حالة التعبئة العامة لديها نحوه عن بعد بكل وسيلة وسلاح لا يَرمي إليَّ بشكل مباشر.. كنت كما أنا الأول ببراعة وهو الثاني ثم الثالث ثم بدأ يتراجع عن الخمسة الأوائل.. أما هي فتفوقت عليَّ مرة فتركتها تَغبط نفسها كمن يخسر لعبة كي يكسبها بقوة للطرف الأضعف.. ولكن سرعان ما وثَبتُ على فرحتها فإما أنا أو لا أحد.

وصلنا إلى الثالث الإعدادي.. وأنا لم أصل لقطعة "الدانتيل" بين ثنايا السمراء.. وحاتم يكتم عني اعترافًا كاملًا بأن إنجي تحولت لجزء لا يتجزأ من خيوط حياته القوية ولكنه ترك لي عينيه وصوته وصبابته البريئة ليعلنوا ذلك بكل وضوح.. وبالطبع كان يصل لإنجي لا محالة.. فهي تعي تمامًا أني

أحبها وأني تركت لها مساحة تحت سيطرتي تمارس فيها غرورها بحب حاتم لها.. ولا أدري من أين جاءت لي قناعاتي أنها لا يمكن أن تحب حاتم.. وأنها تحبني أنا رغم وضوح ميلها غير المستتر له.. كنت أبرر لنفسي مشاعري الغريبة المكتظة بالغرور والأنا والحتمية التي لا تقبل أي نوع من الاحتمالات بأنها ربما تحبه حقًّا وأن لديه الكثير ليجعلها تعشقه أيضا.. لكني كنت أنكر ذلك و سولت لي نفسي أنه لزامًا عليها أن تعشقني أنا.. هي فقط تنتظر مني اقتحامًا ما.. وظل حقدي يتبعني ويغذي تعاظمي بأنها لابد أن تصل إلى الحلقوم لتدرك كم هي محظوظة بنبيٍّ مثلي.

كنت أنتظر عيد ميلادها وأختار الهدية مع حاتم الذي اقتنع تمامًا بعد شك طويل بأن إنجي لا تشكل لدي أكثر من زميلة.. حتى أني بادلت أخرى الإعجاب أمامهم جميعًا ليتأكد له اطمئنانه.. وحتى أجعلها تشك في قدراتها نحوي.. تلك الأخرى كانت "هديل" صديقة إنجي الصدوقة.. وبالطبع لم أفعل ذلك تضحية مني لصديقي الطيب وحبيبته الغرورة.. ولكن ليتسنى لي قتل حاتم في قلبها والتمثيل بغرورها هذا دون أي شبهة تشير نحوي غير مكترثٍ بهديل ومشاعرها التي كانت تصحو وتغفو على وجودي معها.

نعم كنت أفكر وأشعر وأخطط كرجل في الأربعين وأنا ابن الرابعة عشر..

وكانت حواسي سامة قاتلة.. فقد اصطحبت هديل وحاتم لشراء هدية عيد ميلاد إنجي وأوعزت له بالفكرة..حقيبة يدوية رقيقة تناسب عمرها وذوقها

وأيدتني هديل واجتمعت الآراء عليها.. واشتراها حاتم بسعادة لا توصف.. باركت سعادته الطفلة.. وتسللت بعدها إلى أحد محلات المصوغات الذهبية وتصرفت ليس كمراهق.. بل كرجل عاشق واشتريت لها قرطًا زاهيًا بشكل الفراشة وكنت أعرف عشقها للأقراط الذهبية.. ولففته في علبة ملكية من القطيفة الحمراء كأنما سأقدم لها هدية خطبتنا.. وطرت سعادة بالهدية.. لا لأنها ستعجب إنجي.. بل لأنها أقيم كثيرًا من هدية حاتم.. وكان المساء.. لنطفئ شموع السمراء.

-في فيلا "أكرم رشوان" الكاتب والسيناريست المعروف.. التقينا جميعًا لنطفئ شموع إنجي الأربع عشرة.. وتقدم الجميع بالهدايا بينما انتظرت أنا حتى آخر الحفل حيث جَلَسَت على البيانو وأنا أرمقها بقلبي.. هل هي من تعزف عليه أم هو من يعزف عليها؟!.. اقتربت بحذر بعد انتهائها من العزف والتصفيق لها.. و قدمت لها هديتي الفارهة وأنا أتابع عينيها التي تبتلع البحر وتفتحها مندهشة وأنا مزهوٌّ بتفوقي على حاتم بهديته.. امتلأت قسماتها بالفرحة وابتسمت كالشمس بكل خلجاتها العفوية.. أمسكت بالقرط وأنا أرفع شفتيَّ عن أسناني لأناولها ابتسامتي العاشقة الشريرة.

- ميرسي يا راغب بجد.. تحفة حلووووة موووووت.

-نسيت كل الناس من حولي ونسيت نفسي.

-بجد يا إنجي عجبتك؟

-قووووي قوي يا راغب.

ثم اتجهت لغرفتها.. وحاتم يرمقني ويرمقها ويرمق وداعته بدموعٍ حبيسةَ طيبتِهِ وصدقِهِ ومرت أمامي غصتهُ مرور الكرام بينما هديل تجمدت مكانها فكيف ومتى اشتريت لها هدية كهذه؟ ولم أخبرها أو أخبر حاتم.. وابتلع الجميع المفاجأة بينما الكبار يتسامرون في الحديقة.. وكنت أمقُت صداقة عائلة إنجي بعائلة حاتم بينما أمي لا تروق لها كثيرًا والدة إنجي..

لا أعلم السبب لكن حدسي الشيطاني كان يؤكد لي أن السبب هو إعجاب أبي الشديد بشرويت هانم كما كان يناديها (والد إنجي).. والتي كانت تقاسم ابنتها ملامحها إلى حد ملفت للانتباه.. والولد سر أبيه.. فما كان يروق لأبي يروق لي.. عدا أن أبي كان رجلًا حنونًا واسع الأفق يحمل قلبًا يتسع للكون كله.. وكان والدي مهندسًا لديه مجموعة شركات كبيرة للمقاولات والاستشارات الهندسية كان رجلًا ناجحًا لا يعرف الفشل إليه سبيلًا.. طموح جموح.. أظن أنه كان يشحذ كل ملكاته كي يهطل الفرح على الكون..

كان يافع الروح يعشق التفاصيل وجنون الحياة.. ورغم شري الأبلج إلا أنني كنت أراه دائمًا الجانب المضيء على أروقتي السحيقة الضيقة.. كان يجنح لأمي بامتياز.. يزف إليها كل ما هو رقراق براق.. يأخذ بيدها إلى الجنة في كل يوم وليلة.. لكن كل ذلك أبدًا ما كان يرضيها.. فشخصية أبي ووسامته وجاذبيته المطلقة كانت محل قلقها الدائم أن تستوحذ عليه أنثى ساحرة

مثله.. كانت أمي تختلف معه حتى في رائحة الهواء حولهما.. في كل تفصيله.. لا يجمعهما أي حرف لأي لغة.. لكن جمعهما حبي وأخوتي وثوابت تربيتنا وأسس الحياة السليمة لأي بيت هادئ.. ورغم ذلك كله لم يشعرها لوهلة بأنه لا يحبها.. أو أن مشاعره تطفو وتغوص نحوها.. ولكن يقينها بأنها لا تلمسه من الداخل كان يؤرقها..

وحدي كنت أعرف الحقيقة وأراها في عيون أبي.. كم تمنيت لو طلقها.. نعم تمنيتها كثيرًا.. لا أن يتزوج عليها.. لأن امرأة كأمي من هؤلاء النساء اللواتي لا يعرفن كيف يتمتعن برجال يضاهين قرص الشمس قوة ودفئًا ووفاءً.. فزواجه بأخرى عليها لن يكون عقابًا كافيًا لها.. وحده الفراق سيكسر كبرها ويحرق قلبها الذي لا يملؤه إلا البرود والإهمال لهذا الرجل العظيم.. سعيت لطلاقهما كثيرًا ولم أفلح.. كان هو حريصًا عليها أكثر من حرصه على البيت.. ضعيفًا أمام جبروتها ودلالها المتكلف بالغ الركاكة عندما تسعى لغاية ما لديه..

حاولت كثيرًا أن أخلصه من جبروتها لكني بعد محاولات بائسة تعيسة إلى أن تخطيت العشرين من العمر.. أدركت أن أفضل ما يمكن أن أقدمه لقدرات أبي المحدودة لشراء كرامته وقلبه من هذه المرأة التي تعد أحد جبابرة الأرض.. هو بقاؤه معها ما بقي من عمره.. هذا عقاب محدود الإرادة مفتور المواجهة.. بل إنه استفزني كثيرًا لأجعلها تذيقه جرعات مكثفة ومتلاحقة من

الكيد والجبروت.. وأخذني الشر مجددًا بوجبة شهية يسيل لعابي أمامها لأنتقم من طيبة أبي بقسوة.. فالطيبون لا مكان لهم اليوم في هذا العالم.. إنهم يجذبون طاقاتنا الحقيقية نحو السراب.

كان هذا منطقي الذي أبرر به كل ما لذ وطاب على موائد سمي الزعاف.. غير أن أبي لم يتعظ أو ينقذ نفسه ولو على سبيل المحاولة منها أبدًا.. إذن عليَّ أن أفعل شيئًا ما كي لا أرى طيبته تحرق أعصابي ذهابًا وإيابًا.. أبي العزيز سأشق عن شرخ جلل سيملأ أركانك كلها كي تثور لذاتك.. و.. تشبع معدة حقدي المهيبة.

كنت قد أتممت عامي السادس عشر عندما قررت أن أتذوق القبلة الأولى في حياتي.. لقد تأخرت كثيرًا على الكهل المخضرم داخلي.. وكان عليَّ أن أختار بين ثلاثة اختيارات.. إما أن تكون قبلة إنجي التي أحبها.. أو هديل التي تحبني.. أو امرأة لعوب..

وأخذ الشيطان يلعب برأسي ويثملها.. فقد كانت أفكاري حينها تحمل خبرة رجل طال عهده بالنساء.. حقيقة لا أعرف كيف؟ هههه.. لكن ما أعرفه.. أن طعم القبلة الأولى الممزوج بالهوى يجعل لمذاقها ومذاق الجنون لونًا مختلفًا.. يشبه بزوغ جهنم على جبال الجليد.. هذا وإن قبلتي الأولى من امرأة لعوب.. سيعزز الكثير من علومي في عالم الهوى.. امرأة لعوب؟!!

من هي....؟!!

عليها أن تكون أكثر من لعوب وعليَّ اقتناص فنون الهوى.

طنط نجوان.. صديقة أمي الصدوقة.. صاحبة أشهر دور للأزياء.. إنها امرأة لا تمل من دور العصامية الشريفة التي لم تنجح يومًا في هداية زوجها المقامر الحشاش.. فهي جِدُ محافظة وهو جِدُ مستهتر.. لكن عينيها دائمًا ما تفضحُ افتعالها لدور العفيفة الباهت..

كانت تحمل بين نظرة وأخرى عبارة هيا تقدم.. إذن.. إنها أكثر من لعوب.. راقبتها حتى أرهقت قدراتي التي لا تعرف الكدَّ أبدًا.. فقدراتي لاصطياد

فرائسي تشبه قدرة فهد جبلي أسود يعدو في ثوان للالتهام دون أدنى خطأ.. فعرفْتُ أن عشرة رجال دخلوا إلى حياتها منذ طلاقها منذُ خمس سنوات.. امرأة أربعينية شبقة.. إذن ما أجمل الدرس بين مراهق في عمري وامرأة في عمرها .. وتشوقت كجمرة من لظى.. لكنني في نفس الوقت كنت أمتلك فنون التحكم كرجل مُحنَّك.. وأعددت العدة للدرس الأول وشحذت له كل مواهبي الفطرية الفريدة.. وكان عليَّ الانقضاض على عيينها بكل قوى الطبيعة وما ورائها.

كانت في ضيافتنا في إحدى الليالي الصيفية قرب الدراسة وكان نزار شقيقي الأكبر طالب الطب.. المثالي إلى حد التقيؤ.. يمتلك رغم ذلك أحد أدوات شري.. كان ضعيفًا أمام النساء بكل أصنافهم وألوانهم وطبقاتهم.. هذه النُقبة تحديدًا تسببت في كثير من التعقيدات والعقد في حياته.. وقررت أن أستخدمه كمخلب قط لاستدراج نجوان أو نوجا كما كانت تناديها السيدة الوالدة أنهار.

ذهبت لغرفته وكان مستلقيًا يقرأ إحدى الروايات الرومانسية كي يستلهم مشهدًا أو صورة لرجل أو امرأة تطفئ شبقه الملتهب.. وكان يميل إلى طراز النساء من حقبة 1919 مثلًا ولم يسعني إدراكي يومًا أن أفهم لماذا لم تنزل السماء عليه بأي تحديث أبدًا؟! حسنًا لا بأس.. هذا النزار تحديدًا الوحيد الذي لم يسعَ إليه استفزازي أبدًا.. فقد كان غير مرئيٍ بالنسبة إليَّ على

الإطلاق.. نظرًا لعتاقة الزمن السحيق الذي أتى منه.. فحتى مفرداتي في الشر سبقت زمنه بأحقاب ولا يعنيني أن أعود معه بآلياتي المتطورة جدًّا بأي حال من الأحوال.. لكنه على أي حال لونٌ طريفٌ يشبه اليعسوب.. يصلح لاستخدامه طُعمًا في بعض جرائمي اللعينة.

- نزار... نزاااار؟

ينظر لي وهو يضبط نظارته وقد تأكدت تمامًا أنه عندما لا يحسن التقاط الصورة فإنه يفقد سمعه أيضًا.. ضحكت لا إراديًّا وأن أوقف المزيد من ضحكي الذي كان يهاجمني دومًا وأنا أتحدث معه.. كلية الطب تستقبل المغيبين والبلهاء.

-أ.. أ... أيوة يا راغب.

جلست إلى جواره.

- أنا عايز أعمل مفاجأة لماما.. ممكن تشترك معايا فيها؟

فتح فمه مبتسمًا كسمكة قرش عمياء.

- خير يا حبيبي مفاجأة إيه.. بس تكون حلوة طبعًا.

يستفز سخريتي كثيرًا

- طبعًا.. أكيد.. هو أنا يعني هافكر لماما في مفاجأة وحشة يا نزار.. بص أنا بافكر نهاديها بفستان (كلوديا كردينالي) اللي كان عاجبها قوي.

- وانت ازاي هتجيبه دا؟

شعرت وكأن شوكة لسمكة تونه تعلق في أنفي من فرط غيظي من غبائه.

- هنعمل واحد زيه يا حبيبي.

- مش فاكره قوي يا راغب الصراحة بس اشمعنى يعني؟

- أبدًا جه في بالي الخاطر دا فقلت أقول لَك.. إيه رأيك طنط نجوان تعملهولها وبابا يدفع التكلفة طبعًا؟

- تمام.. فكرة مش بطالة.

أحملق في وجهه فأشعر أني أحملق في وجه نجيب الريحاني في لعبة الست.. حتى مصطلحاته تشعرني بذلك.

- طب المطلوب مني إيه تحديدًا؟

- أنا ألهي ماما.. وانت تكلم طنط نجوان.

كنت أود أن أختبر مدى قابلية نوجا لعلاقة محسوبة بينها وبيني فبدأت بنزار لأقرأ الترمومتر وكنت أعرف أن نزار تعجبه امرأة مثلها.. وبدأت الصفارة وأخذت أراقب عن بعد.. عيناه تأكلها وهي تمارس أول شوط في جولة الاصطياد على الرغم أنهما تحدثا كثيرًا.. لكني ليلتها كنت أعرف من أين تؤكل الكتف.. ما كنت بحاجة لأن تقوم علاقة بينهما.. لكني فقط أردت استقراء عيني اللعوب وكنت قد أعطيت نزار مفتاحًا يجعله يدق أبواب عينيها.. "طنط نجوان بتحبك أوي إنت بالذات معرفش ليه يا نزار بس دايمًا باحس إنك غيرنا كلنا عندها" فانطلقت الجملة على غير محل بري في خياله الأرعن.

ورمقتها تضحك معه ضحكة ذات مغزًى تفتح بها أبوابًا مغلقة وهو يتجول بين صدرها وشفتيها بجوع شديد.. إذن.. نزار ذو التسعة عشر ربيعًا فُتحت له مفاتن اللعوب.. لن ينقصها شيء إذا نقصوا ثلاثة أعوام.. ابتسمت كتنين صغير لرسالتها.. هيا تقدم.

أقصيت المثالي الضعيف.. وتقدمت أنا.. ما أجمل فستان ماما إنه سر الهوى بيني وبين تلك الشَبِقَة.

ودخلت بيتها لأول مرة.. وفتحت الباب بقميص نوم أسود مخملي.. هه.. إنها أيضًا تعرف من أين تؤكل الكتف.. المغامرة تناديها كوجبة هابي ميل لطفل.. ما أجمل أن نتناول وجبة هابي ميل بصحبتها لعبة طريفة.

- اتفضل يا حبيبي.. اتفضل.

- ميرسي يا طنط.

جلست في الصالون وما إن جلَسَت أمامي حتى بدأت أرشقها برسائل تحسن استقبالها.. وكل أجهزتها على أُهبة الاستعداد.

- تعبتك يا طنط ماعلش.

- تعبك راحة يا حبيبي.. تصدق إن الفستان دا بالذات عملته بمزاج قوي.. كان تحدي.. لأن تفاصيله غريبة.

يبدو أنها تصف علاقة ستكون وليس الفستان تكمل..

- بس الحق بقى.. بابا دا زوج رائع إنه أصر يدفع التكلفة العالية دي.

تقولها بحسرة فقد سقط منها رجلًا كأبي.

- بابا دا حبيبي بيحب يسعد الكل دايمًا

- بس إيه اهتمامك بالذات انتَ بالفستان دا؟.. والفكرة جات لك إزاي؟

كنت أعلم تمامًا الغرض من سؤالها فرميت لها بالإجابة التي تنتظرها

- أبدًا أنا باحب ماما قوي وعيد ميلادها قرب وعايز حاجة مختلفة

أحدق في عينيها و أواصل

- وفكرة الفستان مختلفة بالنسبة لي جدًّا.. وجديدة قلت أجربها وعارف إن انتِ بالذات هتعمليه زي ما أنا عايز بالظبط وانت الوحيدة اللي هتفهمي فكرتي واللي في دماغي.

تحدق في عيني تحاول استيعاب الرجل المخضرم على السنوات الستة عشرة

- طبعًا... طبعًا.. أنا مبسوطة منك قوي.. يا ريت كل الولاد زيك يا راغب.. تشرب إيه يا حبيبي؟

لم أتردد لحظة واحدة في الإجابة

- بيرة !!

انتفضت بغير مفاجأة.. لكنها لم تتخيل أنني سأقتحم بتلك السرعة فضحكت

- بيرة؟! بس ما انتاش شايف إنك صغير شوية على البيرة دي؟

ضحكت كعاشق صعلوك

- هو المفروض يبقى عندي قد إيه عشان أشربها؟

تتأملني كالسكرانة وهي تضحك

- يعني.. انت لسَّا صغير على الحاجات دي

-أنا مش هاشربها عندك لسَّا أول مرة.. أنا شربتها كتير قبل كدا

- كتير؟ مممم ويا ترى بابا وماما عارفين؟

- لأ

بدهاء اللعوب..

- طب مش خايف أحسن أقولهم؟

بتحدي

- لأ

فتحت عينيها ورفعت حاجبيها

- وانت واثق فيَّ قوي كدا ليه؟

ضحكت كرجل قواد يمسك بالمذلات

- لأن انتِ كمان واثقة فيَّ

إنها مندهشة

- إنك مش هتقول على إيه بالظبط؟

إنها تفهمني.. فلماذا الإطالة أيتها الحرباء؟

- إنك ضايفتيني بالبيرة والمزة يعني؟

أومأت برأسها.. فلتقتصر الطرق إذن.. وضحكت وهي تنهض للبار لإعداد البيرة

- إنتَ مشكلة على فكرة

- هههههه.... عارف وانتَ كمان على فكرة

التفتت تكاد تجن من إجاباتي

- أنا مشكلة ازاي بقى؟

اقتربتُ من البار وجلستُ حذوها وهي تعد الكأس الأول نخب ليلة مغامرة

- كلك على بعضك كدا مشكلة

- تحدق في عيني والشبق يأكلها ويأكلني

- دا إنتَ كدا عايز ويسكي مش بيرة

- وماله ما يضرش.. نجرب حلوة التجربة برضه

وشربنا.. وثملت والشر لا يثملني وعشت الليلة الأولى ليس في القبلة الأولى بل في مطارحة ومصارعة ملأها عنفواني وجنون امرأة تبيع الهوى لأول مشترٍ من سوقها الرخيص.. لم أكن أجيد فنون الغرام بالطبع لكن شوقي للتجربة الأولى وعنفوان الشباب جعلاها في حالة إدمان لأفيوني اللذيذ.

واستمرت علاقتي بنجوان،. أظمأ وأرتوي.. علاقة آثمة مقرفة تعربد في المنطق.. حتى بدأت تغار عليَّ من شبابي وافتتاني بالأخريات.. ولَكم سألتني عمن أحبها والتي طالما حكيت لها عنها ليالٍ طويلة.. فكانت تموت كمدًا من

تلك التي أصف البحر في عينيها والجنة على شفتيها والحلم طفل بيديها.. كانت تعرف أنها مجرد استكشاف لقدراتي الجنسية لا أكثر.. ولا تعدو عن كونها عشيقة لمراهق يجرب عالم النساء.. كنت أتقيأ ملامحها كلما بلغتُ ذروتي منها.. تتمدد رائحة دنسها فتبتلع حتى رائحة الورد بالغرفة.. وبقيت معها لبضع سنوات أخرى.

ولطالما حاولت إثارة غيرتي على طريقة بائعات الهوى فلم تنجح البتة.. حتى قررَت يومًا أن تحرق ركني الخاص لديها فأخبرتني أنها ستتزوج من رجل شريف.. بالطبع ليمنحها صورة وهمية لشرفها المراق بين المستنقعات.. في الحقيقة هي لم تكن تعني رغبتها الخالصة في ذلك حقًّا.. لكن فكرة الاحتلال ذاتها حركت سمومي.. وأشفقت على الرجل الشريف إشفاقًا غير واقعي لأني لم أكن أفقه مشاعر التعاطف واللين.. ولكنه كان المبرر الشعوري في عقلي الواعي كي أقصيه عن حاناتها.. لم أهتز أمام دموعها في ليلة ما وهي تصارحني أنها طالما رغبت بحياة شريفة مع رجل شريف رغم أني كدت أصدقها لوهلة.. كانت تخبرني أنها تود أن تنطلق من ذراعيه لعالم أنقى وأطهر.

أخذت أفكر كيف أخمشها بكل قوتي الصفراء وأحرق معبدها وأحلامها وكيف سأستمتع بسمي ينفذ إلى كل مسامها لأراها تتعذب بألم الموت الذي لا يميت.. وكنت حين أتخيل لحظة انهيارها بيني وبين نفسي أطلق ضحكات

أكثر نشوة من نشوة لقائي بنجوان نفسها،..وانتهت العلاقة بتحطيمي لها حتى لم يعد لروحها مكان ترى منه الحياة .. إن للشر متعة لا يعرفها إلا أمثالي.. إنه ليس الشر المبني على الدم وصورته.. فهذه صورة سطحية طفيفة مباشرة لا تناسب المعنى العميق لموت الضمير.

هناك نوع من التعذيب لا ترقى إليه السكين ولا تطاله القنابل النووية.. أن تقتل روحًا وهي تتنفس.. ذلك المعنى الذي اكتشفت بعد أن رحمني الله من ناره.. أنني الوحيد الذي كنت أعيشه بكل خلجاته.. وكان انسلاخ روحي عن ضميري ورجاؤه هو الموت الأكبر غير الرحيم.

في غرفة تشبه القبو.. في جزء منزوٍ من فيلتنا الكبيرة.. المطلة على النيل.. لوحات وألوان كثيرة تتزاحم في فوضى وعدم اتزان.. تلك الغرفة التي كان من الصعب أن أسمح لكائن من كان أن يدخل إليها.. كانت أمي تلح عليَّ دائمًا أن أترك الخادمة تنظفها.. لم أكن أسمح البتة.. ورغم جمال الألوان.. رغم بهاء اللوحات البيضاء التي لم أرسم عليها بعد.. رغم جو الغرفة الذي كان يشي بسرٍ بكرٍ.. جميل وحزين.. إلا أنها كانت كثيرًا ما تخنقني وهي تلف طابعها الآسر الأخاذ حول قلبي الذي لم يختبر أي تعريف للجمال..

لم أكن أعرف السبب حينها.. فروحي لم تتسع للهدوء والسكينة وانبعاث الراحة التي ترضع الوجدان طمأنينة.. فمنذ نعومة أظافري وأنا معجون بموهبة الرسم.. لي سرٌ لا يُذاع.. وحدها الألوان تعرفه تمامًا.. علاقتي بها كانت كفكرة شيطانية تستعصي عليَّ..

أما عن الرسم ذاته فكان إليَّ ذاك الطيب الذي يَكرُّ بطيبتهِ حنقي وغيظي الشديد.. غير أنها تنفذ ما أريد وتحمل بصمة روحي الحقيرة وليس لها أن تعترض.. فكنت أرسم وأرسم.. ثم أقرأ ما رسَمت.. وكان يُثيرني دائمًا.. لماذا تبدو لوحاتي هكذا مغيبة الوجد؟!!

كنت أبحثُ بشغفٍ وجهد في مدارس الفن بكل أنواعها وأحضرُ المعارض التي كانت تفوق لوحاتها عمري بكثير.. بينما كانت سريرتي تفوق تجاعيد

الخبرات المألوفة.. بالطبع كانت يدي وعالمي يتوقان إلى الفن السريالي.. وربما أضفتُ له طابعًا جديدًا وفريدًا سَتُدرِّسهُ مدارس هذا الفن فيما بعد.

كان أبي يدعم موهبتي بكل طاقته وأمي كذلك.. كما كانا يدعمان موهبتي الفذة جدًّا في التصوير.

وجهان نهريان.. كانا يرهقاني كلما حاولت رسمهما.. وجه حاتم ووجه إنجي.. رسمت لكل منهما أكثر من لوحة.. رسمتهما بالرصاص.. وكانت يدايَ ترتعشان كصومعة راهب عتيقة على قمة ثلجية كلما رسمت ملامح حاتم.. لقد عزز صديقي الطيب الكثير من فنون الرسم لدي لكنه لم ينزع شعورًا ما لدي بالقبح أبدًا..

أما إنجي فكان وجهُهَا لي فتحًا.. أو كهفًا.. أو.. وطنًا مُحتلًا.. أو رُبما وجهي الذي غيبته أغلال الشر.. كنت كلما أرسمه.. لا أرضى عنه وأعيد رسمه بأكثر من زاوية ولون وأداة... متى أستقر على وجه لك يا وجهي التعس الشحيح؟.. كيف يكون وجهها هبة السماء ثم يواجه كل هذا المنع في جمال اللون والحرية؟.. ومن ثَمَّ.. تفتفت مواهبي عن ملكة جديدة أُعَذِّبها بروحي المتفرقة بين ترهات اللاشيء..

النحت.. ودخلت عالمه ألهث وأنا أحفر المعالم والقسمات.. من يُعذب الآخر؟.. أنا أم الفن؟.. هل أتعذب؟.. هل كنت أشعر ببعض الوخز؟..

لا يسعني أن أذكر ذلك على الإطلاق.. على الإطلاق.. لكني كنت أبحث في كل مفاتيح الجمال والرحمة عن مفتاح واحد له تلك القدرة على إفاقة روحي.

كنت شاردًا يومها ألقي جسدي العاق على الأريكة حين أتتني أمي بكوب من الليمون بالنعناع وأنا مصاب بنوبة إنفلونزا حادة..

حدقت في وجهها.. وجه أمي.. لماذا لا أرسمه؟.. إنها كل معاني الرحمة في الحياة.. طبعت ملامحها في نفسي ودخلت مغارتي أرسم وكاني أهرول راكضًا لآلاف الأميال تتلاحق أنفاسي.. ورسمت اللوحة بسرعة الصاروخ وبتمكن غريب دونما توقف.. ثم توقفت بعدها فجأة أتأملها.. ما الجديد.. وجه أم من بين ملايين الوجوه للأمهات.. أمي ليست المفتاح الذي أبحث عنه.. ليست الرحمة التي أفتقدها وتنقُصُني.. أيةُ رحمة تلك التي فُرضت عليها كأم.. إنها أيضا حبٌّ مفروضٌ على قلبي كالآذان وقداس الكنيسة.. ليس لي فيه فضلٌ أو اختيار.. لم تحركني أية عاطفة وأنا أرسمها.. وسرعان ما تخلصت من اللوحة التي أهديتها لها بلا مناسبة..

فرحت بها ووضعت لها إطارًا رائعًا يناسبها وعلقتها في ركن الصالون الكبير.. لا بأس إن منحتها وجهها تجعله تحفة معلقة على جدران البيت كتاج محل.. ذلك سيعزز بعض غرورها الكاذب ونرجسيتها وافتتانها بوجهها المحقون بمسحة من وجهي الحقير.. وذاك ملمح آخر سمج لثُلة من أغبياء.

أمل.. أختي الصغرى.. ذات الشعر الليلي الكثيف والجسد المنحوت والبشرة الخمرية.. وعيون ناعسة كآخر الليل على ولوج الفجر.. وابتسامة لا تفارقها أبدًا كطفل لا يغادر أيامه الأولى.. عاشقة الورد و العصافير.. الغارقة في الحياة والرقص.. كانت تعتنق الباليه يقينًا بأن الحياة ترقص على أطراف أصابع الباليرينات..

ولكم تجمدتُّ مكاني وأنا أرمُقها تطيرُ على حواسها وأطرافها في كل اتجاه في بيتنا كفراشة تزهو بالأمل والجمال.. ولكني كنت أسأل ماذا سيفيدها الباليه؟ ولماذا يوليها أبي كل هذا الاهتمام ويلبي لها كل مطالبها.. حتى قبل أن تطلبها؟.. لماذا كل هذا الدلال الفارغ؟.. لماذا يصطحبها دائمًا في معظم سفرياته ويغدق عليها بالحنان والرفاهية.. حتى وإن كانت ابنة وحيدة على ولدين..

أنا لا أفهم حيثيات أبي كثيرًا.. فدور الأب الحنون بمناسبة وغير مناسبة يستنفد فحيحي كثيرًا.. لماذا عليَّ أن أهدأ تجاه كل هذا الإفراط غير المفهوم في عطفه عليها؟

سمعته ذات يوم في نقاش مع أمي وهما يتناولان قهوة الصباح وهي تسأله وترجوه أن لا يفرط في دلالها بهذا الشكل لأنها كبرت.. فقال لها جملة غريبة استثارت حواسي

- أنا عايزها تعيش وتهنا في خيري وحناني ورعايتي قبل ما تروح لحياتها مع راجل ثاني ما اعرفش ممكن يعمل فيها إيه أو يخليها تحس بإيه.

مممممم.. وهل كانت أمي تعلم ما ستلقاه عندك؟.. ولماذا لا تدللني كما تفعل معها؟.. فلربما أنا أيضًا أخضع يوما لجناحي امرأة من جبابرة الأرض كزوجتك المصون.

لَكَم حيرني هذا الرجل.. أهو طيب حقًّا؟.. أم طيب لعقدة ما؟.. لم يتطرق إلى خيالي أبدًا أن تكون طيبته ورقته تركيبة إنسانية وغيض من فيضِ سلسبيلِ روحه العذبة.. لابد أن أرى الصورة منقوصة مبتورة يكملها معنًى ما لديَّ باهت وأصفر.. أما عن تلك المدللة حتى الفراغ لابد وأن أعزز مكانها الوثير عند هذا الرجل الطيب.. المستفز.

كانت أمل تصغرني بعام واحد.. وكانت ملفتة.. لا يمكن أن تمر أمامك إلا وتتعلق عيناك بما ما لا يقل عن خمسة دقائق بها.. فكرت مليًّا قبل أن أزعزع دلالها المتكدس بين يدي أبي.. إن بإمكاني أن أجعل منها صديقة مقربة جدًّا لإنجي.. ولمَ لا؟! فهما متماثلتان في العمر والاهتمامات.. هي صديقة هديل التي سعت لصداقتها تقربًا مني.. فهديل لديها عقيدة أنها حلمي الأول والأخير.. أوهَمْتُها بذلك وأقنَعْتُها حتى اعتنقت الوهم وتناولته كشربة ماءٍ واحدة.. إنها تُدمِن خداع نفسها بشكل أقرب إلى جبل جليد

يؤمن بذوبانه على نار شمعة.. بل ظنت نفسها تفهمني أكثر من نفسي وأنها تشعر بي قبل أن يأتيني الشعور ذاته.. وأنها وأنها وأنها.. سيل من الجمل التي تحجل على ألسنة المحبين كغراب أعرج.. باختصار كانت هديل طعمي المجاني اللزج كثيرًا ومُصيبًا أحيانًا مع إنجي.. التي كانت تختال أمامي ليل نهار.. سنة تلو الأخرى..

أُؤجل سمومي نحوها ساعة بعد ساعة.. دقات قلبي التي تملؤها شغفًا وولعًا تَصرِفُ عنها أذاي بكل خفقة لها في صدري.. لكنها على نحو آخر تراكمها في حفيظتي كلما رأيت حاتم يرقص بين أحلامها وكلامها وشدوها وظلها..

يومًا ما سيدفع صديقي ثمن تلك الأحلام بقسوة.. إنه لم يشك للحظة واحدة أنني أحبها.. لكنه على علم تام أنني أمتلك قدرة ما عجيبة على الولوج في الأشياء.. فقط وداعته وثقته العمياء بي لا تدفعه إلا إلى احتضان شوكي قبل وردي وابتلاع أي شائبة تعكر صفو حبه لي وتفصُم عروة صداقتنا.. ولكن ترى لو صارحته بحبي لإنجي فهل سيضحي أي تضحيات نبيلة؟.. أنا لا أريده أن يضحي.. لا أرغبه في عينيها بطلًا وفارسًا طوال الوقت.. يثب من حاجز إلى آخر في خيالها الرحب.. أريده مسخًا.. بهلوانًا انتهى عرضه ولكن.. تبًّا متى ينتهي العرض؟.. متى؟.. متى؟

تلك الأقحوانه لديها حدس لا يُخطِئه أنفها.. تعرف أني قناصها.. مريدها.. عاشقها حيث كانت أو تكون.. لكنها تتعمد حيرتي تارة.. وتجاهلي باقتدار تارة وتشويقي كمشاهد مرهق الرهف تارة أخرى.. أنا وهي فتحنا لوحة لعبة السلم والثعبان.. و يبدو أن اللعبة طويلة.. طويلة جدًّا.. حتى ضمتني إلى معطياتها.. لكنها لا تعلم.. أني لا أخسر لعبة أبدًا.

ظهرت نتيجة الثانوية العامة.. كنت الأول بلا منازع.. وكان حاتم الرابع وحصلت إنجي على 71% فقط.. بالطبع ماذا يمكن أن يمنحها العلم أمام قلب عاشق لم يتعلق إلا بصورة الفارس النبيل الذي تفوق عليها.. أما هديل فتفوقت وكان لها المركز الثاني ليس فضلًا لكن قتلتها محاكاتي طوال الوقت.. تريد الفوز بإعجابي بكل ما تفعله.. إنها بريئة أكثر من المعقول.. كان الأجدر بها أن تنال تفوقها لذاتها وليس من أجلي.. كم أكره هذا الصنف من الأغبياء.. فكلماتها تفرز اشمئزازي من إيثارها "الأوفر دوس".

- أنا باهديك نجاحي.. أنا فرحانة إني الثانية وانت الأول أنا تفوقت عشان لازم أستحق حبك.

أطبقتُ شفتيَّ بغيظ ساذج

- عشاني أنا؟... لا يا حبيبتي أتمنى تكوني ذاتك عشان أما ذاتك تكبر ساعتها بس أنا فعلًا هاكبر.

لابد وأن أجاريها وعليها أن تصدق أمنياتي تلك وإلا خسرت باقة القبلات والعناق الزاخم كل حين وقتما يسمح الزمان كما يغني (عبد الوهاب)

- هتفضل تحبني كدا على طول يا راغب بجد على طول؟

- لحد ما أموت يا حبيبتي.

- بعد الشر عنك يا حبيبي اِوعى تجيب سيرة الموت.

ابتسمت لها وقلت في نفسي هيييييح وما دايم إلا وجه الله.

وقرر أبي وأمي أن يقيما احتفالًا غير معهود لنجاحي وتفوقي في الثانوية العامة.. وكان حفلًا رائعًا.. دُعِيَ إليه الصفوة والزملاء الناجحين والناجحات وبالطبع إنجي وحاتم وهديل.. كان حفلًا في فيلتنا الكبيرة التي تبدو كقصر ملكي فريد.. حضر الجميع والجميع هنا الذي أعنيهم إنجي وحاتم وهديل.

في الواقع لم أكن أحتفل بنجاحي ولكن أحتفل بإنجي.. ليس بنجاحها بالطبع ولكن بحضورها الذي طالما كان طاغيًا والذي كان يؤرقني دائمًا.

كنت أحتفل بوجهها الذي يشبه عيد العصافير.. لم يعنني الابتهاج بتفوقي المعتاد والمتوقع وأنا أشدو ألمي كناي حزين.. فحبيبتي نجح آخر في اقتناصها والسيطرة على فؤادها الذي وضع فيه قلبه.. دخولها إلى بيتنا بصحبة حاتم هالني حرقة.. يمشيان حذو بعضهما .. تتلاقى عيناهما لكني أرى عين كل منهما في قلب الآخر وكأنه يعرف تمامًا كل لفتاته السابقة واللاحقة..

خطوة كل منها هي خطوة الآخر.. حتمًا هناك لحظة آتية لا محالة.. سأحرق تلك النظرة التي تحملها عينيها لك وحدك.. ماذا يمتلك هذا الحاتم ليحصل على قلب ووجدان إنجي.. أرمقهما بكل حقد العالم الذي لا يضاهي..

ابتسامتها له تكلس دمي في عروقي.. أطبق شفتي كما يطبق زلزال على أنفاس العباد.

قطع حديثي لنفسي سليم صديقنا وهو أحد أعداء الشمس.. كان متفوقًا

طيب القلب.. كلما نظرتَ إليه ترى قلبًا ينبض في ملامح إنسان.. لم أذكر أنني رأيته أبدًا إلا باسمًا تزدحم على قسمات صوته فرحة الأطفال وبراءتهم.. لكن شخصية مثلي متخمة بالأنا.. حد التعاظم الأعمى لا ترى أبدًا جمال غيرها.. فعيني الوضيعة كانت تراه أحد رعاة فن الاستظراف والاستعباط.. أشعر أنني أتعثر دائمًا في سماجته.. دخول تعليقه على شرودي دائمًا كدخول قافلة من البعوض في أذني.

يهز حاجيبه كأذني طنجرة محترقة

- حاتم دا ولد بصحيح.

التفتُّ له بطرف عيني وهو يكمل.

- أخد الحتة التلبيانكو.

باشمئزاز

- تليبيانكو؟... دا آخرك يعني؟!

يبتسم ابتسامته المكتظة بوجنتيه العريضيتين

- أُمال آخرك انتَ؟

أطبقت أسناني وتركته وحده قبل أن أَلكُم لحمه الذي لا يتأثر لأي شيء

رحبت بحاتم وإنجي معًا بحفاوة مصطنعة لكنها لم تثِر انتباه أحد

- الناجح يرفع إيده

تُمسك بيد حاتم

- طب هو يرفع إيده.. انتِ ترفيعها ليه؟

تخرج لسانها وهي تضحك مداعبة

- عشان ناجحة برضه.. هه... هه

- يا خيبتك ولا هتخشي معهد حتى

- لا.. لا.. يا راغب.. إنجي تتفتح لها الكليات مخصوص

- شفت أهو قال لك أهو.

- طب أما نشوف التنسيق هيوديكِ فين يا قطة وابقي خليه يفتح لك كلية تتقدم منا هديل ووالدتها " ليلى" الأم الحنون.. وهديل كأنها وردة.. بوجنتها وبشرتها البيضاء ذات النمش من فرط الفرحة تتلقى لون عينيها البندقي كشجرة وارفة على أرض ملتهبة.. أعرف كم هي بريئة.. مثالية.. تحبني بكل خلية في مسامها وأعرف أن حبي في قلبها له من القدرة أن يصمد عمرًا كسنديانة عتيقة لا تشيخ أبدًا.. تطير نحوي لا تلمس قدماها الأرض ولا ترى كل من حولنا.

بفرحة وطفولة:

- أنا جيت

وكأني لم أعِ وجودها بعد والتفتُّ لإنجي التي كانت تعطيني ظهرها وتتحدث إلى بطلها الهمام

- شفتِ الناجحين أهم يا أستاذة

- تلتفت نحوى..رائحة جلدها تخترق وجودي.. وتبتسم وهي تنظر لهديل.

- وما له.. كلنا ناجحين.. إنت بس اللي عنصري.. يا أخي احنا جايين نحتفل مش نفرز سيراميك

- حقه يتغر مين قده الأول بقى.

ليلى والدة هديل بفرحتها

- فرحانة بيكم قوي يا ولادي عقبال يا رب ما تفرحونا كدا بقى بشهادات التخرج والوظايف المحترمة يا رب.

- يارب يا طنط.

- وانت ناوية تدخلي كلية إيه يا إنجي؟

تنظر إليَّ وتعرف أني أنتظر إجابتها

- معهد السينما إن شاء الله

- برضه سينما يا إنجي ما انصحكيش.. ليه يعني؟

أرمقه بغيظ

- يا حبيبي دا لو قبلت كمان

بطرف عينها

- هافرسك وهاقبل وهابقى أشهر من نجوم هوليود

أحدق فيها وأنا أكاد أمنع عيون المحيطين بنا من الانتباه لما تقوله نظرتي لها

- نتمنى.. يا سلام.. واحنا نطول نعرف الآنسة إنجي وهي أشهر من نجوم هوليود

ابتسم حاتم في وداعة تشبه روحه التي تملؤني كمدًا وحقدًا

- شرطة إن شاء الله.

ترمقني هديل بحمرة التفاح في أوج موسمه.. وكأنها تعلن اختيارها لأجلي

- أنا بقى.. طب إن شاء الله

إلتفتُ إلى إنجي وأنا أمتلأ غيظًا منها وحبًّا لها مشيرًا إلى هديل

- شفتِ بقى.. الدكتورة هديل

أقولها وأنا أرى هديل الحبيبة التقليدية جدًّا.. حتى بطموحها أن تكون طبيبة.. فقط لأنها حصلت على مجموع يؤهلها لذلك ولو كنت أشرت لأي كلية أخرى وأمرتها أن تدخلها لدخلتها ولكنها عَبَّرت عن أمنيتها فوجدت مني إذنًا بتحقيقها.. بينما تلك التي يسحقني اختلافها من أول شعرة فيها مرورًا بأقراطها وكُم فستانها وأزرار سروالها وعرق جلدها وكل تفصيلة وخلية تتفرد فيها حتى أظافر قدميها.. هديل تقدم لي حبًّا معلبًا يشبه أفلام الخمسينيات.

الحبيبة المطيعة.. القنوعة.. التي تسعى لإرضائي دائمًا ومحاذاتي على أي وجه.. منذ خفق قلبها لي لم أسمع منها سوى.. حاضر.. كما تريد كما تحب.. تشعرني أنها أَمَتي.. ولست من ذاك النوع من الرجال الذي تستهويه الأنثى

الجارية.. خلقت لأعشق أميرة.. حتى قُبلتها التي أقتنِصُها على سبيل إقناع ذاتي المتمردة أن تكون بمثابة ملهاة لي عن فكرة كوني لا أحبها.. لم تتعلم منها هديل أي شيء.. فهي لا تبادلني القبلة بالقبلة.. ولكنه الاستسلام التام كنوع من الخضوع.. إنها قبلة الطاعة.. وإن حدث وتغيرت في قبلتها.. أجدها تحاول تقبيلي على نفس النحو كنوع من المحاكاة البليدة والتي أبدًا لا تروي روحي من الداخل.

أعرف جيدًا كشرير أولًا وكرجل يعرف عمق الجذوة العاطفية الفرق الشاسع كالهوة الساحقة وتبدو كشعرة بين الحب والإقناع بالحب.. وألا أقع أبدًا فيها.. ولا يغربني أفيون التعود..

إني أقبل هديل بكامل قواي العقلية.. لكني أقنع نفسي بكامل وعيي بأن شفتيها شفتي إنجي وأنا أدرك تمامًا أن تلك الأخيرة لا تمتلك شفتين.. إنهما ضفتا نهر بينهما شهد الرضاب.. أعرف مذاق قبلتها كما وأنه يسكن ريقي منذ ألف عام.. وقبل تَكَوُّن الشفاه.. أعرف تمرد شفتيها كيف يمنح حياة مدججة بالفردوس لمُقَبِلِها..

وأعرف أيضًا أنها تَدَّخِر كل هذا لحاتم.. وأني يومًا ما سأنتزع ذاكرته التي تحمل خيال كل ذلك.. فهذا المثالي جدًّا لا يحيق به إلا حب معلب كحب هديل.. لماذا لم تحبه هو؟..

إنهما طيبان مثاليان يستفزان فحيحي للتخلص من غبائهما..

أما إنجي.. فستحين اللحظة التي أجعلها تركع لتطلب عفوي عن حبها لذلك الوديع كبحر راكد لا يعرف متى وكيف يثور.

قطعت شرودي بصوتها الدافئ

- وانت بقى يا فلحوص؟

أحدق فيها..

- سينما عشان أخرج لك أفلامك يا نجمة

- بمجموعك دا..؟ معقولة يا راغب؟ طب قول طب ولا سياسة واقتصاد

- السينما عندي أحلى من كل دول

انشغل الجميع بالحفل وفقراته حيث تصاعد صوت المطربة الحسناء تلك التي أتى بها أبي الذي يعشق الغناء والفن والطرب..

كل ذلك وهديل تتبعني كظلي من الداخل والخارج والعكس.. وإن أفلتُّ منها لدقائق ترافقني عيناها وأنا أنفض نظراتها والتصاقها الذي يرهقني كمريض "الأرتيكاريا" وأدور أنا حول إنجي كذئب يتصيد غزاله..

ورمقتها من بعيد تمشي على أطرافها كفراشة يقذفها النسيم في كل اتجاه.. متجهة نحو "روحية" الخادمة تسألها إن كان بإمكانها دخول الحمام فأشارت لها روحية للصعود للحمام في الدور العلوي لأن الآخر تُجرى به بعض الاصلاحات..

وفي "فيمتو ثانية".. راودني شيطاني بفكرة جهنمية لا تحتمل أي تأجيل..

الليلة.. بل الآن.. سأُقَبل إنجي.. فتلك المتمردة أعلم تمامًا كم يروق لها تعلقي وولعي بها.. فكم من العمر سأنتظر حتى تبتل أرضي بقطرة ماء منها.

صَعَدَت ودَخَلَت إلى الحمام.. اتجهتُ فورًا لقطع التيار الكهربائي عن البيت كله.. ولحقتُ بها كالمجنون قبل أن يعيد أحدهم التيار.. واختبأتُ في ظلام حالك حتى خرجَت بينما أجذبها كغزالة وقعت بين فكي ذئب ينهشه جوع كافر.. وأطبقتُ بشفتيَّ على شفتيها أكتمُ صرختها ومقاومتها.. أنهل ما استطعت منها ومن تمردها المستسلم..

لم تأخذ القبلة أكثر من دقيقة واحدة لأتركها مهرولًا في لحظة مقاومة عنيفة ثم نزلتُ ألهث من الباب الخلفي حتى لا تراني وعدتُ أجلس بجوار هديل وقد عاد التيار الكهربائي بالطبع قبل وصولي وحاولت أجمع أنفاسي من هذا المحيط الذي أغرقني في فيض اتساعه..

وأخذَت هديل تحكي عن نفسها وطموحها في أن تكون طبيبة.. وأنا لا أسمع شيئًا.. لا أرى أحدًا.. ومرت إنجي أمامي يبدو عليها الارتباك التام وهي لا تعرف من الذي اقتحم أنوثتها الوليدة.. لكن إحساسها لم يخنها فقد أرسلَت إلي نظرة المدرك تمامًا بأنه أنا..

لم تخالجها ذرة شكٍ واحدة.. لكنها أبدًا على مر السنوات اللاحقة لم تُفصح عن ما حدث لكائن من كان.. وشَعرتُ بنفس شرودها.. فهي إلى جوار حاتم يحدثها وعيناها تهيم باتساع المدى..

تصطدم بعينيَّ فتختلج وتطبقها.. كأنها تطبق على مذاق البكارة الأولى للقبلة الأولى.. وكنت على يقين بأن حاتم لم يفعل ذلك قبلي فمثاليته تحول بينه وبين المغامرة في الحب..

ولم أكن لأسمح له أن يكون الأول كما لم أسمح له على مدار عمرينا في كل شيء نتشارك فيه.. كما لن أفسح له الطريق البتة ليعيش سعيدًا بصحبة امرأة لابد وأن تكون لي.

وبدأت مرحلة الجامعة.. تلك المرحلة التي لا تسع سعادتي بها.. فانتقالي لهذا الملعب الواسع سيشهد الكثير من شري وخططي وممارسة الشر كأحب هواياتي إليَّ ولربما كانت هوايتي الوحيدة التي يتفرع منها كثير من الهوايات.

دخلَت هديل كلية الطب.. ودخل حاتم كلية الشرطة مجتازًا كل اختبارات القبول بامتياز.. أما إنجي فتحقق حلمها في معهد السينما وكذلك أنا.. وحضَرَت في اليوم الأول للدراسة كنجمة فعلًا ترفع لها القبعات وتقف لها الهامات.. كانت مميزة وسط كل بنات المعهد.. لها سحر غريب لا تُخطئه الشهرة أبدًا.. واتسع عدد معجبيها ليشمل زملاءنا وأساتذتنا وكان قلبي يحترق غيرة عليها.. لماذا لم أستخدم خطة واحدة من خططي التي لا تبور لإحباط حلمها بالنجومية؟

وبدأت تنهال عليها العروض وهي لا تزال طالبة يدعمها في ذلك اسم والدها السيناريست الكبير أكرم رشوان.. رغم أنها لم تكن في حاجة لأية مؤهلات أخرى.. فجمالها وجاذبيتها وموهبتها وذكاؤها الأخاذ كان كافيًا وافيًا.. وكنت أنا محط إعجاب زميلاتي.. فقد كان لي شخصية قيادية تبدو هادئة وغامضة.. وكانت وسامتي التي تحمل الطابع الفرعوني ذا المسحة الفينقية جعل عروضًا تنهال عليَّ أيضا للتمثيل لكني لم أحب يومًا الظهور أمام

الكاميرات.. فأنا لا يغريني وجهها.. فأنا أُدرك وأثق بقدراتي خلفها.. تمامًا كدوري في الحياة الذي يحرك كل المشاعر والأحداث من خلف الستار.

وفي صباح شتوي غائم كنت مع زملائي نقف في البهو المؤدي لمكتب العميد وكانت تقف بيننا إنجي التي حضرت هذا اليوم مجعدة الشعر كنجمات الخمسينيات.. تعزز شفتيها بالأحمر الصريح حتى غدت كشجرة توت.. وترتدي سترة رمادية وكوفية حمراء وسروالًا من الجينز الأزرق.. كلما استقرت عيناها على عيني قرأت فيهما رغبة الانتقام من القبلة التي ابتلتُعها عنوة من شفتيها.. إنها تنتقم بمزيد من حبي لها.

مر صلاح نشأت المخرج والذي كان أستاذنا فنادها وهي تضحك بينما فتحت عيني على مصراعيها وكل ذرة في حواسي.. تنحى بها جانبًا .. واقتربتُ منهما نوعًا ما علي أسمع.

- عايزك في دور حلو قوي.. لفيلم جديد باعمله

كادت تطير فرحًا

- معقول؟ حضرتك فكرت فيَّ أنا؟

يبدو كثعلب مُحنك

دي فرصة عظيمة يا إنجي وهتفتح لك الطريق جدًّا بعد كدا.. أصل كل مواصفات الدور فيكِ .. عدي عليَّ بعد المحاضرة أديكِ الورق وأقول لك تعملي إيه.

زملاؤنا وزميلاتنا جميعهم تعلقت عيونهم بها تمتلئ حسدًا وغِبطة للنجمة القادمة وهي تمر أمامهم بخُيَلاء وتحدي.. فهي تعرف تمامًا ما تفعله وتثق جدًّا بقدراتها.. أما أنا فكان قلبي يأكله حيها.. أكاد أفقأ عيون الناس كي لا تنال منها قيد أُنملة.

وفاجأتها في أول يوم للتصوير بأنني مساعد مخرج متدرب مع صلاح نشأت.. وجُن جنونها رغم علمها التام بأنني لن أفوت فرصة أبدًا لتكون تحت عينيَّ أينما كانت.. سلاحها الذي تبارَزُني به ثقتها أني لن أجرؤ على البوح بمشاعري لها.. فهي حبيبة صديق العمر.. كانت كجاسوس في الموساد في لعبة الحب بيننا.

وقفت أمامي خلف الكادر وهي ترتدي ملابس الشخصية وفي كامل استعدادها تبتسم كفيلق من أقمار.. وضعت يديها على خصرها تمسك بورق المشهد.

- إنتَ مش ممكن أبدًا.. ما تفوتش فرصة.

- طبعًا.. مش قُلت لك لازم أخرج لك أفلامك.. وبعدين.. إنت أمانة في رقبتي.. حاتم دا أخويا.. موصيني عليك.

تحدق في عييني وتدرك تمامًا أني مراوغ لا محالة فتباغتني

- تعرف إنه وحشني قوي يا راغب.

- أُمال هتعملي إيه لما يتنقل من محافظة لمحافظة يا نجمة؟

- أنا بجد مش عارفة هاعمل إيه.. يا ربتني ما شجعته يدخل الشرطة

- كان هيدخلها هيدخلها بتشجيعك أو من غيره

تتعمد إغاظتي

- حبيبي يا حاتم.

شعرت وهي تقولها أن لروحي أصابعًا كأصابع إبليس تقبض على عُنقِها حتى تلفظ أنفاسها.. تركتها ومضيت أتأمل حركة البلاتوه وأنا أحث نفسي لتفعل شيئًا.. عليَّ أن أُثمل رأسي الليلة وأن أُخَدِر شري الذي يرصد إنجي ويتخيلها ممزقة لألف قطعة..

دلفتُ إلى الخارج أشعل سيجارة وأنفث فيها أفكارًا متلاحقة تتراقص عيناي كحية رقطاء.. فكرتُ أن أذهب إلى هديل.. ستفرح كثيرًا.. ولكن غضبي الساعة لن تُطفئه همهمات تلك الباردة الرتيبة.. عُدتُ إلى البلاتوه وأنا أترك السيجارة من منتصفها أطأها بقوة إعصار.. وعدتُ من جديد أتأملها وهي تؤدي أول مشهد لها في فيلمها الأول.. ومن فوري ابتسمت وأنا أُعَبئ المكان بزفير طويل وحار.. لقد راكمت إنجي سمومي نحوها لسنوات لا أعرف كيف مرت.. متى ستأكل الكعكة التي أعددتها لها بشهية واسعة.

انتهى المشهد.. الجميع يصفق لها.. اقتربت منها راصدًا مقلتيَّ بين عينيها

- هايلة يا نوجي.. هتبقي نجمة كبيرة بجد.

- (بفرحة) صحيح يا راغب يعني كنت بامثل حلو؟

- إنتِ معجونة موهبة.. بكرة هافكرك

صلاح نشأت تلمع عيناه بشراهة لنضارة شبابها

- بصي يا بنوتة اِنتِ.. لو سمعتِ الكلام واشتغلتِ على نفسك كويس خلال ست أو سبع سنين هتبقي نجمة سوبر ستار.

لعب الحظ في نجومية إنجي لعبته الجريئة الواعدة فقدم لها ما تتمناه كثيرات يحلمن بعالم الشهرة والبريق.. كانت تُفتح لها الأبواب الموصدة و تتهيأ لها كل الظروف دون أدنى مجهود منها لكن ذلك أبدًا لم يُقصِها عن حاتم رغم الاختلاف الحاد بين طبيعة عملهما ورغم ظهور قوافل من الرجال من كل حدب وصوب وبكل شكل ولون أمامها لكنها كانت صامدة عفيفة مخلصة له كما لو كانت راهبة.. كان وفاؤها وصدقها في حبها له خاصة في غيابه يَلطِمُ قلبي ويَقُضُّ مَضجعي.

خَرجتُ في ذاك اليوم الأول لها أمام الكاميرا.. أود أن أُفرغ شحنة ما تأكل رأسي كبلاد النمل.. ذهبتُ إلى الباردة والتي عرفتني مسبقًا بكل زملائهما وأصدقائها.. كم أكره كلية الطب.. رائحتها تعج بالفورمالين.. طلابها يشعرون دائمًا أنهم شعب الله المختار على هذا الكوكب.. يأكلون وسط رائحة الدمار.. يشربون بكل هدوء أمام عفن الجثث لا يبالون لشيء.. ورُغم أني اعتقدت أني المادة الخام للشر أُحادي الخلية.. إلا أنني أبدًا لا تستدعيني معطياته المأخوذة من الدم.

انتظرتها في الخارج بسيارتي التي كانت مثار حسد أقراني بلا استثناء.. أتت إليَّ مرتدية نظارتها الطبية التي لم تكن ترتديها قبل التحاقها بالطب.. ولا أعرف ما العلاقة التي تربط الأطباء بالنظارة.. ورغم جمال هديل إلا أنها بنظارتها المهولة تلك أصبحت تبدو لي كالأرنب الغضبان والذي طالما حكت لي أمي حكايته وأنا صغير.. جمالها يبدو عليه الصقيع الذي يجمد كل طاقاتي وتحديدًا وأنا أقبلها.

كانت تقف بصحبة زميلاتها وزملائها والذين كان من بينهم شابٌّ يدعى سمير كان يشبه جورباتشوف.. لا أعرف لماذا كلما رأيته معها شعرت أنني أمام القطبين الشمالي والجنوبي معًا.. وعرفت بعد متابعة لم تستهلك مني أي مجهود أنه يتقرب إليها كثيرًا رغم علمه أنها مرتبطة بي عاطفيًّا لكن يبدو أن ذلك عزز رغبته في الالتصاق بها أكثر.. كلما ذهبت إليها كان هو معها كأنه هو الذي ينتظرني.. لم يعنِنِي كثيرًا.. ولم أشغل بالي به لأني كنت قد قررتُ ما سأفعله معه لاحقًا كصرصار أقتله بضربة نعل واحدة فأنا لا أحب أن يتطرق أحدًا لألعابي.. وحتمًا هديل أحدها.. فلم تزد أبدًا عن كونها لعبة سمجة بينما كانت هي تعمر قصورًا في خيالها على حلم الزواج بي يومًا ما

جلست بجواري في السيارة

- حبيبي وحشتني موت

- (بكل هدوء مُقَنَّع) وانت كمان يا حبيبتي.. إنتوا إيه شغالين طول الوقت كدا.

- كلية الطب دي طحن فعلًا.. صعبة جدًّا لولا سمير بجد كنت مش هالاحق.. كتر خيره بيساعدنا كلنا

أنظر في عينيها وأدرك براءتها وصدقها لكنها تستفز فحيحي

- أنا عارف إنه جدع قوي

لم أرغب في لفت انتباها حتى أترك الأوضاع على طبيعتها وأرمقها عن كثب.. اصطحبتها إلى مكاني التقليدي المعتاد على سفح المُقطم حتى يتسنى لي تقبيلها وبعد قبلة قصيرة مبتورة تركتها.. فكل قبلاتي لها من بعد قبلة إنجي التي اقتنصتها منذ سنوات تعد من قبيل تفريغ الطاقة وتجميد لقلبي في ذات الوقت..

إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لرجلٍ أو امرأة أن يقبل آخر وهو يعشق آخر.. إن قبلة هديل لا تعدو عن كونها ورم سرطاني يتشعب في روحي.. لم أعد أجيد التمثيل وإقناع عقلي ومشاعري (حتى الجنسية منها) لأكثر من ذلك.

أَخَذَت تتحسس وجهي وتمرر أصابعها في شعري

- ما لك يا راغب؟ فيك حاجة متغيرة

عيناي ثابتتان في عينيها كأني لا أراها وهي تواصل

- مش عايز ترد عليَّ؟

- (بكل هدوء) لا مافيش.. أصلي كنت متخانق النهاردة في التدريب شوية

أواصل شرودي غير المقصود وأنا أسأل نفسي.. كيف قَبلتها على مدار الأعوام الماضية.. إن القبلة أخطر ما في علاقة روحية بين اثنين هي جواز مرور القلب إلى الشفة، الرغبة ليست إلا موثقًا.. شفة المحب وريقه ليسا إلا جندًا من جنود الروح العاشقة.. كتاب يلخص منتهى الحياة في ومضة اسمها القبلة.. كيف قبلتها.. كيف.. كيف؟

انطلقت بسيارتي وهي تهمهم بكلمات كثيرة متلاحقة لا أسمعها وأنا في معركة في دمي أحاول دائمًا تجنبها.. هل أحدث نفسي عن الروح؟ أنا؟ أين ذهب ذاك الحيوان القذر؟

لماذا تخلى عني في لحظات رغبتي الجنسية البحتة؟ هل حقًّا هذا ما فعله بي حُبي لإنجي؟ هل يحيل الحب دوافع المرء فعلًا من الشر إلى الخير.. يااااه.. الخير كلمة رائعة.. لا أعرف هل اشتقت أن ألمس معناها.. فلأُجَرِب إذن امرأة أخرى لأرى هل هو خير الحب أم هي سَماجة علاقتي بهديل وامتقاع نفسي منها.

وجدت نفسي أمام بيتها وهي تتأملني والدموع تملأ عينيها.

- انتَ متغير معايا ليه قوي كدا؟

أوشكت أن أقذف بها خارج السيارة.

- يلا انزلي وخلي بالك من نفسك أنا مش في المود

أخذت أجوب شوارع وسط البلد أرمق الناس والأرصفة.. تتخللني أغنية عبد الوهاب (وعشق الروح مالوش آخر لكن عشق الجسد فاني) أطبقت على صوته في السيارة أكتمه بكل قوتي.. وتوقفت أمام أحد المطاعم الكلاسيكية الشهيرة والتي تقدم الخمور.. دخلت بلا هدف ولا حتى هدف تناول الطعام، مررت بوجوه البشر.. كل هؤلاء ميتون يمثلون الحياة والتورط باحتراف.. ويعيشون الموت المنتظر بضراوة الصدق الكذوب.

أتاني صوت من بعيد يناديني

- راغب

التفتُّ فإذا هو سليم يجلس بصحبة فتاتين وشابين أعتقد أنهم أحضروه بينهم ليكن (الماريونيت) لجلستهم السامرة.. قام يعانقني بحفاوة.. فهو يحب الناس، كل الناس.. كل الأوقات.. في كل الأماكن.. يحب حتى الهواء ابتداءً وانتهاءً.

- واحشني يا ولد.. واحشني جدًّا

ابتسمتُ له وأنا ما زلت أرغب أن أَلْكُم لحمه الذي لا يتأثر لشيء إلا لأن طيبته وسلميته تغذي روحي الحقيرة.

بدأت أستعيد إيقاعي وأنسى حديثي العابر التافه مع نفسي منذ ساعة عن الخير ومخلفاته.. وانضممت لأسرة الأولمبياد على إحدى الطاولات.. تعارفنا سريعًا.. الشابان أحدهما (رامز) زميل سليم بكلية الآداب قسم اللغة

الإنجليزية والآخر (عارف) في كلية الهندسة.. وبدا لي سريعًا أن رامز حشاش مقامر.. يُجرب كافة أنواع المخدرات.. ليس له أي اتجاه في الحياة، دخل الجامعة تقليدًا أعمى من تقاليد أسرته الأقل من المتوسطة.. يزاحم أبناء الطبقة الغنية ذات المستوى الاجتماعي المهر ليصنع لنفسه صورة ليست صورته.. إذن هو متمرد على بيئته ووضعه الطبقي..

والده موظف حكومي بسيط وأمه التي لا تقرأ ولا تكتب.. هذا الرامز كانت وظيفته التي نجح فيها بمهارة فائقة هي (النصب)... كان نصابًا بارعًا ينصب حتى على نفسه أحيانًا ليقنعها ويرشيها بعمل أكبر وأكثر وضاعة.

ملامحه تليق به.. يرسم حول فمه ما يسمى "بالدوجلاس" وله شامة كبيرة تكاد تحجب شفته الرقيقة والتي تبرز أنفه شاهق الاتساع.

توطدت علاقتي به سريعًا فهو سيكون أحد أدواتي الفريدة جدًّا في كثير من حكاياتي المدممة.. أما طالب الهندسة (عارف) ابن أحد أعضاء مجلس الشعب المزعوم على البلاد.. مريض بمقولة (ها أبي ذا).. تافه إلى الحد الذي يجعله في توترٍ على مدار اللحظة ليثبت أنه ذو حيثية.. مُبالِغ إلى حد السخف.. أقصى طموحه أن يكون رجل أعمال ولكن بالواسطة وبلا مجهود.. إتكالي مُتَنطِع .. ملامحه أقرب ما تكون إلى رصيفٍ متكسر قديم.. يضحك بصوت عالٍ بين الحرف والحرف بلا أدنى داعٍ أو مناسبة.. لم

أستطع أن أبتلع ضحكتي من الأعماق حين اصطدمت بوجهه والتقَطَت سخريتي شاربه الذي يشبه ما بين الأقواس وسألته:

- هههههه.. إيه يا ابني هو في حد لسه بيربي شنبه؟

صوته الأخنف يتصارع مع شاربه العريض وضحك قبل أن يجيب

- لو مكانش موضة فأنا رجعته موضة

ثم عاود الضحك كطنجرة اصطدمت بغطائها

إذن لا بأس من ضم علامة تعجب إلى قائمتي إن لزم الأمر لاستخدامها لتسليك شيئًا ما قد يعلق بإحدى حكاياتي.

- أما الشابتان.. فإحداهما (سمر) ذات الجمال الكردي بعينين خضراوين واسعتين وشعر أشقر لامع وخفيف.. ابنة أحد المعمارين الكبار الذين يدخلون بمشاريعهم عنوة مع الحزب الوطني ليمصوا دم المواطنين المقيمين بالخارج و العرب..

وفهمتُ على الفور أنها فريسة رامز النصاب لاسيما أنها جميلة وزميلته بالجامعة.. ويبدو أنها واقعة في غرامه بلا أدنى وعي.. فقد أغرقها بكلامه المعسول والمُسْتَل من عُدته الخاصة..

لقد نصب شباكه بعناية فائقة وبقصة خرافية حول قلبها.. إنها مفتونة به.. أما الأخرى فهي (مريم) ذات الجمال المتوسط لكنها تحظى بنسبة عالية من الجاذبية تتفوق بها على جمال سمر.. وهي ابنة لأب مدرس في إحدى المدارس

التجريبية البسيطة.. إنها تحمل تطلعات باهظة أوقعت (عارف) التافه في شباكها وهي زميلة سليم ولكن من قسم اللغة الفرنسية.. تعرف من أين ومتى تؤكل الكتف.. وعارف يُغدق عليهم جميعًا (بفلوس بابا).. أتوسطهم جميعًا وأنا أرمق سليم الطيب دائمًا بنظرة تَعجُب فهو ومنذ وقت قديم بلا حبيبة.. ورغم أنه عميق وذو مبدأ لكنه يحب كل الناس.. أشرارًا كانوا أو خيرين وبدأنا الغداء وقد تعارفنا سريعًا كأننا على معرفة وعلاقة قوية قبل هذا اليوم.

كانت مريم هدفي منذ اللحظة الأولى.. تستهويني بواطنها التي لا تسمح لأي من كان أن يتوغل فيها إلا متى أرادت.. سألتها وهي تشرب البيرة وتتحدث في السياسة.

- إنتِ شايفة إن الستات مش واخدين حقهم في البلد؟

- لسَّا هيبقى في جمهورية سيدات الأعمال

- جمهورية؟

- طبعًا

- يبقى أكيد نفسك تكوني واحدة منهم

بثقة تسترعي الانتباه

- وهكون

رَمقتُ التافه وهو يؤازر رأيها ويضيف

- أما نتجوز أنا ومريم هنعمل أكبر شركة استثمار عقاري هتبقى الأولى من نوعها في مصر.. هتبقى من طراز خاص

باركت مخططهما واحتسيت آخر جرعة في كأسي وأومأت لها.

- أنا أبويا شركاته مالهاش منافس.. تقدري تقولي إنه هرم من أهرامات المعمار في البلد

انتهت سمر التي كانت مغموسة في شفتي المقامر وهو يدغدغ أعصابها.

- فعلًا؟ بابا اسمه إيه؟

- داود ثروت الحسيني

- يا خبر!!!.. معقول.. لا يبقى معاك حق طبعًا.. أكيد بابا يعرفه أكيد

- هههههه.. مجمعكم أنا دايمًا في الخير.

قالها سليم وطرف عيني يرقبُ مريم ورامز وقد تَخبَطَت رأسيهما كبذول ساعة يداهم الوقت.. فكلاهما لمعت في ذهنه عشرة آلاف فكرة للتملق والتسلق على كتفي بينما أوحيت لهما بفتح كل الأبواب.. واستأذنت للانصراف وقد ابتسمتُ لمريم ابتسامة هيا معي.. وانصرفتُ أنا وهي وسليم لأوصل كل منهما لبيته بعد أن أدركت تمامًا أن التافه لا تعنيه أهم معطيات الرجولة كالغيرة لكن شاربه كان يحمي وجهه الديوث.. ومريم كانت تدرك ذلك أيضًا بلا شك.

أوصلت سليم لبيته وبقيت هي.. تحدثني عن رغبتها في تأسيس شركة كبيرة في مجال المقاولات وأنا أعدها أن أقف بجوارها وأن أكون سندًا لها في تحقيق ما تريد ثم أخذتُ أتسلل إلى مبادئها التي تبيعها لأول طارق سيحقق أحلامها.. وما بين الجملة والجملة أبصمُ على أحلامها وأَطْرُق فخذها بخفة تارة وبقوة تارة أخرى..

ستون دقيقة كانت فيهم على استعداد لأن تلعق حذائي لتنال ثقتي ووعودي.. وسريعًا اصطحبتها إلى مرسمي من الباب الخلفي لبيتنا.. قدمت لها كأسًا من النبيذ الأحمر الفاخر وأنا أَعرض عليها لوحاتي ومنحوتاتي.. وبدأت عيناها تتمايل ثم أخبرتها أني سأمنحها مبلغًا ماليًّا هائلًا لو تمكنت من رسمها عارية وسيظل هذا سرًّا بيننا و لن أبرز ملامحها.. فوافقت قبل أن أنهي عرضي.. كانت ثملة إلى حد الهذيان.. خلعت ملابسها وهي تترنح وأنا أتأملها بلا أي افتتنان سوى بتعبيراتها..

تمدَدَت على الأريكة معتذرة عن الوقوف لحالتها الثملة.. وبدأتُ أرسم وأنا تدور في رأسي مناورة بين شيطانين أحدهما أستاذ الآخر.. كنتُ هادئًا أسمع اسطوانة (لبيتهوفن) لتثير كل شري لحظتها.. وأنا لم أثمل وعيني إنجي تجوب شوارع دمي الذي قذفته اليوم بكلمة حبيبي لصديقي الضابط الوديع.. أنهيت اللوحة في براعة وخفة بالغة.. ألقيت الفرشاة بينما هي أسدلت جفنيها منذ أكثر من ساعة.. وانقضضت عليها في سرعة ترجو التأني.. لا

أهتم لشيء إلا لجرعة حقد سرطانية أتسول إشباعها.. انتهيت!!.. وفاجأني دم عذريتها يسيل كالنزيف.. وهي كخرقة حرير لا تعي شيئًا.

أخذت أدور في المرسم وقد أشعلت ثلاث سيجارات بشكل هيستيري لا أعرف ماذا أفعل لأمحو آثار الجريمة.. أفقتها بعدما حاولت مسح الدماء من كل صوب.. ولم تدرِ هي بشيء.. كانت لا تزال ثملة.. ساعدتها في ارتداء ملابسها بسرعة ثم مسحت وجهها بفوطة مبللة بماء بارد.. ثم اصطبحتها لمنزلها وهي تكاد تعرف الطريق فنزلت أمامه ودخلت إليه وقد بدا بيتها قديمًا في أحد حارات الجيزة غير المرصوفة.. كانت الساعة وقتها تشير للحادية عشرة والنصف.. ثم مشيت أجوب شوارع القاهرة الساحرة بدم بارد يحتفل الشيطان في إثمي احتفالًا يكتظ بصوت قهقهته حتى توقفت بسيارتي أمام بيتنا وأنا أرى أبي يدخل إلى البيت منهكًا متعبًا يكاد يمشي.. حاملًا في يده أكياس الهدايا والفاكهة كموظف حكومي أرهقه الدوام..

دخلت من الباب الخلفي حتى لا يراني أحد وتعلق في أنفه رائحة الكحول ثم صَعَدتُ وأنا أسمع دلال أمي الركيك وهو يقدم لها معطفًا من الفرو بأربعة آلاف جنيه قد أوصى به أحد زملائه العائدين من جولة بتركيا وهي تطلب منه تبديل سيارتها الفارهة التي لها أكثر من عامين معها وهو يوافق على الفور.. أخذتُ ألتقطُ أنفاسي وأنا أَعِد أبي أني عما قريب سأطرح له طابع

بريد يليق بفكرة وقحة ستنهي حياته بشكل مخزٍ مع تلك الجبارة.. ولكن عليك أن تتعلم الدرس جيدًا يا أبي.. كم تقرفني طيبتك.

أفقت في التاسعة.. قمت مذعورًا لموعد التصوير.. اغتسلت بماء دافئ ومنعش وحلقت ذقني وأنا أسترجع الأمس الذي عربد في عذرية فتاة عرفتها للتو.. أشعر بلا مبالاة غريبة.. ولماذا عليَّ أن أبالي بفتاة خلعت كل شيء أمام أحلام البيزنس وبضعة جنيهات وعدتها بها ولم أعطها لها؟!!..

وما من شاهد أبدًا على جريمتنا سوى الله الذي دائمًا أغفل عنه.. نزلت مسرعًا وأنا لا أرى شيئًا لكن صورة بكارتها التي نزفت كانت تلح على عيني.. انطلقت بسيارتي.. كان الشارع مزدحمًا جدًّا.. وكنت قرب أحد المساجد، توقفتُ بسيارتي وقررت الدخول.. لا لشيء إلا أنني أحببت أن أجرب استحضار الندم والخوف من الله..

خلعت نعلي وتسللت إلى رحاب الله الواسعة.. كان بالمسجد ما يقرب من ثمانية أشخاص.. البعض يصلي والبعض الآخر يرتل القرآن.. وقفت أؤدي تحية المسجد لا أعي ما أردد.. فثمالة قلبي لم تفق بعد.. وفي الركعة الثانية سمعت صوتًا جهوريًّا خلفي يدعو.. استرنا يا كريم.. اهتزت أوصال شيطاني والتفَّت المناجاة حول صدري كجنزير لا نهاية له.. انتهيت من تمثيلية الصلاة وخرجت مسرعًا أستقلُ سيارتي وأسمع أغنية مايكل جاكسون الشهيرة

"Billie Jeari"بصوت يسمعه كل الشارع وكأني أشفق على شيطاني من قهره.

دخلت إلى الاستوديو أنتظر وجه إنجي كي أخبره أنه مُعلم جليل.. فلم أجدها، مرت أكثر من نصف الساعة.. ثم سألت زميلي المساعد الثالث فأخبرني أنها طلبت تبديل الأوردرات بالأمس لظروف قهرية جدًّا.. تجمدت مكاني وحاولت الحفاظ على توازني وهدوئي.. حتى انتهى اليوم بعد سبع ساعات متواصلة قاتلة لصبري.. ثم أسرعت إلى بيتها بجنون.. فتحت لي الخادمة وأمها في الصالون مع إحدى قريباتها.. ما إن رأتني حتى هرولت إلي مُرحبة

- أهلا يا راغب.. إزيك يا حبيبي

عيناي في كل زاوية في البيت تبحث عنها بينما تسألني

- إيه هي إنجي لسَّا ما خلصتش تصوير؟

أدركت على الفور بأنها أخبرتهم بأنها في التصوير

- آه أصل أنا مشيت من بدري وقلت أسيب لها ميعاد الأوردر الجديد

- ماعلش يا طنط ياريت تبلغيها إن أوردرها بعد بكرة الساعة 11 الصبح صافتحها وهممت بالانصراف

- تعيش يا حبيبي.. ابقي سلمي لي على حاتم

كنت قد أدرت ظهري حين وقعت الكلمة عليَّ كالصاعقة فعرفت أنهما معًا وأسقط في يدي.

كنت في المعهد في اليوم التالي.. أموت حرقة وكمدًا كلما نزل حاتم في إجازة والشوق يأكله ويأكلها.. إنتظرتُ إنجي التي تأخرت وبدأتُ أقضم أظافري تلك العادة التي تعملقت بمرور الأيام حتى ظننت أني سآكل أصابعي.. وفجأة ناداني أحد زملائي وأنا في البرجولا ليخبرني أن أحدًا بانتظاري أمام باب المعهد.

أكاد أنتبه غصبًاً وأنا شارد.. تعجبتُ وتوجهتُ إلى الباب فإذا بها مريم التي نسيتُ أنها أصبحت ثيبًا منذ ساعات.. تقف مرتبكة باهتة ترتدي نظارتها الشمسية تخفي بها كارثتها.. فعرفت مقصدها الذي حمل قدميها إليَّ.. يبدو أنني سأواجه البنتاجون.. ولكن عليَّ أن أخرسها فليس لدي أدنى رغبة في أية مهاترات عنكبوتية.. وابتسمتُ لها كأن شيئًا لم يكن.

- مريم.. صباح الفل.. إيه الزيارة الجميلة دي

ترمقني باشمئزاز وخوف تكاد كل خلية فيها أن تبكي.

- ممكن نتكلم في أي حتة بعد إذنك.

رسمْتُ ابتسامة موافقة على مضض

إصطحبتها إلى أحد كافيهات الزمالك العتيقة وطلبتُ فنجانين من القهوة.. خلعَت نظارتها وبدت عيناها كقطعة من الليل المُقفِر.. لم تهتز لفاجعتها أيًّا من حواسي.. كان كل ما أريده إنهاء هذه الكوميديا السوداء.. فلست بصدد

أن أشاهد فيلم دعاء الكروان للمرة الألف الآن.. وبارتباكٍ شديد كأنها تجاهد في جمع الحروف

- هنعمل إيه في المصيبة اللي احنا فيها دي دلوقتي؟

رفعت حاجبي وأنا أحاول أن ألهيها عن خستي التي تجرى مني مجرى الدم.

- مبدأيًّا خلينا نقول هتعملي إيه ؟!

- إنت هتبتديها كدا؟!

- كنتِ مبسوطة جدًّا وبمزاجك جدًّا جدًّا.

- (تبكي) أنا فقدت عذريتي.

- عذريتك؟.. بصي بقي.. أنا دخلت معهد السينما أتعلم الإخراج مش عشان حد ييجي يخرج عليَّ.

تلتفت في كل اتجاه

- وطي صوتك أرجوك

- تأملتها وهي حائرة ما بين كارثتها وعروض ووعود البيزنس

- عايزة إيه يا مريم؟.. فكك من حدوتة نتجوز والكلام دا.. مش عشان حاجة بس الفيلم دا مش في مشاريعي خالص ولا عشر سنين قدام على الأقل.

- طب حلهالي

- كدا حلو قوي تعالي نحل بقى

لأكثر من ساعة وأنا وهي في حوار أمتص فيه تحايلها ولا تزعزعني أية محاولة بُكائية تحمل استجدائها الرخيص المزيف.. وأنا أتناول الشاي والجاتوه أخذتُ أرسم لها طريقًا لامعًا بالشركة التي تحلم بها على وعد مني بتعيينها فورًا في إحدى شركات أبي بعد تخرجها.. وأني سأساعدها كثيرًا لتنال ما تتمناه .. حتى صرت أدرك تمامًا أنها هي التي تساومني بتلك اللعبة الحقيرة بينما أخذت تواصل بكاءها وتبثني مخاوفها من افتضاح أمرها أمام عارف بعد زواجهما فطمأنتها بأن لذلك ألف حيلة وحيلة وعليها أن لا تقلق فإن لم يكن عارف فإن لدي من يتزوجها ويغفر لها ذلك وبنيت لها قصورًا من الوهم وأقنعتها أن لا تفكر بالأمر الآن وأن عليها أن تجتاز دراستها و تحصل على شهادتها ولا تتأثر لما حدث... و... و.... وصدقتني واطمأنت..

ثم أوحت لي أنها في ضائقة مالية.. إنها تحاول ابتزازي.. وأنا لا أُبتَزُّ على أي نحو مطلقًا.. فوضحت لها أنني طالب وأنه والدي لديه أسلوبه الخاص في تربيتنا فلا يمنحنا من المال كل ما لذ وطاب بل يعتبرنا كأبناء لأسرة أقل من المتوسطة حتى نعتمد على أنفسنا ونواجه الحياة ثم يعيننا هو على اتخاذ قراراتنا بشأن العمل والحياة بالدعم المعنوي والمادي.. اقتنعَت وهدأَت وأومأْتُ لها أنه في حال استخدامها هذه الورقة للضغط علي فإنها لن تنال شيئًا سوى فضيحتها التي سأتزعمها بكل ثبات.. ثم رميت لها مائتي جنيه كمتسولة قذرة وهي معي في السيارة.

- خدي دول اللي معايا.. نسيت أديهم لك المرة اللي فاتت واحنا في المرسم.
أخذتهم كقناص وغد.. فمريم كانت ستبيع شرف العالم كله أمام أي عرض بهلواني يعزز رائحة المال والبيزنس المزعوم في خيالها.
ألقيت بها على أحد الأرصفة وأنا أشعر أني تخلصت من عَلَقة مُقرفة على أصغر إصبع في قدمي.
- هذا الحادث فتح شهيتي حتى آخرها لاقتناص عذرية كثير من الفتيات لاحقًا ولكني كنت أنتقي بعناية من هن أكثر براءة و لا يمتلكن قدرة على أخذ حقهن مني.. واحترفت تشويه عفة كل عذراء بريئة فمريم لم تشبع معدة غلي حيث لم تكن بريئة على الإطلاق.. وأنا لا أهدأ حتى أمتص رحيق فريستي لآخر نفس نقي وحر .. فكررتُ القصة مع بنات الشوارع وخاصة الأطفال منهم حديثات العهد بالبلوغ فكل ما سأقدمه لصيدي الثمين حينها وجبة عشاء فاخرة لا أكثر بنية الصدقة التي تطفئ غضب الرب..
وكان صُراخهن يزيد فيَّ السادية والإصرار على مواصلة التمثيل بهن وإلقائهن في آخر المطاف و بعد التنكيل على أحد الأرصفة.
توجهت إلى بيت حاتم بسرعة جنونية بعد مقابلتي بمريم.. لا أعرف لماذا هل شوقًا للقاء صديقي في إجازته؟ أم لأعرف ما دار بينه وبين حبيبتي؟..
هل حقًّا أشتاق لحاتم؟

دخلتُ بيت حاتم بعد الترحاب الراقي من والدته ودخلت إلى غرفته فوجدته يجلس متربعًا على الأرض يقرأ القرآن.. تمتلئ قسماته بالنور.. ونقاء الآيات يسيل في عينيه.. أتصور وأعي تمامًا كيف تُفرِغ كل سحبه الصادقة مطر الأمان في قلب حبيبته.. إنه الرجل السكينة.. كيف تتحول الرحمة لملامح إنسان؟! .. ترك المصحف بهدوء.

- صدق الله العظيم.

ابتسم ابتسامته التي تتسع لحضن السماء.. (إن أقوى ما في حاتم ابتسامته) وجذبني بكل حب وصدق يعانقني كأب حنون.. يا الله لقد أنعم الله علي يومًا بالصديق الأب الذي نكأ سوءاتي كلها.. الصديقُ الأرض.. كلما التقت عيناي بوجهه داهمتني رائحة الأرض الطيبة التي تهب خيرها لكل أبنائها.

- تعرف يا راغب أنا بابقى عايز أنزل الأُجازة عشان أشوفك إنتَ بالذات يمكن أكتر من إنجي.. تصور بقى.

أسافر في صدقه الذي يزيد حقدي خفقة بعد خفقة.. تراه يحبني حقًّا؟ كل هذا الحب؟.. كيف وقد تأكدتُ أنه شعر كثيرًا بحبي لحبيبته كيف وأنا لم أحمل إليه في أي وقت مضى سوى الغيرة والغل المرير والذي جاهدت كثيرًا كي لا يستقر في وعيه.. هل نجحت وصدقني؟!

جلسنا...

- وحشتني قوي يا حتوم.. ها.. مبسوط من الميري والحبسة دي؟

يضحك

- ما اعرفش أكون غير ضابط.. تخيل كان مستحيل أكون أي حاجة تانية.. ساعات أموت من الضحك لما بافتكر إنجي أيام ما كان عندها طموح أبقى نجم زيها.. تخيل هههههه.. أنا أبقى ممثل.. طب بذمتك ينفع.

أضحك وأنا أشعل سيجارة..

- لا طبعًا.. مش كفاية هي مصدعانا بس إن جيت للحق.. إنجي هتبقى سوبر ستار

- أنا خايف قوي يا راغب

- ليه؟

تخبو ابتسامته

- أنا خايف البريق والشهرة ياخدوها بعيد عني

عليَّ الآن أن أطمئنه أن حبيبتي تحبه بلا منازع وأنه رجُلها الأول والأخير وأن لا قوة على الأرض تبعد حبيبين مثلهما عن بعضهما.

- معاك حق.. النجومية ليها سطوتها بس بلاش أفكارك تاخدك بعيد كدا دي هواجس.

طال حديثنا وأنا أحترق.. يبدو أنني لم أعد أتحمل علاقتهما أكثر من ذلك.. لقد امتلأ الإناء وفاض.

توجهنا أنا وهو إلى البلاتوه حيث كانت تصور الأميرة مشهدين مهمين سيبلغان بها مجدًا كبيرًا.. إن لعينيها لمعة تقع في أعصابي ووقفتُ أمامها كأعجاز نخل خاوية أرقبها أمام الكاميرا.. وحين شَعَرَت بوجود حاتم صار أداؤها أجمل.. وعاد البحر بين جفنيها يعلو ويهبط.. وصار قلبها بين مقلتين.. إني أرى قلبها.. وحاتم يقف ثابتًا مهيب الطلة له سحر الملوك.. لقد فَتن صديقي كل الفتيات في الاستوديو وأنا بجواره أشعر بتقزمي الشديد.

إنجي لا تراني ولا ترى الوجود.. حاتم هو الوجود فهي لا ترى سواه وأنا لا أرى سواها كدت أرى رماد قلبي تحت قدميها.

انتهى التصوير.. وركضَت نحوه تتعلق بعنقه كطفلة لم تتعد الثالثة من العمر.. عناقه لها رفع أقدامها عن الأرض.. كلما أحاطني هذا المنظر شعرت أن لديَّ قوة خارقة لحرق العالم.. لابد من جرعة من أفيون الشر تكون أكثر كثافة وغرابة تسكن رغبتي بالتمثيل بهما.. أشعر أني أدور داخل دمي المحترق.. أبدو هائمًا لا أعرف كيف سأخمد جهنم الحمراء التي تعبث بشعث روحي.. لابد من كبش فداء لروميو وجوليت.

فجأة تذكرتُ سمير زميل هديل بالكلية والذي أكدت لي إحدى صديقاتها بالأمس أنه يحبها.. لقد ارتطم جبل التوباد برأسي اللحظة.. سمير ستلدغه أفعى ضميري حتى تتصدع جدران الشفقة.. بحثت عن رامز الذي عرفته منذ عدة أيام.. توجهت إلى المطعم الشهير الكلاسيكي بوسط البلد.. لابد أنه

هناك فمثل هذا له أماكن كالجحور يندس فيها كالحية.. وجدته بصحبة امرأة فوق الخمسين يتناولان مشروبًا روحيًّا.. إنه ينصب فخًّا لكومة لحم عتيقة مفككة العُرى.. أشرت له فأشار إليَّ أن أذهب له.. صافحته وابتسمَ لا أكادُ أرى شفتيه من تجمهر شَامَتِه وعرفني على كومة اللحم.. سيدة أعمال ثرية جدًّا.. تبدو كوردة تتصابى على ذبولها.. لم يخنِّي ذكائي.. دائمًا أقصد المكان المناسب والشخص المناسب.

- نهال هانم.. من أجمل وأجمد سيدات الأعمال في مصر

أومأت برأسي أمد يدي مرحبًا

- أهلًا يا هانم تشرفت

أشرتُ له بأني أريده.. لمعت عيناه كنجمة داود.. إنه الاستشعار من بعد بأن صفقة "بنكنوت" في انتظاره.. جلستُ وحدي على طاولة بعيدة أنتظره والأفكار في رأسي كحفلةٍ لعبدةِ الشيطان تتلاحق مع أنفاسي التي تمرر دخان السجائر كالبركان.. جلس أمامي يسحب سيجارة من علبتي.

- إزيك يا حبيبي.. فينك

استقطبت كل قوى الوحل من رائحته وجمعتها على الطاولة بيننا

- عايزك في مصلحة لازم تخلص بكرة بالكتير

- أؤمرني يا راغب

- في واحد مضايقني.. مضايقني قوي عايز أقرصه.. لا.. أجلده.. أعمل دا إزاي.. مش مشكلتي.. دا بقى اللي أنا جاي لك فيه.. وما تقوليش هتعمل إيه.. مش عايز أعرف.. بس عايز أسمع صويته وانا في بيتي

أطبقَ شفتيه غير المرئيتين ورفع حاجبًا وطلب فودكا

- كدا يبقى مش علقة طبعًا

- لا أنا مش باحب الشغل القديم دا بتاع فيلم الأسطى حسن ده .. أنا عايز أوقعه

شرب الكأس دفعة واحدة وقد عَلكَ نيته بأُستاذيَّة

- بياناته كلها.. واللارجون .l'agent

- اتفقنا

ضحكنا وشربنا نخب ضحية جديدة لي وله

استقللت سيارتي واتجهت لهديل بالجامعة دخلت لها فوجدتها تخرج للتو من المدرج بصحبة بعض الزملاء وسمير يتصدرهم.. عيناه تأكلها بشغف لا يمكن إخفاؤه.. وهي كما عهدتُها في رقة وخجل وطاعة.. ظَهرتُ أمامهما فجأة وهما يمشيان باتجاهي لا ينتبها لوجودي ثم توقفا فجأة إثر فزعٍ لا أعرف سببه عندما رأياني.. ثبَّتُّ عينيَّ في عينيه وأرسلتُ له إشارة ترحيب في كيدي العظيم ثم أمسكت بيدها كأني أدعوها لرقصة ومشينا في هدوء في هذا اليوم تحديدًا.. قَبلتها كما لم أُقبلها من قبل.. كانت شفتاها في ذاك اليوم

كأنها قارورة عطر لا يروق لي شذاها أبدًا.. وكانت على يقين من ذلك ولكن عليها الطاعة ولا شيء سوى الطاعة.

مر يومان وفي صباح اليوم الثالث في الثامنة إلا ربع تحديدًا.. استيقظت على جرس الهاتف الأرضي في غرفتي.. جاءني صوت رامز كمِنجَلِ شيطانٍ قديم.

- تم يا باشا.. مش هتشوف وشه تاني خلاص

لقد وضع له في سيارته كمية من الحشيش كفيلة بسجنه لأكثر من عقد كامل تبدو للاتجار وليس للتعاطي وتم الإبلاغ عنه.

تنفستُ شهيقًا عميقًا وأنا أرى شري يتعاظم.. يتعاظم فيتقزم أمامه قلبي ووجداني وحنجرتي وكياني.. دخلتُ إلى الحمام وتحت الماء البارد في صدر الشتاء أتنفس الماء والصابون ووقاحة أعصابي وموت سمير وتعب وشقاء أبي الحنون الذي نَقش على جدران بيتنا كلمة الضمير..

أبتلع في شهيقي كل ذلك وأزفر اسم داود الحسيني وأصفعه بكل قوتي.. والماء لا يغسل دمي الذي أخذ يتفصد من كل أركان روحي الدنسة.. إنه الدم الذي لا تراه.. ولكنه يصبغ الهواء والأشياء بلون الألم المميت.

وتسرب الخبر إلى كل كليات جامعة القاهرة كما كُتِب كسبقٍ صحفي مثير بأخبار الحوادث يتصدر كل الصحف الرسمية.. وتم فصل سمير فودة من كلية الطب في السنة الثالثة بعد أن نال حكمًا قضائيًّا عاجلًا بالسجن

لاثني عشر عامًا وبعد أن كان الأول على دفعته.. طموحًا واثقًا محبوبًا من حصى الأرض تحت قدميه.. ومات والده المدير العام لأحد البنوك الوطنية الكبرى بذبحة صدرية بعد أن حاول جاهدًا وبكل علاقاته أن يَربأ بابنه عن هذا المصير المظلم.. وذهبتُ مع هديل التي كانت مؤمنة ببراءته إلى عزاء والده حيث التقت عينيَّ بعيني أمه التي لم يهتز قلبي لمنظر حدقتها و التي رأيت فيها سرادقًا آخر من العزاء يشبه قيامة الروح وبدت دموعها عارية كامرأة عفيفة اغتُصِبَت في مرحاض عام.. اغتَصَبها الظلم والقهر.

وجلست في صوان الرجال لا أستحي من ادعاء حزني الزائف أمام أخيه طالب الشرطة الذي فُصِلَ أيضًا فصلًا نهائيًّا من كليته.

إبليسي العزيز.. أتمنى لك ليلة سعيدة جدًّا.. فبضربة واحدة أسقطت عائلة من العصافير مُجتَثًّا شجرتهم الوحيدة.

تخرجتُ بامتياز.. الأول على دفعتي.. وتخرجَت إنجي لا يعنيها التقدير الأكاديمي.. فقد نالت ما تريده وفُتِحت لها طاقات القدر كلها وصعدَت وتهافتَت عليها كل فنون الدراما وكنت قد رافقتها في عدة أعمال درامية كمساعد مخرج موهوب حتى أتتني الفرصة الذهبية كمساعد مخرج في أحد الأفلام التي رُصدت من ضمن أهم مائة فيلم في السينما العربية..

بعدها أصبحتُ مخرجًا وعرفَت الشهرة طريقي بينما كان حاتم ينتقل من محافظة لأخرى بعد تخرجه وهديل لا تزال في كلية الطب بين الجثث والمعامل.

وفي إحدى ليالي أيلول هرول إليَّ صاحبي يحمل قلبه في كفيه تهلل كل أساريره فرحًا وسعادة.. يعانقني كأنه يراني بعد غياب مائة عام وأنا أضحك متعجبًا لحاله.

- إيه الحب دا كله.. خير يا دفعة.

نظر في عينيَّ كطفل في ليلة عيد

- الخميس الجاي دا.. خطوبتي أنا وإنجي.. أخيرًا.. أخيرًا يا راغب هاربطها بنت الذينَ.

شعرتُ بآلاف الرصاصات تتخللني من كل صوب في كل ذرة من كياني وفي كل خلاياي.. مادَ بي وجه صديقي والحلم الكبير.. تمالكت نفسي أتورع عن إظهار ضعفي وخذلاني وابتسمت له ابتسامة ملأتها المرارة والكذب.

- بجد.. بجد.. مبروك.. ألف مبروك يا حاتم مبروك يا حبيبي

بفرحة كبيرة

- قلت لازم أقول لك أول واحد وبنفسي.. انتَ شاهد على العصر زي ما بيقولوا وعلى حبنا الكبير

تأملته وكل حرف من حروفه يخرج شري من مخدعه كرؤوس الشياطين.. وأمضيت ليلتي تلك لا أعرف كيف تناولت الألم؟ ولا كيف تناولني؟ وتناوبَت عليَّ الأفكار التي لابد أن تكون واحدة منها نصلًا يكسر فرحة الخطيبين.. ألم يئن الوقت أن تكفَ أحلام صديقي عن الدوران حول جرحي الذي نزف ملايين المرات؟!

ألم يحِن الوقت أن يدفع ثمن تلك النار التي فَحمت روحي لسنوات طويلة.. الخميس القادم سأحشو فرحتك بماء النار يا صديق العمر.. وبكل الحقد ألف مبارك.

تهيأت أسرتي وأنا لحفل الخِطبة الميمون وأنا أرتدي بذلتي كأنني مدعو لجنازة أصلي فيها على قلبي الممزق.. أتصنع السعادة أمام الجميع بفرحة صديقي.. أقود سيارة أبي به وبأمي اللذان بديا ليلتها كعروسين شابين تملؤهما فرحة كبيرة.. وأبي لا يكف عن مغازلة أمي المتصابية بثقل ظل لا يضاهي طيلة الطريق.. وتستغل الفرصة لتطلب منه في دلال مُقَيئ أن يشتري لها "شاليه" بالعين السخنة وتلوح له بأنها ستمنحه ليلة ساخنة شهية ستمطره فيها بكل فنون الحب والجنس بعد امتناعها عنه كما فهمت لفترة طويلة.. لقد تخيلت أنهما أغلقا ملف الحميمية المُدَّعية بينهما تمامًا.. ووافق أبي على طلبها بسرعة البرق كرجل عربيد في ماخور تناوشه إحدى غانيات الليل..

لا بأس بمشهد كهذا يُمدد كل نزعاتي القذرة ويقرح انسانيتي المتعبة.
وقفنا أمام فيلا أكرم رشوان تكاد قدميَّ تقسم عليَّ أن لا أفعل وأمضي إلى حيث أزف قلبي إلى نزف لن يموت أبدًا.
وقفتُ أمام السلم بالفيلا أرصد حبيبة العمر.. أميرتي وهي كملكة على عرش الحياة تنزل وتمسكُ بذراع أبيها.. ترتدي فستانًا من الساتان الأخضر والدانتيل المرصع بالماس واللؤلؤ.. تطرح قسماتها قصائدًا تضاهي جمال النجوم في عليائها.. وغاصت روحي في بحرها الذي صار يعلو ويهبط كلما مر بروحي.. يدور بي وأنا في مكاني لا أشعر بشيء مما يدور حولي.. أتذكر السنة قبل السنة وأغرق في عينيها تمامًا كغرقي وأنا طفل في عيني الطفلة الأنثى.
حاتم يمسك بيدها يقبلها والزغاريد في كل زاوية تدب في أذني كعويل على طفل يتيم مات غدرًا.. أراقب سعادتها وفرحتها بحاتمها الذي خَلب كل خَلجَاتها.
واستمر الحفل وأنا مضطر للابتسام والرقص والفيض الكاذب من الفرح.. حتى أظهرتُ الكاميرا الخاصة بي وبدأتُ ألتقط الصور لهما بكل شكل ولون.. وكأني أسجل لحظة نَحري على مقصلتهما..
وحاتم ليلتها كفارسٍ.. لمسة الله الكريمة تَتَفيأُ على كتفيه.. وابتسامته الصافية تصفعني بلا هوادة... يبدو في "الكوشة" ليس كعريس ولكن كصلاح الدين الأيوبي.. ناداني وأنا أصورهما، يمازحني بطفولته المعهودة.

- إيه يا ابني مش هنفرح فيك بقى؟

أُمَازحه وأنا المقتول

- وطي صوتك.. الحيطان ليها ودان.

وما إن أكملت جملتي حتى حضرت الدمية الباردة المُعلبة.. والتي خُيل إليَّ ساعتها أن طلتها هاربة من كادر فيلم شاطئ الغرام.. ورغم جمالها الأخاذ وكل محاولاتها لتبدو فاتنة تلك الليلة بفستانها الأحمر وطولها الفارع الذي يسبقني ويزيد من حنقي.. وقوامها الممشوق إلا أني لم أرها أبدًا لاسيما تلك الليلة.

باغتنتي

- الحيطان سمعت

ابتسمت لها وأنا مُتقد الغيظ وأنظر لحاتم

- شفت بقى قلت لك اسكت.

بدت العروس متأثرة

- بذمتك يا راغب إنتَ عندك دم.. بقى حد يقول على البدر المنور دا حيطان تعلقَت عينيَّ بشفتي العروس يَجُرُّني ويقَتلني مذاق قبلتها التي عبأت عمري منذ سنوات ولم أنسها أبدًا.

انتقلنا جميعًا إلى حمام السباحة حيث تُقدم كعكة العروسين والمكان يزدحم بنجوم الفن والمجتمع وعائلتهما وأنا في غاية التوتر والساعة تدق

العاشرة والنصف حين رأينا دخانًا كثيفًا مهولًا يملأ الفيلا.. وشعر الجميع بالذعر وسرعان ما حل التوتر في المكان والاضطراب الذي هال كل الحضور وأنا بينهم أتظاهر بذلك.. بينما هديل أسرعت مع والدها ووالد حاتم إلى الخارج لاستطلاع الأمر وإنجي ترتعد وتصرخ ثم أتانا صوت هديل

- عربية حاتم ولعت

كسا وجهي وصوتي فزع مهيب مفتعل بالطبع بينما ركض حاتم وإنجي للخارج.

لم يكن بوسعي أن أتركه بلا أي مُنغص في تلك الليلة القاتلة.. كان عليَّ أن أجعله في كدر وهم شديد.. إنها سيارته الجديدة التي اشتراها الأسبوع السابق لخطبته وكانت موديل السنة باهظة الثمن وكان قد وضع فيها ليلتها عشرين ألف جنيه ومسدسين مرخصين وخاتمًا من الماس كان قد اشتراه لإنجي كهدية خاصة على طاقم الخطبة بالإضافة لأوراق رسمية شديدة الأهمية..

ورغم ذلك لم تَرُق لي تلك الصدمة فهي بالنسبة لي فكرة بليدة لا تليق بما اختزلته لصديقي من رغبة في تحطيمه كما ينبغي.. فكل ذلك سيعوضه ولن يُنهي ارتباطه بها أبدًا وقام رامز مخلب الذئب بالتنفيذ مقابل حفنة جنيهات تكفي لدعوتين فاخرتين لإحدى فريساته.. وكادت إنجي تُجن ليلتها وانقلب الحفل إلى غمامة سوداء ترقد على قلبيهما.. وأنا بريء براءة الذئب من دم

ابن يعقوب.. بل إن دموعي عانقت صديقي الطيب وشدت من أزر العروس الحبيبة.. وانتهت الليلة بعد حضور الشرطة والتحقيق مع كل الموجودين وبعد عدة أيام قُيدت ضد مجهول فقد نفذها الشيطان بكل حرفية وتفرد

إنه أول الخيط يا إنجي.. كم سأعصركما وجعًا.. كل ما عليكما أن تضغطا على نَاب شري المسموم وحسب.

في ظهيرة اليوم التالي كنتُ في المسجد القريب من بيتنا.. اصطففت بين المصلين أقيم صلاتي بصحبة أخي نزار الذي أصبح طبيب أمراض نساء يقع في غرام كل زبونة يفحص مهبلها.. وأبي الذي ربت على كتفي كثيرًا وعانقني بعد الصلاة وهو يثني على إيماني.

- تعرف يا راغب أنا سعيد بيك قوي لأنك ملتزم بالصلاة وبفروض دينك رغم إنك في مجال الفن وأجوائه

نظر لنزار موبخًا.

- كان نفسي تبقى زي أخوك.. إلا ما باشوفك بتركعها.

أضحك في أعماقي على أبي المخدوع أبدًا في كل شيء بينما نزار يقرعه أبوه على تقصيره.

- ادعي لي يا بابا أنا زعلان قوي من نفسي بجد.. بس أوعدك هالتزم إن شاء الله

أرمق نزار بنظرة خبيثة ساخرة

- بس لو تسيبك من الستات اللي شاغلينك ليل ونهار وتركز مع ربنا شوية

ثم رَبَّتُ عليه

- يلا ربنا يهديك

أبي الطيب المخدوع

- ربنا يهديكم يا ولادي ويكملك بعقلك يا راغب يا ابني

وهكذا دخلت مرحلة جديدة وطورًا غير مسبوق من أطوار شري.. فقد كنت سابقًا لا ألتزم بالصلاة مطلقًا.. فلم تكن تعنيني الصلاة كفرض ولا أهتم ولا ألقي بالًا لها.. ولكن ومنذ فترة ليست بالقصيرة أخذت أواظب على الصلاة ليس لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر أو لأنها ستحول بيني وبين شيطاني أو ظنًّا مني أنها ستمحو ذنوبي التي استعصت كتابتها على ملائكة السماء والأرض.. ولكن فقط لأنني أحببت أن أكمل قطعة البازل التي تَنقَصُني أمام نفسي وأمام الناس..

رياء.. نعم إنه الرياء في أحط صوره الوضيعة والذي كنت لا أنكر أنه رياء.. أما الدافع الأعظم.. فهو أنني ظننت أن الله سيقبل أيضًا مزاعمي بأنني رجل صالح وإن تنافرت أفعالي التي لا تمت للإنسانية والأديان المقدسة بأية صلة مع الصلاة.. لقد استهزأت بمنتهى الجبروت والكفر بعين الله وبطشه.. تصورتُ أنني قد رشوت الله!!

- أصلي وأنا أبدًا لم أكن أستمع لنفسي ولو لمرة وأنا أكبر وأسبح وأتلو وأركع

وأسجد.. كأني أقدم عرض أكشن على مصلاي.. وبعد أن أسلم يمينًا ويسارًا أقول في سري لملائكته (تَم)

أما نزار أخي الذي كنت أسخر منه لم يكن بالفعل مواظبًا بانتظام على الصلاة لكنه كان يخاف الله في السر والعلن.. ورغم أنه كان يقع في غرام كل امرأة تقريبًا يفحص مهبلها إلا أنه لم يزنِ ولم يفعل أبدًا ذرة مما كنت أفعل.. كان فقط يريد الزواج عن قصة حب أسطورية.. وكان يكفل ثلاثة أيتام و يتأثر لحد البكاء عندما كان يسمع صوت الشيخ محمد رفعت بالقرآن.. وكان يجهش بدموعه كلما مر بأذنه ابتهال النقشبندي (مولاي) ..كان بارًا بأبي وأمي إلى حد لا يُصدق.. فقد كان يفر من نومه ليلًا ليطمئن عليهما ويقبل أقدامهما وكنتُ أشعُر بيده الحنونة المُعينة وهو يغطيني متى نمت ويقبل جبيني..

كانت تستفزني طاعته لأمي خاصة في التأثير على والدي لتنال ما تريد.. كان حتى لا يناقشها.. وعندما قرر الزواج خطب فتاةً نسخة طبق الأصل منها (حمالة الحطب) كما كنت أسميها والتي كان صوتها منفرًا يعلو على صوت أبي دائمًا وهي تأمره لاسيما حين أمرته أن يقاطع إخوته لخمسة أعوام كاملة فقط لأن عمتي المحترمة بنت الأكرمين وكيلة وزارة التربية والتعليم طمحت أن يتزوج ابنها من أمل شقيقتي.. ولم تستكِن إلا حين توفى في حادث أليم انقلبت فيه سيارته على طريق الإسماعيلية وكانت شماتتها بهم وصلت إلى

حد الهلع.. فقررت أنا أن أنتقم من نزار الذي كان استنساخًا من أبي في طيبته وخنوعه رغم أني لم أفكر بذلك يومًا مع نزار.. فرشوتُ إحدى تلميذاتي.. شيطانة صغيرة بالغة الجمال زارته في العيادة وتكررت الزيارات حتى سال لعابه.. وفي آخر زيارة لها كانت هي آخر زبونة ودخلت له وطلبت منه أن يصرف كل من في العيادة لأنها تريد أن تتحدث معه في موضوع هام.. ثم انفردت به بعد أن انصرف الجميع وأومأت له بكيد الأنثى بأنها ترغبه وتحبه وكنت قد أبلغت خطيبته الشمطاء على طريقتي والتي توجهت من فورها للعيادة.

وكان الباب مفتوحًا كما نفذت الشيطانة فدخلت الأخرى لتجده يهيم بها في مشهد أكثر سخونة من كل أفلام البورنو في عناق وقبلات مهيبة.. فصفعته صفعة قوية ورمت له بخاتم الخطبة وطلبت الطلاق حيث كان معقودًا قرانهما ولم يدخلا.. ولثلاثة أشهر كان نزار يلاحقها يكاد يقبل الأرض تحت قدميها فكانت تزيد من تنكيلها به حتى أرفقت شكوى كيدية عنه لنقابة الأطباء و تعرض لأزمة نفسية طاحنة ألزمته البيت تسعة أشهر بعد أن تم الطلاق بفضيحة وتغريمه نصف الصداق وتبعاته.. وإغلاق عيادته..

كان خلال تلك الفترة نزيل ذراع حمالة الحطب أمه والتي بدورها لم تتركها حتى نالت منها ومن سمعتها في كل مكان بين المعارف والأقارب وكنت كلما رأيت أفعالها وانصياع أبي المَرَضي لها أيقنت أن ساعة الصفر لابد أن تحيَّن

للانتقام من هذا الرجل الذليل والانتصار لأظفارها المغلولة والتي أبدًا ما كانت تشكل نقطة في محيط سمي الزعاف.

ويبدو أن اللحظة قد حانت.. تلك التي تأخرت كثيرًا.. حيث فاجأتني مريم بزيارة غير متوقعة لي بشركتي التي افتتحها لي والدي على أعلى طراز للدعايا والإعلان والإنتاج الفني بعد تخرجي.. جَلسَت أمامي.. لم أعرفها فقد تغيرت كثيرًا فصارت أجمل بكثير مما عرفتها .. تَنتحل شَعرًا أشقر مستعارًا موصولًا حتى آخر مؤخرتها وعدسات لاصقة زرقاء وقوام صار أنحل وأقرب لعارضات الأزياء.. أخرجَت سيجارة (مور) بالمنتول وأشعلتها وهي تَعلِك اللبان على طرف أضراسها كمومس من طبقة الهوانم.. فلا يمكن لمن يراها رَغم مظهرها المثير أن يشك بأنها امرأة لعوب..

لكنني وبنظرة واحدة أدركت أنها تحولت خلال حِفنة الأعوام الماضية لمَحْظِيّة رَقيعة ومُقَنَّعَة لطبقة البَكوات وخاصة للكبارِ سنًّا.. وضعت ساقًا على ساق وأنا أُلقي بظهري مستندًا على الكرسي ذي العجل الخاص بالمكتب وهي تنظر في عينيَّ وقد أدركَت أن شيطاني صار محنكًا أكثر مما يتصور عقلها.

- إيه ما وحشتَكش

أفحص الحروف بين شفتيها وأدمغها

- دا سؤال يا بنتي.. دا انا كنت بادور عليكِ

تلمح نفاقًا أثريًّا في نظرتي لكنها تخدع نفسها حتى تنال ما تريد وتُطلق ضحكة أشبه بضحكة هند رستم وهي تقول (نكتة دي)

- عنوان بيتنا زي ما كان بس انت يا حبيبي نسيت العنوان

أتكئ بنصفي العلوي على المكتب وأنا أنفث دخان سيجارتي.

- بصراحة عنوانكم يدوخ ويتوه.. بس سيبك إيه الحلاوة دي يا بت.. رُحتِ فين وجيتِ منين؟!

تضحك بخبث يجتمع لأمة من المموسات

- طب اطلب لي فنجان قهوة مظبوط عشان أحكي لك رحت فين

طلبتُ فنجانين من القهوة وانتظرتها تكمل

- اشتغلت عند سليم في الشركة بتاعته

تعجبت!!

- يااااه سليم.. الواد ده راح فين؟!

ثم ضحكت مندهشًا..

- سليم.. بقى عنده شركة!!

ترفع حاجبًا يكاد ينطق ويضحك سخرية وخبثاً فوق عينها

- أُمال إيه.. شركة سياحة إنما حاجة كدا وهم.. وسع بقى

ما زلت مندهشًا..

- وجاب فلوسها منين ابن الذينَ؟

- انت فاكره فقير ولا إيه؟.. كان عنده أرض معتبرة في بلدهم باعها وأسس الشركة دي وأمه ساعدته.. وهو الحق لله مجتهد جدًّا.. تقريبًا ما بينامش.. بقى أستاذ ورئيس قسم ومسمَّع في كل شركات السياحة والفنادق.. من يومها وانا معاه

- إمممم.. ممم

تكمل

- بس انت عارف بقى إن السياحة ما بقتش تأكل عيش قوي بالذات بقى للي زيي

أضحك واستقر في عينيها بتحدي وأنا أغمز لها

- أُمال (عارف) باشا راح فين؟

- هههههه... لا ما دا خلاص راح لحاله... اتجوز واحدة شاف مصلحته معاها واتجوزني عرفي عليها 6 شهور أخدت فيهم اللي فيه النصيب وغورته.

تبدو اللعبة على المكشوف بيننا وأنفاسها تسابق كلامها تستحضر إبليسي الحبيب وهي تواصل

- باقول لك إيه مش هتخليك جدع معايا بقى.. مش كنت قلت لي هتشغلني عند باباك ولا إنت على طول كدا كلام الليل عندك مدهون بزبدة؟!

مضت ساعتان وأنا وهي نحِيك اتفاقًا سريًّا سيشهد تنفيذه عدة أطراف سَيحتفل الشيطان بموتهم على قيد الحياة احتفالًا عظيمًا.. ثم دعوتها

للعشاء على أحد المراكب النيلية لإتمام الصفقة.. وشَربَت حتى ثَمِلَت كعادتها.. وفوق قمة المقطم وقعنا على مؤامرة دسيسة خسيسة بليلة حمراء كقُطاع الطرق ثم أُلقيت بها على رصيف شارعها الذي تقطنه.. تمامًا كما حدث منذ سنوات.. وعدت إلى بيتي أتلحف حمامًا باردًا وأصلى العشاء (كالأسود العنسي).

أُلقي بجسدي ورأسي اللذين لا يثملان أبدًا على سريري.. أُغمض عيني وأغني لشيطاني.. اهدأ ونم يا صغيري.. غدًا أُطعمك موائد الحَكايا المُرة.

انتقلت مريم للعمل عند أبي في مجموعته بإيعاز مني وتزكية لها عنده.. وكان يرفض في البداية لعدم حاجة العمل إليها حتى وافق على مضض بعد أن أَقنعتُه أنها مُتمكنة وتتحدث ثلاث لغات بطلاقة وأنها صديقة قديمة وسَيُعينها على ظروف حياتها القاسية وأنني وعدتها ويتعين عليه ألا يُحرجني أمامها..

وبالفعل تم تعيينها وكانت حديث الشركة كلها بعد فترة وجيزة و لجمالها وتفوقها في إنجاز مهام عملها بذكاء وإجادة منقطعة النظير.. كانت واجهة جذابة ومطمع لكل من يراها في الشركة ولكنها كانت تتعفف عن الجميع وذلك بناء على الاتفاق المبرم بيننا.. حتى لفتت انتباه أبي الذي قرر أن تكون مُديرة مكتبه بصفة خاصة.. وبرائحة الأنثى التي تَصبُّ مفاتيحها في فوهة واحدة.. استطاعت مريم أن تستحوذ على ثقة أبي بسرعة البرق وبَرَكَت على

وَهَنِه ونُضُوب أرضه دفعه واحدة.. وناولته عطرها كله في شربة واحدة لا تخطئ.. أبي الذي ما حركته أنثى.. وما كانت شهوته يومًا للنساء.. انتظرتُ كل هذه السنوات كي ينضج ضعفه على مهل ويشيب قلبه وتَسلبُه أمي أطرافه تمامًا حتى يتسنى لي الانقضاض على قلبه الحنون بضربة واحدة قاضية لا يفيق منها أبدًا.. وقع في حبائل مريم لا يُدرك للنجاة سبيلًا.. شغفته حبًّا وشبقًا.. فالشبق لرجل كأبي انتصف في عقده السادس يدق كل أجراس الخطر ولا يعرف هوادة..

وأتقنَت تلك الحرباء دور الأنثى الشريفة التي يطمع فيها حصى الأرض لكن قلبها البتول لم يدق سوى له.. فهو الفارس النبيل الذي رأت فيه كل المُعادلات الصعبة التي لا يمكن أن تجتمع في رجل واحد.. هههه.... لقد رأى نفسه في عينيها أنه أُمة من الناس.. وبدأ أبي بالتأخر عن مواعيد عودته للمنزل.. وتوالت أعذاره لأمي وتوالت المشاكل ومريم تحاصره كالطوفان وكنت قد حذرتُها ولقنتُها الدرس بأن لا يلمس حتى أطراف شَعرها حتى يبلغ من الجنون مداه فتفوقت على نفسها بإخضاع رغباته لها بالكامل.. وأردت في ذات يوم أن أحضر بنفسي خُطتي على أرض الواقع كي يطمئن قلبي.. ففاجأتُه يومًا بزيارة للشركة.. وتناولت معه القهوة في مكتبه ومعنا اثنين من كبار المقاولين.. دخلت مريم لتوقع بعض الأوراق بينما الرجلين اللذَين بديا كـ (زقزوق وظريفة) امتدت أعناقهما ونظراتهما تلتهم مؤخرتها وخصرها الذي

يشبه كأس الجوري وأبي يرتبك كمراهق يختبر الغرام للمرة الأولى ويدعوها للانصراف سريعًا بعد أن لاحظ نظراتهما لها.. حينها تأكدتُ أنها مَلكَت جوارحه عن بكرة أبيها فشربتُ قهوتي بسرعة وانصرفت.

أعربت أمي عن قلقها كـ (بانكي مون) وصارحتني بمخاوفها من تغير أبي المُفاجئ غير معلوم السبب.. فطمأنتُها أنني بنفسي أتابعه وأنه مشغول بحق بآخر المشاريع المهمة في البلد وأن عليها أن تتفهم ذلك.. كنت أناولها المخدر جرعة تلي الأخرى لكن نوبات فزعها من تحول أبي لم تعرف للسكون طريقًا.

وبدأت الإشاعات تطال الاثنين رغم حرص أبي أنه لا يعرف كائنًا من كان بعلاقته بمريم.. فواجهته هي بضرورة حسم الموقف بالزواج منها إنقاذًا لسمعتها.. وكان متردداً خشية افتضاح أمره أمامنا وأمام أمي.. فطمأنته أنها لا تريد سوى وجوده في حياتها وأن تكون على ذمته على وعد منها أن تحافظ على بيته.. وبينما كان يحسم قراره كنت أنا أنعم بليالٍ وثيرة على سفح المقطم مع العاهرة العصماء.

وطال انتظارها لأبي فأصدرت أوامري بأن تمتنع عن الذهاب للشركة والاختفاء من أمامه للضغط عليه.. حتى طار إليها عند بيتها كمراهق في أوج مراهقته يبكي حبها وأشواقه التي نهشت روحه وأعصابه.. فزادت من ضغطها عليه وأخبرته بأنها قررت الانصراف عن حياته وهي تعتصر ألمًا وستضحي بقلبها وذاتها من أجله فجُن جنونه وحسم أمره على الفور وقرر

ترتيب أوضاعه و الزواج بها .. واشترى لها شقة فاخرة في حي المهندسين وأثثتها بأفخر الأثاث وسجلها باسمها في التوثيق العقاري.

كانت هذه الشقة هي أجر مريم عن هذه اللُعبة وفي اليوم المحدد لعقد القران كعادتي وعلى طريقتي تم إخبار أمي من أحد تلامذتي بالموعد والساعة فجن جنونها وباغتَت المكان ككتيبة من فرقة الصاعقة تكاد تخرج مقلتيها عن مِحجَريهما وألحقت بأبي فضيحة مدوية بصحبة خالي الذي كَال إليه إعصارًا من الإهانات والتجريح والتحقير ووقف أبي ليلتها مَهِيض الرجولة والوقَار مُنكسر الروح والكرامة لم ينبس بِبنِتِ شفة في الوقت الذي كنتُ فيه في انتظار العروس الرقطاء على ناصية الشارع وذهبنا لتناول العشاء في الملهى الليلي لشيراتون الجزيرة لتنتهي الليلة بوضع بصمتنا على سفح المقطم..

وفي الصباح باعت مريم الشقة واختفت تمامًا وغيرَت عنوانها وأرقام هواتفها.. وتحول بيتنا الهادئ لجحيمٍ لا يطاق وأبي منزوٍ لا يُحدِث أحدًا.. فأجبرتُه (حمالة الحطب) على الطلاق وأصرت عليه ثأرًا لكرامتها.. فجمعت له زُعماء قبيلتها.. وما استطاع أحد أن يثنيها عن قرارها فطلقها مرغمًا خانعًا مكسورًا ليُفَاجَأ بعد الطلاق بعدة أيام بأنها أَحَالَت مجموعته وأراضيه وكافة ممتلكاته لاسمها بموجب توكيل رسمي عام كان قد خوله لها منذ عدة سنوات ضمانًا لبقائها معه تاركة له فقط رصيد لا بأس به بالبنك

اقتطَعت منه حقوقها بالكامل قبل اكتشاف الكارثة.. حينها أدركت أنني كنتُ محقًّا فيما كِلتُه له من ألمٍ ساحق سيسحَقُه بلا أدنى شك.. فلابد أن يكون ذلك جزاء الأغبياء الذين يتمددون تحت كعوب نساء من أقصى الجحيم كأمي.. فلا يمكن أن تجتمع الطيبة والذكاء في قدرٍ واحد ولا يمكن أن يثمر التفاح أبدًا في الصحراء.

لم يتحمل المسكين نصل الغدر والجحود لعشرته وكفاح العمر.. فأُصيب بارتفاع حاد في ضغط الدم أدى إلى جلطة بالمخ أثقلت لسانه ويده وقدمه وما بَقي من عمره.. ولزم الفراش والبيت المتصدع الذي أصبح خاويًا على عروشه .. بينما تركت له أمي البيت الذي كان قد كتبَه مناصفة بيني وبين نزار وأمل ليبقى بيت العائلة.. وأصبح قعيدًا وخَرَّ صريعًا بين امرأتين مُشوهتين.. وتحول لموظف عند أمي وسَقطت امبراطورية دواد الحسيني.. وساد الحزن كل خلية بالبيت..

صار قاتمًا تملؤه رائحة الهزيمة والمرض والعَطَب.. وأصبح مشفًى لجلسات العلاج الطبيعي والأدوية.. وصارت أمل شقيقتي تلك الفراشة التي كانت تهيم في كل أرجاء البيت العتيق وترى الحياة على أطراف أصابع البالرينات تقف على فَرائص حزنها القاتم في ضعف أبي.. صار يومها من الصباح حتى آخر الليل قائمًا على تمريضه ورفع المعاناة عن كتفه المتهتك.. كنت أراقبها في الصباح تَجُره على كرسيه المتحرك في الحديقة تَحمل الشمس في كفيها

وتَضعُها على صدره وتبُثُّه نور الحياة.. وتُطعمه فطوره بين أوراق الشجر ونعومة الهواء ورائحة الورد صَبيح الجمال وتقرأ له أخبار العالم من الجريدة.. ثم تقدم له القهوة وتجعل من شفتي الفنجان قصيدة تنظم قوافي السكينة على شفتيه.

كانت لا تمل من دور الأم لأبيها.. تُغَني له بصوتها الأوبرالي الخلاب أعذب أغنيات فيروز.. وفي المساء أمام البيانو العجوز كانت تعزف وتشدو بدموع الاحتياج والاجتياح "شايف البحر شو كبير؟ كبر البحر باحبك".

لطالما كان أبي رجلها الأول والأخير.. لم أكن أعي حينها ماذا يعني الأب لابنته لاسيما الوحيدة.. لكنني أدركتُ وأنا أراقب أمل أن والدي لم يكن إليها رجلها ووتدها وحسب بل كان مَخِيط ثوبها وستر فُتاتها وسَنا عمرها.. أهكذا هو معنى الأب؟ أمن أجل كل ذلك استغفر إبراهيم الخليل له وأَنَّت روحه لعجزه عن هدايته؟ !!!

الأب.. وطن خُلِقَ لتسكنه كل قواميس القوة والوجود والسؤدد.. إنه جَبين العواطف وخَصر الرحمة.. لَحن الظهر الشجي حين يصرخ صلب الابن بالآاااه.. هو قبضة الله في الأرض.. ذاك المخلوق الذي زرعه الله في ضمير الإنسانية وأذاب على تفاصيل عوالمه معنى الهزيمة والانكسار.. وعندما أتأمل حكمة الله في خلق كائنًا سمَّاه بالأب وطَرحه في كل أشكال الحياة حتى

للجماد.. أجد أجراس كياني كلها تدق كأنها صوت الرعد نذير المطر.. فالمطر أبو الأرض،. يغيثها فَتنبُت.

الأب هو صوتُنا حين نجهر بالتاريخ وحنجرتنا عندما يقول الواحد منا بكبرياء النخيل (ها أنا ذا أنتمي).. إن وجوه أبائنا هي الصخرة اللينة التي تعانق أمواج مشاعرنا المتلاطمة لتقول لها لا تجزعي.. فالصخر أيضا أبو الموج.. وأوجع ما في الحياة أن يعانق الأب ثراه ويكون له أبًا.. يا الله كيف هي قدرتك أن يموت الأصل ليبقى الفرع.. هل سأكون يومًا أبًا؟! وماذا لو فعل بي أبنائي مثلما فعلت بهذا النهر الفياض؟؟.. ماذا لو خلق الله من صُلبي برعمًا ضعيفًا.. يحبو ثم يمشي ثم يَشتَّد فيصبح رجلًا.. فَيستل خنجرًا مسمومًا يَشْرُشُ به في لحم وهني وشَيبي..

وإن كنت قد سمحت لنفسي أن أُنَكِّل بالطيبين الذين ما رأيتهم يومًا سوى فضلات الكون.. فماذا إذن قد أعد الله للأشرار من أمثالي الذين مثلوا بالأرحام وبالإنسانية؟ !!!

رباه.. كنتَ تُمهلني وكنت أعدو على مهلك فرصة تلي الأخرى.. لم يهتز ضميري لوهلة بينما كان يهتز عرش الرحمن لقلة حيائي وإلحادي بآلائه.. أكاد أرى يد انتقامه تلوح لي ولكنه استدرجني ذا الكيد المتين.. فواصلت إجرامي بكل وقاحة وكفر... متى سيصرم الله قريتي الجاحدة؟!

في تلك الأثناء.. بدت لي يد الله تحمل غضبه عندما اتصلت بي مريم بعد برهة تطلب مقابلتي لأمر لا يحتمل التأجيل.. تصورت أنها تريد ابتزازي فأهملتها وانشغلت بالإعداد لفيلمي الجديد والذي كان بطولة مطلقة لإنجي.. والذي كان أحد روايات دوستويفسكي.. فداهمتني في أول يوم للتصوير وكانت مفاجأة عكرت صفو تركيزي فلم أعد أطيق رؤية تلك الساقطة..

جلسَت على مقربة مني في الكادر تراقبني عن كثب ولاحظَت اهتمامي غير العادي بإنجي وشممت رائحة غيرتها تملأ المكان بينما لم تهتم إنجي لوجودها بل لم تلحظه في الأصل.. فتداركتُ الأمر وأمرتُها أن تنتظرني في أحد المقاهي في الزمالك كنا قد اعتدنا اللقاء فيها.. وانتهى التصوير وإنجي تكاد تطير من السعادة ونحن نقطع كعكة الاحتفال بأول يوم لتصوير الفيلم الذي يحمل نجوميتها بخطوة شاهقة.. وأنا أكاد أُقبل أثرها في كل مكان وفي كل لقطة بينما كان حاتم في أحد محافظات البحر الأحمر يقضي عمله.

ذهبتُ لمريم متثاقل الخطى أحتاج إلى طن من المهدئات لابتلاع ساعة ستجمعني بوجهها الذي غدا إليَّ أقذر من مرحاض عام.

والتقينا.. وجدتها بانتظاري تدخن كعادتها سيجارة (المور).. مَعصوبة الشَعر.. في توتر غير مسبوق.. بَركْتُ أمامها كعمارة سقطت للتو.. أشعلتُ سيجارة أنا أيضًا وطلبت قهوتي.

- خير يا مريم في إيه؟

فجأة وبلا أية مقدمات..

- أنا حامل وفي الشهر التاني

شعرت بتجمد عروقي كلها ولكني تمالكت نفسي ورَباطة جأشي..

- آه مبروك.. وبتقولي لي أنا ليه؟ أكونش هاعمل لك متابعة حمل ولا شايفاني داية؟

تحاول السيطرة على أعصابها وقد بدت لها نيتي وموقفي

- أنا حامل منك يا راغب.

أطلقتُ ضحكة استقر معناها ومداها في نفسها..

- لا والله.. مممم.. طب وبالمرة ما عرفتيش واد ولا بت ولا يمكن هتبقي أم أربعة وأربعين

فتحَت عينيها بقوة

- بُص.. انتَ عارف كويس إنك سبب وقف حياتي من زمان ولا نسيت لو كنت نسيت أفكرك.

قَبضتُ على يدها قبضة تُفَتِت عظمها ودمها وصوتها الذي بدأ يُلفت انتباه الناس من حولنا

-لا أفكرك أنا.. إني سبب النعمة اللي انت فيها يا روح امك.. بعد ما كنتِ حمام عمومي لكل راجل عرفتيه.. فوقي.. والزمي مكانك بدل ما أمحيكِ من على وش الأرض.. وقبل ما تيجي ترمي بلاكي على أسيادك.. اعرفي حجمك

كويس قوي مش راغب داود اللي يتجوز شوية ليالي رخيصة ما تمتعش حتى شحات ولا شمام على رصيف شارعكم

طأطأت رأسها في ذل وهي تبكي بلا كرامة

- بس دي الحقيقة يا راغب والله العظيم دي الحقيقة.. الحمل دا منك

- نزليه.. ما نزلتيهوش ليه؟

بمنتهى الضعف

- مش قادرة.. مش هينفع.. حاولت صدقني حاولت والله حاولت لازق بغرا شعرت بنفاد صبري وأوشكت أن أَلكُمها وأنتهي منها هي وابنها اللقيط

- إيه المطلوب مني؟

- تشوف لي حل للمصيبة دي

- أنا ما باشوفشي حلول يا اختي.. دي مشكلتك تحلها بعيد عني.. أنا مش فاضي للقرف دا.. كل واحد يشيل مصيبته

بِذُلٍّ..

- مين هيرضى يتجوزني وأنا حامل.. أرجوك ما تتخلاش عني

قطع حديثنا الأسود جرس هاتفها المحمول فمسحت دموعها وردت

- أيوة يا سليم.. أيوة.. بعت الإيميل للشركة في باريس.. بكرة الصبح هيردوا عليَّ.. أيوة.. باي

لمعت في ذهني الفكرة واكتملت في جزء من الثانية.. سليم سيكون أبًا للقيط فلحمه وشعوره لا يتأثران لشيء إلا لأفواجه السياحية وأحلام البيزنس الكبيرة.

سألتها..

- انتِ رجعتِ للشغل مع سليم؟

بصوت خانع

- أيوة.. فضل يلح عليَّ أرجع ويزود مرتبي.. فرجعت وزودني فعلًا.. ما يعرفش يمشِّي شغله من غيري.. وقع الفترة اللي فاتت بعد ما سبته

أنهيت المقابلة سريعًا وطلبت منها مهلة بسيطة أستعيد فيها توازني لأجد حلًّا مناسبًا يخرجنا من الأزمة على وعد لها أن أنهيها

لثلاثة أيام فكرت ألف فكرة مجنونة.. كانت إحداها أن أجهضها بحيلة شيطانية.. أو أن أفضحها فتُضطَر هي للإجهاض رغمًا عنها.. كان فقط يعوقني جنونها الذين لا يجب أن أتركها أبدا له.. فهي على استعداد لأن تفعل أي شيء يقضي على سمعتي وقد يصل لأبي هذا الخبر ولأمي فيدركان ما فعلتُه بهما.. أرقتني مفاجأة تلك الساقطة وأضْنَت خُططي وتفكيري وشيطاني..ثم عزمت أن أزوجها لسليم.. وكان كل ما يحول بيني وبين التنفيذ.. خوفي الشديد من رفض سليم نفسه للفكرة.. ماذا سأفعل حينها؟.. أخذتُ أجمع أنفاسي وقد قررت أن أبدأ بتنفيذ الخطة الأولى ثم

الانتقال لسواها إن فشلت.. وتلك منحة أخرى من القدر لِمُبْرَي كي يصيب أحد أغبياء الأرض.. الأبله الذي يحب كل شيء وأي شيء بكل شيء.. سيقبل بلا شك.. ذكاء شيطاني لا يُخطئ أبدًا في تقييم الطيبين من أمثاله.

توجهت لشركة سليم في الصباح.. فاجأته زيارتي غير المتوقعة بعد انقطاع دام لسنوات.. فتهللت كل أساريره كعصفور صغير في سماء الصيد.. عانقني بحرارة لا افتعال فيها.

- راغب الحسيني.. مش ممكن.. مش معقول.

ابتسمت له وأنا أذكر مقولة المتنبي (إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنَّنَ أن الليث يبتسم)

- وحشتني يا أشقر

جلستُ أمامه على كرسي المكتب وشعرت بسعادته الغامرة بزيارتي.. سليم وجهه عبارة عن قلب.

- بس انت عرفت ازاي المكتب دا؟.. إنتَ حكاية

- ضحكت وبدأت خطتي

- قابلت مريم صدفة وهي اللي عرفتني.. أنا ما عرفتهاش.. اتغيرت قوي.. وقالت لي إنك فتحت الشركة من كام سنة وعامل شغل هايل.. أخدت منها العنوان وقلت لازم آجي لك وأشوفك.

- لا طالما جيت لي يبقى لازم أحتفل بيك.. هاعزمك على غدوة سمك ماحصلتش هاتنسى اسمك.

جلسنا لبعض الوقت في المكتب ثم اصطحبني لمطعم نيلي شهير وباهظ لطعام البحر.. وكانت فرصتي السانحة.. وأخذنا نتبادل الحديث حول العمل ووعدته بأن أروج لشركته في الوسط الفني حيث يسافر الكثيرون إما لسياحة أو تصوير.. فانبهر بالفكرة كثيرًا وأخذ يسألني عن حالي وعن علاقتي بهديل.. وبالطبع لم أكن أبوح بأكثر مما يراه.. فهديل حبيبتي وستكون زوجتي بلا شك.. ناولته بعض الأخبار الخفيفة ثم تدرجت في الحوار حتى سألته

- بس إنت ليه ما فكرتش تتجوز لحد دلوقتي يا سليم؟ إنت ناجح جدًّا في شغلك وعندك مقومات تأهلك للاستقرار وبسرعة.

شردت عيناه الزرقاوان خلف نظارته وبدأ لحن صوته يخبر عن شيء ما يخفيه.

- أنا مش عايز جوازة والسلام يا راغب.. أنا نفسي اتجوز بحب.. أحب وأتحب

صمَت لبرهة ثم رفع وجهه نحوي يتسرب من روحه

- أنا عمري ما اتحبيت.. هههههه

يضحك بسخرية يتخللها وجع

- آه والله.. أنا حبيت آه.. بس عمري ما جربت إحساسي إني أتحب

يصمُت مرة أخرى لتقفز غصة إلى شفتيه وهو يبتسم

- هو الإحساس دا شكله إيه.. بيبقى ازاي يا راغب؟

أحاول إلقاء الصنارة

- ليه بتقول كدا.. إنت ما تتحبش ليه يعني؟ ناقصك إيه.. ما انتَ زي الفل أهه.

تشرد عيناه مرة أخرى وقد أوشكت الدموع أن تتجمع في عينيه بعفوية

- مش عارف.. حقيقي مش عارف

- لا إنت مش مش عارف.. إنت أكيد مش واخد بالك.. لأن أكيد في بنات وبنات كتير كمان حواليك.. ممكن يكونوا فكروا فيك أو حَبوك وإنتَ ما انتبهتش

- هههه.. زي مين كدا؟.. أنا نفسي في أمثلة

اصطنعت التفكير في الإجابة ثم باغته

- مريم مثلًا

وقبل أن أكمل اسمها كانت كل حواسه تقف على أطرافها بكل تركيز تام فعرفت أنني قد أصبت الهدف قبل أن ينطق

- مريم؟!!!! هههه.. مريم؟!!

باندهاش...

- آه مريم.. مالها مريم.. مش عجباك؟

يبدو متورطًا في الإفصاح عن إجابة تؤرقه ثم نظر في عينيَّ بحزن

- مريم دي حدوته كبيرة.. لا دي مجلد

- يااااه مجلد!

باغته مرة أخرى

- شكلك بتحبها

يضحك بصوت عال وبدا ككمان حزين لا يعرف من أين يبدأ العزف ثم فاجأني دون أدنى مجهود مني

- من سنين يا راغب.. سنين طويلة

لقد تهللت قرون شيطاني فرحًا وها أنا ذا أحصد أول تباشير خُطتي فابتسمت ملء أوداجي

- طب وهي؟

بخيبة....

- ما هو دا بقى اللي باكلمك فيه.. هي لأ.. مش معايا خالص إنتَ... أُومال باقول إيه أنا من بدري.

- بس أكيد عارفة إنك بتحبها

- عارفة طبعًا.. وقُلت لها بس هي بتفضل قصة الصداقة والأخوة والحبشتكنات بقى اياها

أحاول الوصول لآخر نقطة مفيدة لحل العقدة

- يمكن في حياتها حد تاني

بثقة....

- ما اعتقدش.. أنا أعرف كل حاجة عنها.. اتجوزت (عارف) عُرفي واتطلقت منه.. كان وسخ وخاف على بيته وبرستيجه وهي كانت بتحبه واستحملته كتير

- اطمأننت إلى أنه يعرف جزءًا مهمًّا من ماضيها تحولت فيه من عذراء لثيب.. ثم لوحت له بأنه يمكنني التدخل بعدما شرح لي ظروفها ووِحْدَتها.. وأخذ يحدثني عن جمالها الآخاذ وكيف يراها امرأة شريفة تعف نفسها عن الزلات وتصمد أمام طمع الناس فيها (هههه) كم تتقن العاهرات دور الشرف والبطولة..

سليم هائمًا مُصليًا في حضرة قلبها واسمها وعرضها المصون.. هو يحكي وأنا أسترجع قبلاتها وأحضانها الصارخة وليالينا التي أنجبت أشبال إبليس وتَنصُب أفراحهم.

أوصلته إلى بيته وهو مرتاح البال مُطمئنًا ليدي التي سوف تتدخل بكل الود

والصدق.. لا أعرف كيف مضت به السنوات منذ أن كنا أصدقاء الطفولة وحتى الآن وهو على هذا النحو من الغباء والاستسلام الجارف.. كيف لم تَطْهُه مَصَارِع الأيام والخبرات والتجارب.. أدركت لأول مرة أن سليم الذي لم يتأثر لحمه لشيء.. كان يتأثر لأدنى شيء.. قرأت في عينيه رهافة العصافير.. كانت عقدته المُبِينَة شكله وجيناته "كعدو للشمس".. تلك العقدة التي فتحت دمه على قلبه وحواسه فانسابت واختلطت في بعضها البعض فصار رقيقًا حساسًا يَجرحه ملمس الورد.. ومنذ الطفولة وأنا أمتلئ وخزًا من رهافته تلك التي كنت أراها سماجة غير مسبوقة.

سؤال أرقني عمرًا.. لماذا كان يرهقني صفاء الأنقياء؟!

تحدثت إلى العاهرة التي لم أقتنع للحظة أن ما تحمله في أحشائها هو ابني ولم أتكلف جهدًا معها رغم محاولاتها المُضنية لتسول مشاعري وشهامتي معها.. فقط هددتها بأنها إن لم تستجب ستلقَ مصيرًا لا يمكنها أن تتوقعه وهي تعرف قدرتي جيدًا وتعرف ما يمكن أن أكيله لها.

أرشدتها إلى حجم ما يمكن أن تستفيده من ثروته الكبيرة.. لها ولابنها فلمعت أوراق البنكنوت في خواطرها وكانت حُجتها في عدم موافقتها على زواجها منه سابقًا اشمئزازها منه ولكن عندما أدركَت حجم ما يُمكن أن تحصده.. ذَهبَ الاشمئزاز والنفوذ لدار إيواء أخرى.. بل صار وجبة شهية لمكرها الذي لا

يَركُن لأي رحمة.. هؤلاء النساء من صِنف مريم أعرفهن جيدًا.. وأعرف كيف يتخذن من أفخاذهن وسيلة لتَملق شرف الرجال وصناعة المجد الرخيص على أسمائهم.. تمامًا كالعَلقة.

كانت فرحة سليم لا توصف عندما أبلغَته الكونتيسة بموافقتها.. وهكذا وقع سليم في براثن وَحْلٍ نسجته أنا وهي.. ينام بين ذراعيها مطمئنًا وهو لا يعرف أنه يدفع فاتورة باهظة تُكلفه كل ما لديه من أجل اعتناق أنثى لا تعدو عن كونها ماخورًا لأخس المعاني وأبخسها.. ولا يعلم أن صديق الطفولة اغتصب كرامته واسمه وروحه بكل قسوة العالم وجعل منه ورقة يانصيب خاسرة في مُقامرة وضيعة.

مرت الأيام وأنا في نجاحٍ مدوٍ يعدو اسمي صفًا تلو الآخر.. أحصد الجوائز وأدفع باسم إنجي للأمام تمهيدًا لحرقه يوما ما.. فلقد ساعدتها كثيرًا وسعيت لنجاحها المبهر وتقدُمها على كل فنانات جيلها وتصدَرت صورها وأخبارها كل المجلات والصحف والأخبار الفنية..

يقع في غرامها الكثيرين من وسطنا الذين يعلمون تمامًا بخطبتها لحاتم ولا يعنيهم الأمر.. فهي بالنسبة لهم مجرد خطبة أو خاتم يسهل إلقاءه في سلة مهملات.. وكانت علامة التعجب جثة ضخمة.. كيف ترتبط النجمة بضابط شرطة محدود الدخل وكيف لم يثنِها بريق النجومية عن حبه والزواج به.. وكنت أراقب كل هؤلاء عن كثب فكنت أترك البعض وأُنكل بالكثيرين وكان حبها له يقتلني بلا رحمة وأكثر منهم جميعًا.. تشبثها اللامعقول به ووفاؤها له.. كأنها لا ترى على الأرض سواه..

وفي ليلة تمت دعوتنا لحفلة تنكرية في فيلا النجمة (سلوى عاكف).. تلك الليلة التي كانت تزدحم بالنجوم والنجمات وكان نجم الحفل (عادل زين الدين) وكنت قد تأكدت بعد متابعة دقيقة له أنه يحمل شعورًا ما قويًا لإنجي.. فهو يُلاحقها كظلها ولكنه يبذل مجهودًا خارقًا ليُخفي مشاعره.. وكنت على ثقة بأنه لا رجل على وجه البسيطة يستطيع أن يستحوذ على اهتمامها..

لكنه استطاع أن يجعل من نفسه مادة لحديثها واستطاع أن يفعل ما لم

أقدر على فعله على مر سنوات طويلة كان قلبي فيها كسماء محترقة.
على أنغام الموسيقى الأسبانية.. رقصت معها وهي تتنكر في شخصية سنووايت وأنا أتنكر في الذئب.. تلاقت عينانا في صمت.. تحدثنا فيه حديث نفهمه جيدًا أنا وهي..
اقتحمتُها بعينيَّ ولم تستطع الفرار.. كان حوارنا الصامت لا يمكن رصده في أقوى أفلام الأوسكار .. كانت تعي بكل خلية فيها كم أحبها.. وكانت تتعجب لقدرتي على السكوت المُقنَّع كل هذه السنوات وهي التي تعرف تمامًا أني لا أبرح أهدافي حتى أحصل عليها.. تنظر في عينيَّ وتسأل ألف سؤال لا إجابة لهم.. أشعر أحيانًا وأنا أتمشى بين أحداقها أنها تود لو تسألني.. لماذا لم تكن أنتَ في البداية؟ ولماذا لم تفعل؟!!! لكن قلبي أخبرها بكل شيء كنت أُمسك بيدها وأضغط على إصبعها الذي التف حوله خاتم خطبتها.
لم أكن أشعر باسم حاتم المنحوت فيه وفي دمها ولا بملمس الألم في يدي.. كان كل ما أشعر به فقط هو وجود الطفلة الأنثى بين ذراعي.. تلك التي وثبت على روحي.. ما الذي يحمله صَدركِ لي يا إنجي؟ أسمعُكِ جيدًا.. أسمعك وأود أن أستغفر ولو لمرة.
جلسنا جميعًا نتناول العصائر والقهوة والبيرة لمن أراد.. وأخذ (عادل زين الدين) مخرج فيلم (سلوى عاكف) الذي كنا نحتفل به الليلة والذي تقاسمت بطولته معها إنجي.. يتحدث عن نجاح الفيلم والجميع منبهر به

وكلما انتقل من جملة إلى أخرى أرى ابتسامة إنجي تتمدد وتزداد اتساعًا حتى بدأ حديثه السياسي المعهود عن القضية الفلسطينية وعروبته المُتَشَدِّقَة ويستعرض كرهه لمعاهدة السلام والاعتراف بإسرائيل كدولة بينما كان نَجم فيلمه (سامح قنديل) يوجه له تهمًا بالغباء السياسي..

فسامح (ساداتي) متعصب وكان عادل (ناصريًّا) إلى حد التوحد بعبد الناصر.. وكان من هؤلاء الذين يصنعون مجدهم الأخلاقي على تروس اتجاهاتهم السياسية.. كان ساحرًا في معطياته وكان أعظم ما يملكه نخوته العربية ذات الأصول الريفية.. فلقد شق طريقه بالعصامية والكفاح العظيم.. كان ابنًا لأسرة تبدو أقل من المتوسطة لكن أبيه الصحفي الذي أُعتُقِل إبان عهد السادات زرع فيه وفي إخوته النَعرة العربية التي تأبى التلفظ بذكر بني إسرائيل إلا في لَعنتِهم في القرآن والكتب المقدسة.

وأخذ يُناور (سامح) وكلاهما يَلعن إسرائيل لكن اختلافهما الحقيقي حول دور كل من الزعيمين.. وأنا أضحك وعادل يتحدث عن الدور القواد لأمريكا التي تُرضِعُها الدولة العنصرية وضعها أمام العالم.. لم أكن مَعنيًّا بتلك اللزوجة المُعبَّأة في معاطف الرجال العرب ذوي الحَناجر العنترية فقط كنت مَعنيًّا بالدور الهتلري الذي أدب خاطر العالم.. لم أتحمس لزعيم عربي يومًا ما ولم تلتف حول مواقفي مزاعم العروبة.. كان ثمة شيء ما يجمع قناعاتي بهتلر.. هذا الرجل الذي حير الكرة الأرضية تاريخًا كان وسيظل .. تاريخًا

وحدي أعرف لذة بقائه.. وكنتُ كثيرًا ما أتساءل.. لماذا تتسلل ذكورة العرب إلى منطقة الصوت فقط لديهم؟.. أنا أعترف بدولةِ إسرائيل.. فكنتُ أرى أنها الدولة الوحيدة التي فَرضَت وجودها شاء الأغبياء أم لا.. ففكرة رفض الوجود وما يدعى بالاستيطان لا يتعدى تلك الكراسي التي تَعُج بها مؤتمرات العرب في كل بقاع العالم والتي تنتهي إلى السراب.

هكذا كنت أرى وأَحسم مسألة الوجود الإسرائيلي وكم كنتُ حقيرًا في إيجاد وليمة شاسعة لتبرير كل أفكاري ومشاعري الوضيعة على نحو لا ينتهي.

كان حديث عادل يشبه قصة الجميلة والوحش وإنجي تكاد تقبله من فرط إعجابها به وأنا أكاد أَفتك به.. ثم سألته.

- وانتَ بقى قدمت إيه للقضية العربية الفلسطينية؟

بدا سؤالي له كدوامة شفطت قدرته الكاملة على مواصلة الحديث.. فارتبك ليس من السؤال بل من تأكده من شعوري الذَميم نحوه.. ثم حاول النهوض.

- وانت قدمت إيه؟

ضحكت وأنا أشرب البيرة نخب لجاجته

- إنت اللي طرحت القضية واتكلمت بصدر واسع.. فباسألك.

بدا الجميع حذرًا من جَو الانقضاض بيننا.. بينما هو يحاول لَكمي بمروءته التي لَمس بصدقها حقدي.

- أنا لي مواقف تُحسب.. لكن أنا مهما عملت فأنا فرد.. مواطن.. اللي بيأثر في تاريخ ومصير الأمم هم الزعماء.

أكاد أفرغ زجاج الكأس في وجهه

- حبيبي.. الكلام دا هو اللي صنع دولة إسرائيل اللي انت مش مُعترف بيها.. وعمل أفلام كرتون ممكن ولادنا يشوفوها في السينمات وممكن تاخد أوسكار.. وممكن تتسلى على شوية منهم وتخرجهم.. إنت مش واقف على أرض الواقع.. ماما أمريكا بتأكلك وبتلبسك وبتديك معونة محترمة تقدر تقول بيها أنا مُكتفي.

بدا الجميع لا يستبينون موقفي والذي جاهدت أن أخفيه بمهارة فائقة وبدا عادل متحفزًا ربما لِشَجِّ رأسي لولا أدبه الجم.

- أنا مش فاهمك.. بجد مش فاهمك.. تقصد تقول إيه؟

رفعت حاجبًا بسُخرية

- أقصد أقول لك إن الربابة حلوة وإسرائيل سَتَصنَع مجدها.. وانت بقى روح اتبرع بالدم في معهد ناصر لضحايا الانتفاضة.. في نقص دم أكيد هناك

نَهض عادل مُقتربًا مني يَضعُ عينيه بين عينيَّ بقوة أَرْخَت أَوصَالي ونَفَثَ غَضبه في زفزة واحدة تكاد تَسحق ملامحي..

- ليك حق في كل اللي قُلته بس أظن إن بقى واضح ليَّ وللجميع دلوقتي ليه إسرائيل بقت موجودة زي الدودة الشريطية بينا

اتجه نحو الباب في ذهول من الجميع ومحاولة للتهدئة

تصبحوا على وطن نضيف يا جماعة

ليلتها فقط اكتشفت أنه قد يكون للطيبين وجه آخر غير الذي عَهِدتُه.. فهم ليسوا دائمًا ضعفاء بل أغلب الظن هم أقوياء كعادل زين الدين.. لكن هذا الوجه الذي عرفته الليلة قد قذف في صدر شيطاني الرعب ولابد لي أن أثلج صدره الملتهب.

وبقِيت شاردًا حتى استقللتُ سيارتي وإنجي معي في اندهاش لم يفارقها لتسألني

- إنتَ ليه هاجمته بالشكل دا؟.. عادل إنسان جدًّا و بيحب بلده قوي وباباه وعيلته كلها ليهم تاريخ وطني مشرف و... و....

وأخذت تُعدد عليَّ مَناقب ذلك العادل وأنا لأول مرة أَقبِض كفيَّ وأُطْبِق على أسناني وجفنيَّ خَشية غضبي عليها.. لابد من تحطيم تلك الصورة الماسية على نحو مُقنِع لها ليتقدم دوري عليه.

- أنا ما انكِرش عليه أي حاجة من دي.. بس عشان نقدر نواجه لعنة إسرائيل لازم نمتلك القدرة والقوة الحقيقية.. لازم ما يجمعناش البترول ويفرقنا الكرباج.. ولازم الحلول تبقى على أرض الواقع لأن الكلام الحلو كتير وأنا ما باحبش الهري والرغي.. أنا ما اعرفش هو زعل ليه؟.. أنا كنت بافوَّقه وجايز كنت حاد شوية بس أكيد دا ما يمنعش إني باحبه.

كان لابد أن أُنهي جُملتي بهذا النفاق الداكن لأبدو عفويًّا صريحًا لا أكثر ثم باغَتُّها

- وانتِ بتدافعي عنه كدا ليه؟.. ويهمك في إيه؟

طَلت من عينيها ابتسامة أنثوية خبيثة قبل أن تُجيبني وقد استكانت نَبرتها بخضوع

- لا لا.. أبدًا.. انتَ فهمت إيه؟.. أنا بس شايفاه راجل عنده مبدأ وليه موقف واضح.

اقتربت منها كالثعلب ثم باغَتُّها مرة أخرى

- هو حاتم نازل إمتى؟

وكأني أَفقتُها من غيبوبة طويلة

- قريب قوي إن شاء الله.

ارتبكَت وقد كَسَتها حمرة خجل عفوية

- تصبح على خير.

تركتني أودعها قبل أن تَهم شفتيَّ بابتلاع وجهها الطفولي الذي لا يتأثر بدقات الزمن..

لقد اختصرت إنجي كل الطرق المؤدية لفكرة ما ستختمر في ضميري لتفتِك بذلك العادل.. الذي كان لينًا طيعًا لصنف جديد لم أعهده من شري.. ولا

أعرف كيف لم يكن حبي لها دافعًا لكل رائع في هذه الحياة؟.. كيف كان عَضَلَة غلّي التي غَدت أكبر من إنجي ذاتها في قلبي..

قريبًا ستذوي قصة المخرج المناضل الوطني.. والذي صار قاب قوسين أو أدنى من الاقتراب من الأنثى الطفلة.. ومن أجل هدفي تَصالحتُ معه بطريقة في غاية البراءة والسمو تمهيدًا لضربة قاضية لم أَحصرها بعد.

كان عادل قد أعلن عن أنه سُيعد فيلمًا وثائقيًّا عظيمًا عن وعد بلفور ومعاهدة السلام وعنصرية إسرائيل وجرائمها.. في ذلك الوقت كنتُ في أمريكا لشراء معدات بتقنيات حديثة لتطوير الصورة السينمائية في أحدث أفلامي والتقيت بمخرجة واعدة تدعى (بيلين جوزيف) في أواخر الثلاثينات من عمرها.. نشأت بيننا صداقة قوية وبسرعة غير معهودة.. كانت من أصول تُركية تمتد للخلافة العثمانية.. عائلتها تتمسك بتاريخها العريق بينما كانت والدتها تلعن الدولة العثمانية وتنتمي للمدرسة العلمانية التي أسسها أتاتورك وكانت صحفية من أجرأ الصحفيات اللاتي هاجمن التاريخ العثماني كله بحروبة وصولاته وجولاته حتى نالت لعنة عائلتها بالكامل تلك العائلة التي تعتز بالأصول الإسلامية والتقاليد الشرقية..

حدثتني طويلًا عن التاريخ العرقي في تركيا وكيف قررت أمها الهجرة لأمريكا هربًا من جحيم عائلتها التي تزوج الكثير منهم من سوريا والعراق.. تعرفَت بوالدها اليهودي ذي الأصول الأيرلندية والذي كان مخرجًا أيضًا وأخرج نخبة من الأعمال السينمائية التي خلدتها السينما الأمريكية في فترة السبعينيات.. التقينا في زاوية الوصولية المفرطة.. كانت تعرف ما تريد.. ولا أتذكر طيلة شهرين ونصف الشهر (مدة وجودي بأمريكا) أني سمعتها تتحدث عن اليأس أو عن أحلام لا يمكنُها تحقيقها.. ملامحها أيضا تحمل أفكارها وإن تفوقت

عليها بحظٍ وافر من الجمال الذي لا يعرف الانحناء.. شَعرُها البني ذو اللمعة الرمادية وعيناها الفيروزيتان وبشرتها البرونزية المُشربة بصيف الشواطئ وفمها الذي يشبه ورقة التوت النضرة مع حاجبين أقرب إلى ساعة الحذر.. أما قوامها فكان كفيلًا أن يغير خارطة الأنوثة كلها فامتلاكها لكل مقومات الجسد المعنيّ بشهوة الرجال يجعلك تُدرك حين تراها من بعيد أن هالة قوامها لم تعط لامرأة سواها..

قصيرة القامة لكنها تعرف جيدًا أن هذه النُقبة تحديدًا هي أعمق نقطة في جمالها.. ومع كل تلك المعطيات فيها إلا أني لم أهتز لها كرجل.. كنت لا أرى أيًّا منها على الإطلاق إلا عندما تبدأ بالحديث إليَّ.. ذكاؤها المُتقد والذي يسيل من أظافرها وطرف شفتيها كان يحيلني إلى كتلة من الحديد المنصهر.. أسرني ذكاؤها وفَتنني لؤمها الحاد.. أخبرتني أنها تزوجت لمرة واحدة من كاتب كاثوليكي متعصب للكنيسة وهو من أصول أوروبية بينما هي لم ترَ من المسيحية إلا بعض أفكار البروتستانت ولم يكتمل زواجهما لأنه كان يتعامل معها بالديناميكية العثمانية التي تفر منها لاعنةً الشرق بكل حدوده كما صرحت لي بميله الذكوري لأن يكون سيد الموقف دائمًا حتى في أدق لحظات علاقتهما الحميمية.. فهو رجل لا يقبل الخضوع والمرونة وهي امرأة غير قابلة للثني.. لكنها أفصحت عن حقيقة لا تُخفيها حين كنا نجلس في ملهى هادئ في ذات ليلة في أحد ضواحي نيويورك.

- لكني كنتُ أحبه أو أحب عدم ارتياحي معه.

أثارتني الجُملة

- كيف تحبين رجلًا لا ترتاحين معه؟

وضعت لي الثلج في الكأس وأشعلت سيكارة بنكهة الفراولة

- كان ذلك مَبعث بقائي معه طيلة ثمانِ سنوات وكنت أعرف تمامًا مقدار حبه لي وأعرف أن لا امرأة في العالم تستطيع أن تجعله يلتفتُ إليها البتة.. فقد كنتُ أنثاه مهما تبدلت عليه النساء.. لكني أَمقُت الهدوء بين شريكي الحياة.. رغم ذلك كان قائدًا.. يعرف كيف يُمسك بزمام قلبي.

وأخذَت تضحك وهي تلمح إعجابي بمفرداتها التي تليق تماما بها.. فقد أدركَت أي الكلمات تحديدًا تَسلُب إرادتي أمامها دون حاجة للإفصاح عن ذلك.. ثم واصلَت:

- ألا تعرف أن لكل رجل أنثاه التي خلقت لقلبه عمن سواها وهي الوحيدة القادرة على جذب أكثر محتوياته خطورة وأنقاها وأشرسها؟

انسابت نظرتي في حروفها كأنها بلورة ساحرة من الأساطير.. ورأيتُ إنجي وهي أمام آلاف الرجال بين ذراعي حاتم.. على جبينِها بصمتي كالحبل السُرِّي المقطوع فينا ولكن أثره لا يزول ما حيينا.. وشَمَمْتُ في شرودي عطور كل النساء اللواتي أخذن ما يكفيهن من ذروتي.. لكنها وحدها التي امتطت محتواي الذي لم يَسقط على قدمي امرأة قط سواها.

حاولَت (بيلين) استدراجي بعد أن تأكدت من اختلاجي في جُملتِها.. وأدركَت بلا أي مجهود أن لديَّ أنثى تُطبِق على المعنى الذي طرحته.. ثم استطرَدتُ أسألها بشغف..

- أما زلتِ تُحبينه؟!

ضحكت مرة أخرى وهي تشرب آخر قطرة في كأسها

- يا عزيزي إن مشكلة الشرق في الحب تَعمَد لالتقاء المُحبين في بوتقة واحدة.. لقد تحررتُ من تلك القضية التي تحكم العالم من حولنا وإن كانت لها معطياتها أيضًا في أقطار الغرب...

هناك نوع من الحب.. لا يُفترض أبدًا أن ينضم لمفردات الشُعراء وأصوات البلابل ورائحة الياسمين.. إنه ذلك الحب الذي يُظلل عقلك جيدًا.. ويمنعه من التَورم والتورط في البكاء حين تَفلِت كل أبجديات خلاياك من حَدِه من كل اتجاه.. إنه الشعور بأنك أصبحت في المدى.. وأن السماء لم تعد ذاك اللون الأزرق الفاتح وامتداد الكون.. إنها فقط قلبك الذي يُرافق أنفاس حبيبٍ قد يكون في أقصى غربة عنك.. وحين تُسأل عنه تُجِب بابتسامة آمنة وحسب.. أنا أؤمن بالكمون قَدْرَ ما أؤمن بالطوفان

عُدت إلى شقتي التي كُنتُ استأجرها في نيويورك ليلتها.. وأنا معقودٌ على أشفار كلماتها.. المرأة تلك المخلوق العجيب، المُلهِم المُلتاع فينا.. جُرف الأرض والحياة.

توالت عِدة صباحات.. كنت قد قررت أن أفرد (لـ بيلين) بضع ليالٍ معي أعرف فيها مذاقًا من نوع خاص جدًّا لنساء لا تُكررهن دورة الأنوثة أبدًا.. فمدهش أن تقيم علاقة حميمة مع عقل الأنثى.. تلك العلاقة التي لا تحرك فُحُولتك وحسب بل تُحرك أقصى غياهب فكرك الراكد في حين كنت تعتقد أنك تحمل رأسًا لا يحمله اثنين

واندلعت بعض حكاياها عن علاقاتها بأهم رجال الفن والسياسة والرياضة.. ووصفت خلاصة خبرتها بصنوف الرجال بأن رجل السياسة في العلاقة السريرية معنيٌّ جدًّا بالتشبث بكل نواميس الفوضى وأنه أكثر الرجال جنونًا حين يتعرى

ومع أول انفراجة لزر قميصه يستمتع بكل استثناء.. فرجل السياسة يَدُق مفاصله حتى أَخمَص أطراف شبقه إلا أنه يجعل للفراش لونًا خاصًّا جدًّا وسريًّا تمامًا كسرية كيانه السياسي.

ساعدتني (بيلين) كثيرًا في عملي وعرفتُ منها أكثر عن أدق معايير تفوق صناعة السينما المُتفردة والتي ربما لا تنال الأوسكار ولكنها تنال سِجالًا فريدًا في تاريخ السينما.. تعلمتُ منها الكثير وكأنها كُورس مُكثف لي عن حضارة واسعة لم أكن أتطرق إليها من قبل.. وأدركتُ حَجم تعاطفها مع إسرائيل وحقها في الامتداد كدولة رغم مَقتها للصهيونية النازية كما كانت

(تصفها) وتعتبرها أحد أهم أعراض المرض الفعلي الذي جَعل للقضية الإسرائيلية أعداء.

جثمَت على ذهني صورة (عادل زين الدين) فجأة والذي كنت قد تلهيت عنها بمهامي في العمل.. ثم في ليلة غير اعتيادية.. عقدْتُ معها صفقة خبيثة حول الإيقاع بعادل في فيلمه الوثائقي الجديد.. كانت تلتقط إشاراتي الفكرية قبل التلفظ بها.. ولم تنجح محاولاتي في إقناعها بأن دوافعي محايدة.. فناولتُها الفكرة واستغلتها بنجاح.. فكل منا يعرف ويحدد أهدافه.. لي وجبة شهية ولها أيضًا.. كلانا سيقتسم الفوز..

طلبَت مني أن تلتقي بعادل وأن أترك لها البقية التي سَتَعْبُر بها كما تمنت نحو الشرق الخانع.. وكنتُ أعرف قدراتها وأثقُ بمخالبها دون أدنى توجيه مني.

فاجأتني أنها سَتُغادر معي للقاهرة فهي أيضًا لديها بعض الأصدقاء هناك.. ولحُسن حظي أن مهرجان القاهرة السينمائي كان قريبًا من موعد العودة.. وبالفعل طِرنا للقاهرة ونَزلَت بأكبر الفنادق على النيل وحضرَت المهرجان والتقَت بعادل الذي اصطَحَبْتُه معي دون أن يعرف أن ثمة علاقة قوية بيننا فالتقينا كما بدا له وكأنها صُدفة فرحْتُ بها..

وتعارفا وفتحتُ أنا أمامها حديثًا عن رغبته في عمل فيلم وثائقي كبير يُعد له عن وعد بلفور وإسرائيل ومعاهدة السلام.. فابتسمَت له وهي لا تخفي

انبهارها بالفكرة.. ثم دعته لتناول عشاء عمل.. ذلك المسكين لقد اخترقته (بيلين).. وقد أوشك أن يقع في حبها.. فقد أخبرتني أنه يزورها بشكل منتظم في الفندق ويخرجان للتسوق والتنزه كل يوم وليلة في حين وعدَته أن تقفَ إلى جواره وتسانده لخروج الفيلم في أعلى مستوياته حيث أن لديها مواد وثائقية بأمريكا ستساعده كثيرًا.. كما تم الاتفاق على تحميض ومونتاج الفيلم بأعلى جودة في أمريكا.. ابتلع عادل الطُعم بعد أن وقع في غرام المخرجة الواعدة والتي اعتبرَته صُعلوكًا عربيًّا طري العقل مشوه الفطرة والنوازع..

وتمت الصفقة بكل اقتدار وبراعة.. فيلم وثائقي يحمل ضمنيًّا حق دولة إسرائيل في إرساء الحدود ولكن عليها أن تتخلص من صهيونيتها تجاه الفلسطينين وحسب.. لقد أرسلَت إلى عادل النسخة التي سَتُعرَض قبل إضافة التقنيات للصورة وقبل إضافة السم.. وإنك إن شاهدْتَ الفيلم لثلاث مرات لا يُمكِنك الانتباه لتلك الثكنة وكان عادل مطمئنًا مؤمنًا ومعتنقًا لبيلين التي قرر أن يتزوجها فور نجاح الفيلم وعرضه ولا يعي أبدًا مُخططها العنكبوتي (الصهيونازي) لاختراق الفيلم كافة المؤسسات الثقافية للشرق.. خاصة (مصر) التي هي قلب وروح العرب مُشِيرة إلى دور معاهدة السلام في التطبيع من وجهة نظرها العنصرية.

تَم تحميض الفيلم وإرساله لإدارة المهرجان وتم عرضه في أهم قاعات لجان التحكيم وأُغلقت القاعة بل القاعات لساعات طويلة تم فيها التحقيق مع (عادل زين الدين) وانتهى الأمر باعتقاله اعتقالًا سياسيًّا بعد تَدخل المخابرات العامة المصرية.. وانتَفَضَ مُستقبل المسكين ومصيره كله بعد تسرب نسخ من الفيلم إلى لبنان وسوريا والأردن وما لبث أن تصدرت صُحفهم خبر المخرج المصري العميل الخائن الذي قدم فيلمًا وثائقيًّا يَخدم الصهيونية العالمية..

وقامت القيامة بمصر والوسط الفني والإعلامي والثقافي.. والجميع لا يصدق أن (عادل زين الدين) الذي نَفَض دمه من عروقه لأبطال الانتفاضة ومواقفه الوطنية والسياسة ودواوينه الشِعرية ذات الصبغة العربية التي دبت الحياة في وجه نُضُوب النخوة العربية قد أضحى خائنًا لكل قضاياه..

كما تصدرت صُحف إسرائيل أغرب المانشيتات عن أن مصر تَعتقل مُخرجًا جَهر بأحقيتهم في أرض الأقصى وبالقدس كعاصمة لإسرائيل.. لقد اعتبرته إسرائيل عَربيًّا يهودي الهوى شريفًا في نظرهم.. وكل ذلك في ظل اختفاء تام لبيلين.. وفجأة تم استدعاؤها لتنالَ وسام الفنون عن نفس الفيلم في هوليود على السجادة الحمراء وتم تكريمها في أكثر من منظمة إسرائيلية في أكثر المحافل أهمية.

وصارت قضية وطن وأزمة سياسية كبرى احتشدت على إثرها مظاهرات بوسط البلد بالقاهرة وكنت أتزعم كثيرًا منها.. وتأثرت الحركة الفنية والثقافية بعدها كثيرًا حتى تعود إلى سابق عهدها وكي تزول تلك البقعة السوداء.. وهنا أذكر أحد الصحفيين المُخَضرَمِين حين التقيتُه في مؤتمر هام عن صناعة السينما.. فقال لي بالحرف الواحد

- أكيد في خلل لأن عادل اللي أعرفه لا يمكن يعمل كدا

أجبته...

- أنا مذهول والله من اللي حصل.. بس الغريب إنه ما كانش عنده أي حجة مُقنعة في التحقيقات.. ليه يا عادل تعمل كدا؟.. وحتى لو هي اللي عملت كدا كان مخه فين؟.. صدقني ما لهوش مَخرج.

- فعلًا يا راغب ما لهوش مَخرج.

لقد أهداني شيطاني وسام التفوق لما أَلحقته بالمناضل الساذج.. فقط كي تَكُف شفتي إنجي عن تذوق اسمه كَلُقمة من العسل المصفى.

إنجي تلك التي جعلني حُبها أحرق العالم من حولنا.. وحين التقيتها واجتررتُ اسم (عادل زين الدين) أمامها.. أجابتني بكل ثقة

- دا فخ كبير وعادل وقع فيه.. بس كل واحد بياخد نصيبه.. ربنا يعينه على اللي هو فيه.

وكدت أُجَن.. لقد نكلتُ بالوطن من أجل امرأة تجعلني مشبك غسيل لقطعة داخلية من ملابسها تبرعَت بها لرأسي المُتعَب الشرير

وبينما كُنتُ شاردًا في استقصاء رغبتي في التنكيل بها.. زفت إليَّ خبرًا فتح فوهة البركان من جديد

- أنا وحاتم فرحنا أول خميس في الشهر الجاي !!

وأُسقِطَ في يدي !!

لا أعرف كيف توقف العمر أو مر بي في تلك اللحظة التي زُفَت فيها حبيبتي إلى صديقي.. لم يكن بوسعي الاختباء والاختفاء.. لم يكن بوسع موتي أن يدعو الجميع إلى العزاء.. كنتُ من الصباح إلى جوار صديقي الذي لَعنتُ كل أقنعتي المزيفة في ادعاء فرحتي له.. كنت ألعنُه وألعنُ وجهه الذي قلبَ حياة حبيبتي.. وألعنُ يده التي عبثت في طريق أقداري.. تألمتُ إلى حدٍ لا يطاق.. ذاك أنا الذي كان يُؤلِم فقط.. وكأن حاتم خُلِق فقط ليُخَلِّصَ مني وجع الذين أوجعتهم طوال عمري.

ومنذ الصباح الباكر وأنا أعتني بسيارة حاتم وأزينها بالورد والحياة والشمس...

إن أعظم ما يمكن أن يمر به قلب في الحياة.. أن يُعتَصَر لبعد رفيق الوجدان.. كنتُ أتخيل لو تلك الليلة هى ليلة زفافي بها.. آآآآه.. كم هو قاتل ما تُحاصرني به روحي.. روحي التي تحتاج إلى لُفافة كاملة بحجم كل شوارع

الموت.. لتضميد كل الحرائق التي نَهشت قلبي ووداعتي وضميري والزمن الصادق في ساعتي.

أنا لا أفرح لأحد ولا أَعتَبِر للون الأبيض لا أراه لا ألمسه.. لا أتمناه أيضًا لكائن في الوجود.. ربما لم أتعلمه في حصة الرسم منذ عرفت الألوان.. رغم أنه أبو الألوان.. حتى تلك الشمس التي تغطي طريقي كل صباح لا ألتفتُ لقدرتها في إغراق الموت في الحياة.

تلك الليلة التي كان فيها القمر بدرًا ليعلن إنجي وحاتم قدرًا محتومًا في الأرض وفي السماء كيف ألغيها؟ كيف أنساها؟ كيف ستمضي ليالٍ أخرى بعدها.

أذكر أن كل دقيقة في ذاك اليوم كانت تمضي عليَّ كأنها دهورٌ وأذكر أني كنتُ أُطلق ضحكات هستيرية لا أعرف مداها ولا كيف اقتحمت ثباتي.. لم أعرف البكاء للحظة.. ولا أذكر تَبَلُل جَفنيَّ بطهر الدموع أبدًا.. أبدًا.. لكن كان عليَّ أن أنسلخ من هذا الفيلم الأسود بأية طريقة تلك الليلة.. وبالفعل بعد الوصول لقاعة الزفاف انسحبت بعد الخمس دقائق الأولى مدعيًا نسيان شيءٍ هام في المنزل قبل أن أرى إنجي.. وأخذتُ أتسكع في شوارع القاهرة كالصعاليك التائهين بسيارتي على غير هدى.. لا أعرف ما أفعل وما أَشعر.. كنت كفاقد الوعي أو ميت يدعي الحياة.. أو شيء في اللاشيء.. أخذت أتأمل وجوه الناس.. أقرأهم كأمي من أقصى عشوائيات الروح..

توقفتُ أمام النيل ونزلتُ أُشعل سيجارة وأنا أسند رأسي المتورم خيبة على سور الكورنيش.. تَنتحر عيناي في قاع النيل أَنفُث الدخان وأتحول معه لمقبرة من الهُلام.. كان كل ما يُعَانِقني لحظتها.. رغبتي في الانتقام من قلبها.. كيف أَجمُع لها تراكم أظفاري لتنغرِس فيها بلا رحمة؟.. كيف؟.. كيف؟..

لأول مرة أبدو عاجزًا لا أعرف كيف أنفذ إلى فرحتها لتموت.. لأول مرة أَستجدي إبليسي الذى كان في سُبات عميق ليلتها.. أيها اللعين أين أنت؟.. لا أعرف بمن أبدأ؟ بها أم بحاتم.. أم كليهما معًا؟.. أو أن التمثيل بأحدهما سَيُمَثِل بالآخر.. أفتقد رأسي.. تبًّا.. تبًّا لابد أن أفعل شيئًا.. أي شيء بأي ثمن مهما كان.

طَلَّت صورة هديل أمامي كَصُرَّةِ جليد عنيدة الذوبان.. عليَّ أن أتزوج بهديل التي انتَظَرَت وصَبرَت طويلًا وأكثر مما ينبغي.. ستكون وجبتي الخفيفة التي تَسُد جوعي ما بين وجبتين ثقيلتين ربما لن أعرف الجوع بعدهما.

شَدَدتُ أطرافي من بين الأفكار وتوقفت..

غدًا.. غدًا.. سأحسم قصة زواجي بهديل.. المُعلبة.. المُقَصَّبة بحبها الأعمى لي.. المهادنة لكل مراسم وجودي.. الآتية من كل حكايات جدتي الباهتة.. أنا لا أحبها وعليها أن تدفع ثمن زواجي بها بلا حب.

هديل ستكون أقوى دفعة تَشحَذ همة وضاعتي.

طار العروسين إلى نيس لقضاء أسبوع العسل الأول بينما كنت خلاله أرتب لزواجي من هديل في أسرع وقت ممكن.

كان الكل فرحًا بقراري عداي أنا.. وكانت هي نفسها لا تُصدق أنني أخيرًا سأتزوجها وأخذَت تعد كل تفاصيل عُش الزوجية وكأنها ستولد من جديد وكنت أشعر بالاختناق كأني أقود نفسي إلى غرفة الإعدام أو الموت بأول أكسيد الكربون.. وأسأل نفسي طيلة الوقت ما الذي يدفعني أن أتزوج بامرأة لا أحبها؟.. ولماذا لم أواجه نفسي بضرورة نسيان إنجي وحب امرأة غيرها؟.. ربما أصلًا أنا لا أعرف الحب.. وربما لأني جُبلت على حب إنجي منذ الطفولة.. فُطِرت عليه كحب أمي.

مضت الأيام سريعة وأنا لا أعرف كيف سأتحمل هذه الهديل معي في بيت واحد.. لكن ما أعرفه أنها ستكون أقصى امرأة عني على وجه الأرض.. لن تَنفعَها طاعتها ولا ملامحها الطيبة وأصلها الكريم.. حتى افتتانها برجولتي المزعومة لن يُفلتها من وحش كاسر يثور فيَّ.

تم كل شيء بسرعة مهولة كَطرفة عين.. منحتها كل المال اللازم لإتمام كل شيء دون مشاركتي وشَعرَت بذلك حيث كنت أتعلل دائمًا بأني مشغول.. وأكثر ما كان يثير حنقي منها أنها كانت دائمًا تُغالِط نفسها وتقُنع أفكارها بالوهم.. وذلك ما كان يثير حفيظة أهلها أيضًا لكنهم تفننوا في التغاضي..

كل ذلك في مقابل أن نتزوج بعد أن عرف كل الناس بارتباطها بي منذ الطفولة.

وكان يوم زفافنا الذي كان أتعس أيام الأرض عليَّ.. في ذلك اليوم دَخلتُ إلى مرسمي في الصباح الباكر.. يتأزَّمُ داخلي المارد اللعين.. أمسكتُ بأقلام الفحم وعكَفتُ على وجه إنجي الذي رسمته عشرات المرات أرسمه من جديد.. في ذلك اليوم شعرت أني أرسم قلبي المفتت في ملامحها وأنقل الغضب الأسود إلى عينيها.. توقفت في منتصف اللوحة وأخذت أدور في كهفي أشرب البيرة في هدوء وجنون ثم فتحت أسطوانة سيد درويش (أنا هويت وانتهيت).. ووقفت قرب النافذة أرمق النور الذي سكب المُر فيَّ وأنا أُكمل دموعي وأفرغ أمتعتي التي تنزف.. ثم استلقيت على الأريكة واستسلمت لغفلتي.. حتى داهمني كابوس.. رأيتُ فيه هديل مذبوحة بثوب زفافها.. أفقت أكاد ألفظ أنفاسي واتجهت من فوري مذعورًا إلى الحمام كي أستفيق من فزعي بالماء البارد.. لماذا أنا مفزوع بهذا الشكل.. أليس هذا ما أريده كي أرتاح؟

مرت المراسم ثقيلة مُرهقة كأنها مراسم عزاء.. وجلستُ إلى جوار هديل نتلقى التهاني من المدعوين.. حتى تَدَفَقَت عيناها في صدري.. ويدها في يدي سامقة الحسن.

- مبروك يا راغب.. ألف مبروك.

شعرت بأعصابي تستكين في لحمها وجاءني صوت حاتم الرخيم..

- ألف مبروك يا صاحبي.. أخيرًا فرحت فيك.

إنهما سعيدان كهدهدين على شجر الغرام.

توالت التهاني والوقت يمر ثقيلًا كأني في تمثيلية شديدة السخف.. حتى رأيت أمي بصحبة شاب يبدو في أواخر الثلاثينيات وجيه الطلة وتبدو معه كمراهقة.. انتبهت كل حواسي.. وكان هذا المشهد هو الصَفعَة التي أعادت كل خلية فيَّ إلى نصابها الصحيح.. السيدة أنهار تتجه نحو رعونتها بسرعة الضوء.. لابد وأن في الأمر شيئًا ما ليس على ما يرام أبدًا.. وذاك المفتول يهمس لها كل فيمتو ثانية فتشبع عيناها وتنتفخ أوداجها وتتدلى سنواتها الفائتة في لقطة مثيرة للشفقة والقرف.. أيُعقل؟ ألا زالت تصدق أنها غادة الكاميليا؟ مسكينة.. لا بأس.. فأنا أعرف كيف أجعلها تسعد أكثر بما تبقى لها من أيام.. ثروة أبي ليست أحد مساحيقها الرخيصة حتى تستعيد بها بعض شبقها المزعوم.

انتهى أخيرًا الحفل الباهت السمج ودخلتُ سجن الزواج.. وامتثلَت أمامي هديل كجارية من سوق النخاسة.. لم أكن أشعر بأكثر من ذلك.. رفعَت عيناها نحوي في خجل وبراءة.. لم أرها بهذا الجمال في حياتي من قبل.. أخذتُ أتأملها وأحدق في كل قسماتها.. كم كانت نقية كحبات المطر.. ابتسمت لي كَصُحبَة تحمل ألف عبير لألف نوع من الورد.. خفيفةٌ روحها كأنها أول خيوط الصباح.. بالطبع لم أكن ليلتها أراها كذلك .. كنتُ كسَيدٍ

جلاد لعبده الخانع.. سلمتني نفسها وبكارتها وعمرها.. لم تكن تعلم أنها تُضاجع مملكة من الشياطين.

ومضت الأيام خانقة باردة.. وهديل زوجة مطيعة بارة.. كريمة المعشر يتسع باتساع النهار خُلُقها وصدرها لفتوري وتسلطي وعدم إقبالي عليها.. كنت أنتقي أبرد الكلمات لها.. وأزج بها في التعاسة زجًّا.. أتعمد إهانتها بشكل غير مباشر حتى تحار في أمري.. وأتعمد أن أتصل بها وأنا خارج المنزل وأطلب منها أن تجهز الغداء أو العشاء لأننا سنتناوله سويًّا ثم أتأخر وأتناوله في أي مكان قبل دخول البيت.. حتى تنام على نفسها من التعب فلا هي أكلت ولا ارتاحت ولا تناولته معي.

كانت تذهب إلى عملها لخمس ساعات فقط في اليوم حتى تتفرغ لي.. وأنا كل طموحاتها في الحياة أولها وآخرها.. كنت أشعر بقلبها يكاد يتوقف من الفرحة حين أدخل البيت وأرى دموعها وأنا أودعها.. لم تتبدل يومًا بل كانت تزداد حبًّا وتعلقًا بي كلما أمعنت في إساءتي لها.. وكل ذلك كان يدعوني لمزيد من النفور منها.

امرأة من المسك أحالت بيتي لقطعة من الجنة.. رائعًا بسيطًا كبيت صوفي بين جبل وبحر.. وخصصت إحدى غرف البيت كمرسم لي واختارت له شكلًا تذوب الروح فيه.. لم تكن تُدرك أن روحي تزداد انحطاطًا كلما هادنها الصفاء.. كانت لا تناديني إلا بحبيبي كأنه اسمي.. ليست إنجي وحدها من

تحب رجلًا واحدًا مدى الحياة.. فزوجتي أيضًا لم يعرف قلبها رجلًا سواي.. لكني أبدًا لم ولن أحبها.. إنها من ثلة الأغبياء الطيبين الذين يُضحون بغير مقابل.

بعد زواجي بأسبوع لم تبرح رأسي صورة أمي بصحبة ذلك المفتول.. توجهتُ إليها في عصر أحد الأيام مدعيًا حنيني لها فاستقبلتني بفتور غير مفتور وقد بدت عليها وصفات رجوع الشيخ إلى صباه.. فوصلت شَعرها بشَعر اصطناعي ستر ظهرها المحني بعد أن كاد رأسها يتحول لإشارة مرور في جزيرة الصلع.. تصبغ شفتيها بأحمر لا يتسق مع سنواتها السبعين وترتدي سروالًا من الجينز.. ولا تنطق شفتاها بأي سؤال عن أبي الذي صار كخرقةٍ بالية مكومة في ضعفها في زوايا البيت المظلم القديم.. دفع أبي ثمن غبائه لعقود مع امرأة أشبه ما تكون بطُرَيشَة الأرض..

لم يغوِني يومًا حنانها المتكلس ولم يتسلل إليَّ دفؤها في أكثر ليالي العمر قسوة.

جلسَت أمامي تضع ساقًا على ساق وأنا أشرب الشاي بالقرنفل الذي أعدَّته لي على طريقتها التقليدية منذ عرفت أنها أمي.. وأشعلت سيجارة وهي تعلك علكة بطعم المراهقة الماسخة.. حاولتُ أن أسيطر على آخر عصب فيَّ وأنا أستدرجها من حيث لا تعلم وهي تتخيل نفسها دائمًا أذكى النساء على وجه

البسيطة وأنها ستُمَرِّر بهدوء خبر زواجها الذى تنويه من ذاك (الجيغولو) الغارق في نزقة من عرق النساء وثرواتهن.

- شايفك بقيتِ قمر

- تضحك بدلال سمج

- طول عمري يا ولد.. إيه إنت أول مرة تشوف مامتك ولا إيه؟

بلؤم...

- طب والقمر دا هيفضل كدا لوحده.. أنا خايف وبافضل قلقان عليكِ يا أمي طول الوقت.. انتِ عارفه طبيعة شغلي.. بابقى مش عارف أتلفت

- ربنا يوفقك يا حبيبي.. أنا منتهى سعادتي أشوفك ناجح وفرحان إنت وأخوك وأختك .. دا أكتر شعور بيونسني ويملا حياتي بالآمان.

كم هي كاذبة بل هي سعيدة لبقائها وحدها تَتفَسَح في حُريتها وقصصها الفارغة التي ستؤول بها وبنا إلى الجحيم.

سألتها وأنا أستقطب من عينيها الحقيقة

- ما فكريتش تتجوزي؟

ارتبكَت في حياء يخلع نعليه على شفتيها...

- أنا فعلًا يا راغب تعبت جدًّا من الوحدة.. بس خُفت من كلام الناس ومن زعلكم.. وفعلًا جت لي لحظات فكرت.. بس مش عشان أي اعتبار غير إحساسي الفظيع بالوحدة.

بدأت عيناها بإطلاق الدموع المسيلة لغاز غضبي الذي لا أعرف ماذا سيفعل بها وأنا أكتم دمي الذي بدأ يتورم في عروقي.. فأي اعتبار ذاك الذي تتحدث عنه المتصابية في زيفها ونجواها.

فاجأتها..

- دا حقك الطبيعي يا أمي لأنك لو بصيتِ لكلام الناس ولَّا لينا مش هتخلصي.. طب ليه ما فكرتيش ترجعي لبابا؟.. إنتِ عارفة هو بيحبك قد إيه.. وبعدين دي كانت نزوة زي ما أي راجل بيمر بنزوة.. شكة دبوس يعني.

- لا.. ما عادش ينفع خلاص.. دا خان الحب والعشرة وكل حاجة.. أنا اللي شاركته كفاحه ووقفت جنبه العمر دا كله.. كانت إيده مخرومة.. وبقيت ألم معاه القرش على القرش ولولايا كان ضاع وضيعكو معاه.

بالطبع هي دائمًا صاحبة الفضل حتى لخروج الشمس على الليل.. وفي لمح البصر نسيت كفاح الرجل وجهده طيلة حياته

- إلا مين الجان اللي كان معاكِ في الفرح ده ؟!

ازداد ارتباكها وبعد مناورات في الحديث اعترفت بأنها ستتزوجه لقتل وحدتها المزعومة مؤكدة لي أن ابن الثامنة والثلاثين يحبها لذاتها وليس لأي هدف آخر.

ولا طمعًا في ثروتها.. فهي الشديدة الذكاء التي لا تقع في مثل هذا الشَرَكِ أبدًا.. وأخذت تسرد على أعصابي المقومات الروحية لهذا الكومبارس

الموهوب.. وأنا أبتسم لها وقد عَقدتُ صفقة جديدة مع شيطاني وأنهيت حديثنا بمباركة هذه الزيجة المتكافئة جدًّا!!! والتي قلما تتكرر غاياتها في الوجود بل ودعمتُ شعورها نحوه بالحب الذي لا يمتثل إلا لليلى العامرية وابن شداد.

في المساء استدعيت أحد قَرنَي الشيطان.. رامز الذي لا ينفك عن إغاثتي والنزول بِسُمي إلى أرض الميدان.

وتمت الصفقة بتزوير توكيل عام رسمي من أمي إليَّ بكل ممتلكاتنا التي كانت قد قَيَدَتها باسمها بتوكيل رسمي عام من أبي.. وللحق فإن المزور كان محترفًا.. ثَبَتَت براءته من قضيتي تزوير بحيل لا تخطر ببال إبليس.. وقَبض رامز وصديقه المبدع الثمن بينما سَجلتُ كل شيء باسمي.. وصار الكل في حوزتي بضربة واحدة.. وتركت ليلى العامرية تستمتع بحب مجنونها وبقصائده الغناء التي انفكت عن صدام مروع بعد أن حاول بيع حصة من الشركة له وأنا أتابعه تحت مجهر ضوئي.. ثم باغتُّه أن أمي قد باعت لي كل شيء بتوكيل عام رسمي.. جُن جنونه وحاول إثارة الفتن بيني وبينها وذلك بعد شهرين فقط من زواجهما في مواجهة قاتلة بين ثلاثتنا.. كانت أمي فيها كطفلة تتعلم المشي للتو فبَترت شاحنة قدميها على الفور

لم تستطع تحمل الصدمة بين زوج ندل متسلق وضيع.. وابن يجردها من كل شيء مستغلًا عجزها وشيخوختها.. فأصيبت بانهيار عصبي وجلطة في

المخ ألزمتها أيضًا الكرسي ذا العجلات تمامًا كما فعلت بأبي ذاك الرجل الطيب الذي قدم لها ماء عينيه فقتلته بلا رحمة.. ولا أستطيع أن أنسى كلماتها لي وهي تصرخ بعد أن طلقها الملعون وخرج

- إنت بتسرقني يا راغب؟! يعني حرامي ومزور.. بتضربني في ضهري؟!!

وبكل ثبات ووقاحة لم أهتز لدمعة منها وهي تمسك بذراعيَّ بمنتهى الوهن وأنا أدفعها

- إنتِ اللي بتسرقينا.. عايزة تدبجي أبويا مرتين على حياة عينه.. بتقلعينا هدومنا ولحمنا عشان تشتري كلب قذر.. بترشي وجوده جنبك الكام يوم اللي فاضلين لك.. إنتِ ست جاحدة.. ولو كنتِ بتعتبري اللي عملته.. طعنة ليكِ زي ما بتقولي فلازم تعرفي إن دا عدل ربنا فيكِ بعد كل اللي عمليته ولسَّا بتعمليه.. هو انت بتصدقي نفسك كدا ليه؟ واندمجتي في الدور قوي كدا ليه؟! وإنك وردة مفتحة والواد واقع يا قلب أمه في غرامك وهيحكي ويتحاكى عن القطة الشركسية اللي خطفت قلبه... فوقي.. إنتِ بقيتِ لعنة.. أنا ما رضيتش أحجر عليكِ عشان سمعة العيلة وتاريخ أبويا وشكلنا وشكلك اللي بقى مخزي قدام الكل.. فوقي.

وسقطت أمي مغشيًّا عليها..

في الشهر الثاني لزواجي.. دعانا حاتم وإنجي على العشاء في منزلهم الجديد بالدقي.. لم أتردد.. اصطحبتُ زوجتي على الفور واشترينا هدية منزلية ثمينة ولبينا الدعوة.. لم تكن رغبتي أن أرى إنجي التي رأيتها عدة مرات بعد زواجها أثناء التحضير لعمل جديد.. لكني فقط أردت أن أكتشف إنجي الزوجة.. كاد الفضول يقتلني كي أكتشفها في بيت الزوجية ولترى سعادتي وشوقي بربة الصون والعفاف حرمنا المصون.. ولم تذهلني المفاجأة.. كما توقعتها.. إنها الأميرة على عرش هذا البيت الملكي.. لديها خادمة وطباخ.. فقط هي تشير بإصبعها ليخدمها الجميع.. إنها وجدت هنا لتلبية النداء الحميمي لهذا الرجل وحسب.. وكانت كل خلجاتها تشير لي بالانتصار وتدعوني لبركان لا يَخمد من الغيرة.. وبدت لي إنجي في ثوب جديد لا أفهمه.. وحاتم يُفرط في دلالها بشكل مستفز ومُربك لي.. لم أستطع أن أتجنب التهامها بعينيَّ بصورة لافتة للانتباه.. فسألَت هديل كأنها تسألني أنا...

- ها.. الجواز حلو بقى يا هديل؟

هديل التي لا تحمل ذرة شك في أي شيء .. تمنحها الإجابة كطفلة تسأل عن الذهاب إلى مدرستها لأول مرة..

- ما فيش أجمل فعلًا من إن الست تتجوز الراجل اللي بتحبه.. حقيقي الحب دا هو الحياة.. أنا ما اقدرش أتحمل حياتي من غير راغب.. ما اقدرش

أتخيل نفسي متجوزة راجل ما باحبهوش.. الجواز مسؤولية ومحتاج لحب يدوب كل شيء صعب بيمر فيه

ماذا تقصد زوجتي بكلامها.. هل هي بريئة إلى هذا الحد أم إنه الخوف الذي يَدُب في أوصالها من أن تُعلِن هزيمتها بعد كل هذه السنوات من التحدي واحتواء السراب

أجابتها الأميرة وهي ترسل لي رسائلًا كالسهام..

- معاكِ حق يا هديل.. الحب دا بيدوب كل المشاكل وأي إحساس صعب بيمر بين اتنين.. أصل أنا وحاتم وانتِ وراغب قصة غير كل القصص اللي حوالينا وبنسمع عنها..

تلقفني بابتسامة شريرة أفهمها وحدي ثم تواصل..

- إحنا نُدرس يا بنتي..

أخذ حاتم يُداعب خصلات شعرها ويقبل يدها..

- إنجي مش مراتي.. دي أنا.. وأنا يعني هي.. وهي يعني الحياة.

يقبل يدها مرة أخرى بينما تَطرف عينيها نحو عيني وأنا صامد صامت أبتسم لا أكثر وهديل تملؤها غصة تخفيها في انفراجة مقتولة على شفتيها.. كامرأة عرفت للتو أنها أصبحت أرملة

ترفع الأخرى وجهها وتقدم لي الشاي والكعك

- إيه يا راغب شكلك مش رومانسي خالص.. إيه يا سيدي ما بتعرفش تدلع مراتك ولا إيه؟

أوشكتُ أن أُغمِض جِفنيَّ وأَلفظ الزمان والمكان وأَنقَض على الأنثى الطفلة ثم تماسكت كإعصار امتنع عن إغراق الجميع في اللحظة الأخيرة.. وجذبت زوجتي نحوي أقبل رأسها وأستميلها على كتفي في مشهد تمثيلي لا أجيد إخراجه

- طب اسألها.. هو حد بيحبها ويدلعها قدي.. دي نور عيني.. أمي وحبيبتي

أطلقَت الخبيثة ضحكة أخبث وهي تنفي تأكيدًا

- آه.. أنا قلت كدا برضه.. بس تلاقيكم بتتكسفوا تعبروا

عندما انصرفنا لم تُبدِ هديل أي شعور بالدهشة على الإطلاق.. واستمرت في إتقان دور المُعلبة العمياء المُطيعة.. وأنا على الضفة الأخرى تغمرني بعض السعادة.. فلقد أيقنتُ أن إنجي تدرك تمامًا كم أحبها لكني لا أعرف ما الذي تريده تحديدًا من استفزازي.. بالطبع تحب زوجها ولكن على ما يبدو أن دور الأميرة المطبوع فيها جَبلها على حب التملك

في المنزل كنتُ تقريبًا فاقدًا للشعور بكل شيء.. خاصة هديل وما إن توجهتُ لتبديل ملابسي حتى التفتَت إليَّ بشيء من العفوية بعد إبدائها التمنيات الطيبة للصديقين..

- الحقيقة حاتم دا ابن حلال قوي.. وفعلًا إنجي لو كانت لفت الدنيا بحالها ما كانتش هتلاقي أحسن منه

كان ظهري باتجاهها والكلمة جعلتني أستدير نحوها بقوة

- هو ابن حلال بس انا ما احبش الراجل اللي طول الوقت بيحب على نفسه كدا خصوصًا إنه ظابط يعني.

تُمشِط شَعرها أمام المرآة

- وهو الظابط ما بيعرفش يحب.. دا حاتم دا أجمل حاجة فيه حُبه لإنجي بالطريقة دي.. ما بيهموش إنه يقول دا ويعبر عنه في أي وقت وبأي شكل وقدام أي حد.. حاتم دا.....

وأطرقَت تَصفُ حاتم وإعجابها بحبه لإنجي.. وأنا أعرف أنها لا ترمي إلى شخصه ولا لإغاظتي.. فلم تكن من هذا النوع من النساء.. لكن حقدي عليه وغيرتي الصفراء من إعجاب الجميع به ورغبتي الخالصة في الانتقام منه سرعان ما تمثلت أمامي كقطار أهوج.. لم أشعر إلا ويدي تهوي صفعًا على وجه هديل ثم أمسكتُ برقبتها أكاد أجتث حنجرتها

- لو قلتِ الكلام دا تاني مرة قدامي.. هاقتلك.

جَحَظَت عيناها كأنهما مصلوبتان وهي تُومئ برأسها سمعًا وطاعة ثم خرجَت من الغرفة مسرعة كيتيم فقد أبويه معًا.. وأنا لم أهتز لِما فعلت وأَطبقتُ بيدي على زجاجة عطرها أشطرها ألفا.

استيقظت في الواحدة ظهرًا في اليوم التالي ودخلْتُ إلى المطبخ أُعِدُ فنجانًا من القهوة وأنا لا أتذكر ما فعلته بهديل.. لا أذكر سوى إنجي التي دقت بيدها ساعة الصفر للانتقام منها.. كنتُ شاردًا إلى الحد الذي لم أشعر فيه أني على الأرض.. حتى فَزِعتُ ليد هديل التي عادت لتوها من الخارج تمسك بكتفيَّ بكل حنان.. التفتُّ لها وملامحي كقطعة من الصخر.. أخذَت ترمقُني بامتنان كالقمر في ليلة باردة ثم رمتني بالخبر كالصاعقة

- أنا حامل!!

كنتُ أدرك تمامًا أن الزواج يعني المسؤولية والأولاد.. لكني البتة لم أتهيأ لهذه الفكرة.. لم أعترضها لكنها أبدًا لم تمر بخاطري...الأولاد؟!

لم أهَب الإنجاب.. لم أكن أفكر فيما سيقدمه لي الله في ذُريتي بل لم يكن الله كمنتقم يجول بروحي على الإطلاق.. لم أَجنَح يومًا لمشاعر البنوة والأبوة ولا أذكر أني داعبت طفلًا في أي مكان أو مناسبة وكأنهم مخلوقات ليس لها وجود على الأرض.. الآن أفكر.. لماذا لم يجذبني يومًا وجه طفلٍ أو نقائه.. ربما لأنهم أحباب الله وأنا من أعدائه.. أو ربما لأن الشياطين لا تبحث عن الملائكة.

وقع عليَّ الخبر كما لو كنتُ أسمع عن أخبار الطقس اليوم.. لا لون له ولا معنًى.. ربما لو كانت ناولتني خبر لقائها بجارتنا في المصعد لكنتُ اكترثت أكثر.. وسرعان ما امتقع وجهها الحزين فصار أكثر قتامة وحزنًا..

هنأتها بكل صقيع العالم كأن الأمر لا يتعلق بي

- مبروك..

تحاول أن تمزق أغلال الليلة الماضية

- انت مش مبسوط إنك هتكون أب؟

عمدت إلى الخروج من المطبخ ملتفتًا لها

- ما تعمليش حسابي في الغدا.. أنا عندي قعدة شغل مهمة النهار دا

اقتربت مني تحاول اكتساب رضاي وأنا الذي آلمتها بالأمس.. يبدو أنها لا تَقنع أن هذا هو أنا بالفعل بالأمس ومنذ سنوات.. وتَزعُم لقلبها أني غاضب منها لتُصالحني.. اقتربت مني تقبل رأسي كما لم تفعل أمي منذ وُلِدْتُ.

- حقك عليَّ يا حبيبي.. أنا باحبك قوي يا راغب وما احبكش تكون زعلان مني.. اللي بينْنَا أكبر من كدا.

ترى لو كانت إنجي مكانها فماذا كانت ستفعل؟... على الأرجح أني لم أكن لأفعل ذلك أو أني كنت سأقتل نفسي وأنا أقبل قدميها لأنال شرف رضاها.. تلك هي الحياة لا تمنحنا أبدًا ما نريد و تهبنا مالا نريد!!

وعلى هذا النحو صرتُ أكثر سُخفًا وحقارة مع هديل يومًا بعد يوم.. حتى أني في علاقتي الحميمة معها صرت في غاية الحيوانية لا أعبأ بأي من مشاعرها كامرأة عاشقة وزوجة مُلهِمة.. كنت أتعمد إهانتها وعقابها لأني لا أحبها.. أو فقط.. لأنها تحبني بإصرار.. فلم أكن أُقبلها وأُعانقها أو أتناول معها أيًّا من

مقدمات الجماع بين الزوجين كما أمر الله وكما تفرض الإنسانية وأخلاق التفاعل بين الشريكين.. كان يعنيني جدًّا أن تفهم ذلك حتى تشعر بأن بقاءها وحيدة كوردة في صحراء أكرم لها وأعز من لمسة يدي المُذلة.. وكلما اقتربَت من شفتيَّ تُقبلني أشحتُ بوجهي عنها وأَشعرتُها باشمئزازي كأنها تُقدم لي قيئها.. وكلما لَفَّت ذراعها حولي أمسكت بهما أُقصِيهما ولطالما لَمحتُها تخفي دموعها أثناء معاشرتي لها.. في محاولاتها المستميتة أن تتقن دور المُنتشية الولهانة.. لم يَعنِنِي ما تَشعر به.. فأنا أحصل على ما أريد.. أرادت هي أم لا..

وأَخفَت عن أهلها وأصدقائها وحتى عني إحساسها المُر بأنها تتهشم.. ولم أتوقف أنا لوهلة أمام جمال تلك المرأة على كل الأصعدة.. ورغم كل ذلك كانت طبيبة ناجحة.. تذهب إليها كل قريباتنا ومعارفنا وكانت تمنح من وقتها الخاص لعلاج بعض الحالات الحرجة دون مقابل.. وتزور أمي التي خَلفْتُها كالفتات على كرسي مطموس الهوية.. وتخدمها بينما كنت أزورها أنا بعد إلحاح جم من إخوتي وكل فترة طويلة.

لابد أنني لم أكن من صنف البشر كي أفقد الإحساس إلى هذا الحد المُجحف.

ذات صباح رن جرس هاتفي المحمول.. إنها مريم.. ماذا تريد؟.. ولماذا تتصل بي الآن؟.. لم أُجب فعاودت الاتصال حتى اضطررت أن أرد.. وجاءني صوتها الدَنِس.

- يعني ما فكرتش تسأل أنا وِلدت ولا لأ ؟.. ولا حتى تتطمن ابنك جه الدنيا ولا لأ ؟

أمسكتُ بعجلة القيادة بِجُل غَضبي الجامح وتوقفت على جانب الطريق..

- لو اتصلتِ بيَّ تاني يا مريم هتشوفي مني وش عمرك ما شُفتيه أنا ما باخلفش من مومسات.

تخللت أعصابي ضحكتها الساقطة لا يعنيها شيء من تهديدي.

- بس على فكرة شهك.. نسخة منك وصاحبك ولاااا هو هنا.. دا حتى عمله حِتة عقيقة ما حصلتش وعمله شهادات تأمين على الحياة.

قطعتُ المكالمة وأغلقت الهاتف تمامًا.. وأنا أفكر لماذا لم أقتلها هي وابنها؟

وبعد بضعة أشهر من مكالمتها التقينا مصادفة في العين السخنة.. كم هي غريبة تلك الأقدار التي أتت بشاليه سليم بجوار الشاليه الذي اشتريته منذ شهر واحد.. أهي اللعنة التي تلاحقني؟!

كنت أقف في حديقة الشاليه ومعي هديل نتناول الشاي فسمعتُ صوته يناديني.. التفتُّ غير مصدق حتى تأكدت أنه سليم فاقترب مني بحب يعانقني بحرارة.. فنحن لم نلتقِ منذ زواجه بتلك "البلاعة العمومية".. إنها صدفة غير آمنة وغير سعيدة على الإطلاق.. جلس معي نتناول القهوة وأنا أومئ لهديل بالانصراف بعد أن رحبَت به هي الأخرى بحرارة شديدة.. وأخذا يتذكران أيام الطفولة والمراهقة ويجتران ألبوم الذكريات الملون بصور

الصبا والشقاوة.. أعتقد أني لو انتظرتُ خمس دقائق أخرى لتبادلا العناق.. هذا ما كان يَنقُصُني من اثنين مَعتوهين.. ولو كنت انتظرتُ دقيقة أخرى لَجَلَبَ مُصيبته التي اقتناها باقتدار.. حيث كانت تُتابعنا من حديقة الشاليه الخاص بهما وتضحك كالشيطان الأخْنَث..

أخذ يحدثني لساعة كاملة عن مدى سعادته معها ويعدد لي خِلالها الكريمة في الوفاء والإخلاص وحرصها على عمله وماله.. إنه لا يعرف سبيلًا يوفي به شكر الله على نعمة الذرية الطيبة منها!!!..

يتحدث و يضحك بسذاجة أكاد أشك فيها أو أشك في نفسي.

- تخيل بقى إن أكتر حاجة كانت مخوفاني إن الواد يطلع زيي أشقَر وعبيط.. هههه.. بس الحمد لله جت سليمة.. الواد طلع زي الفل.. طب تصدق دا شبه أبويا الله يرحمه بالظبط.. أنا ما كنتش واخد بالي الأول.. بس فاطمة أختي هي اللي لفتت نظري.. بعد كدا لقيت كل الناس بتقول لي الملحوظة دي.. بس حركاته كلها أنا.. بيفكرني بنفسي جدًّا وأنا صغير.

أكاد أُجن.. لقد انقرض هذا الصنف من الرجال مع العنقاء والديناصورات.. يا الله كيف أتقنَت دورها إلى هذا الحد .. مما لا شك فيه أن غبيًّا مثله يستحق هذا المصير المُحنك الذي يليق به تمامًا.

سألته وأنا أقبض على يدي مَخافة أن ألكمه في لحمه الذي تَأكدتُ أنه لا يتأثر لشيء.

- يا سليم ابنك ما كملش سنتين.. هو انت فاكر نفسك وانت أقل من سنتين؟!

يضحك بغباء صادق جدًّا

- هههههه لا.. أنا باتكلم عني في العموم وأنا صغير.

وقف وجذبني من يدي

- تعالى.. تعالى أوريهولك.. تعالى دا مريم هتفرح قوي اما تشوفك

ذهبْتُ معه وأنا آخذُ قراراً ببيع الشاليه صباح اليوم التالي.. ووجدتُ نفسي وجهًا لوجه معها.. تُصافحني بانتصار عظيم.. في حين تحرق رائحتها العَفنة أعصابي المتلفة.

- أهلًا.. أهلًا.. مش معقولة.. أخيرًا شُفناك يا راغب.. إيه الصدفة الحلوة دي؟ شفت بقى الدنيا صغيرة قوي ازاي؟

أحاول السيطرة على انفعالاتي.

- طبعًا.. أُومال إيه.. صغيرة قوي لدرجة إن مُمكن تحصل لك حاجات عُمرِك ما تتوقعها أبدًا.. وتشوفي ناس عُمرِك ما كنتِ تتخيلي تشوفيهم.

قطعَت حوارنا واتجهَت للولد الذي كان يلعب في زاوية حديقتهم وحَمَلَته وهرولت نحوي..

- شُفت أيمن.. قمررر.. بس إيه رأيك شبه مين بقى؟

شعرت برئتي تحترقان.. أكاد أفقد صوابي وأنا أحدق في الطفل وكأني أنظر في مرآة .. كيف لم ينتبه هذا المُغفل لذلك الشبه المُتَطابق المُرَكب أنه ابني بلا أدنى ذرة شك.. غير أني لن أعترف بذلك ما حييت وبكل جمود لا تَتَطرق إليه أي هفوة من حنين أو مشاعر أبوة..

لو باستطاعتي لطمست ذلك الجزء الصارخ في ذاكرتي وحقيقتي.. فَلَست بذاك القلب الذي يدركه الحنين والرحمة.. فقط كل ما كان يَشغلني أن لا يُفتضح أمري.. يَجب أن أبقى في عيون الناس ذلك الشريف الذي لا يُخطئ أبدًا.

اضطررت بعد أسبوع واحد من عودتنا.. لعرض الشاليه للبيع.. واشتراه مني أحد أصدقائي النجوم.. ورغبة مني في التَخلُّص من أثر تلك العائلة غريبة الأطوار ولكن يبدو أن لَعنتها أبت إلا أن تُلاحقني طول العمر.. فقد حَانت لحظة ميلاد ابني التوأم في عصر يوم مشؤوم اصطحبْتُ زوجتي فيه إلى المستشفى مهرولًا بها إلى غرفة العمليات.. وبقيتُ لساعة وأكثر أنتظرها وأنا أتخيل شكل الحياة بعد قدوم الطفلين.. وكيف سيتحول قلبي أخيرًا لقلعة من الحب الذي يسمو بروحي التي تقرَحَت شرًّا.. فعاطفة الأبوة هي مصفاة ودواء لكل سموم الوجدان.

وعكفتُ أمشي في ذاك الممر الخاص أمام غرفة العمليات.. وأنا لا أفكر لثانية أن الله قد يَعُد لي أحد أشكال انتقامه الأليم والعادل.. فمن ذا الذي

يَفرُ من بطشِه وهو رب السماء والأرض؟

خرج إليَّ الطبيب..والذي كان أحد زُملاء هديل.. حاملًا الطفلين وأنا أفتح عينيَّ عن آخرهما تتربص بي كل مشاعري.. والطبيب مبتسمًا

- مبروك أستاذ راغب ولد وبنت زي القمر

حدَّقتُ فيهما كأنما أُحدِق في كبد إثمى المضرج بالعذاب.. كاد خفقي يتوقف.. أطبقت جفنيَّ بقوة زلزال لا يُبقي ولا يَذر.. إنه الله.. اللهُ الذي لا يَغفل أبدًا ولا ينام.. الطفلين من أعداء الشمس.. مادت بي الأرض تحت قدمي إنه عدل الله الذي جعل ابني في كَنف سليم الذي طالما أَجهَدْتُ خِلقَته سُخرية منذ الطفولة وطعنت شرفه بلا رحمة.. ورَميتُ له بقِطعة مني أَحَاطَتها لَعنة الأقَدار والسِفاح.. ليبتليني الجَبَّار ليس بطفل بل باثنين من ذكر وأنثى نسخة عن ذلك الرجل الطيب الذي كان كل جرمه في الحياة أنه ولِد بخلقة لا جريرة له فيها.

كَرِهْتُ الطفلين منذ اللحظة الأولى.. لم أعِ رسالة الله لي.. بل لقد مدني الله ببحرٍ لا ينفد من الغل الأسود والتمرُد على قضائه ورفض إرادته سبحانه.. وابتلاني بعدم الرضا الذي أخذ يتمدد على كياني حتى صار أعظم منه أضعافًا مُضاعفة.. وكأنما أراد سبحانه أن يزيد من ذنوبي ولا تتسع نقطة في حياتي إلا لغضبه الأليم عليَّ.

أما هديل ففرحت بهما أيما فرحة.. وبما أنها طبيبة فضلًا عن كونها أم فقد تفهمت حالتهما على أكمل وجه.. لم تكن لهما مجرد أم.. بل وطنًا من الأمومة.. كانت تعتبر هذا الابتلاء موجهًا لها.. لِتُثبِتَ للعالم أنها لن تنكسر.. لا بزوج جاحد حقير ولا بأطفال مبتلين.. لاسيما أنها أدركَت منذ اللحظة الأولى خروقي على كل مشاعر الفطرة والأبوة والإنسانية.. بل لقد ازددتُ اشمئزازًا ونفورًا منها وكأنها اللعنة الوحيدة لهذه الحياة وسبب كل كوارث الأرض.. فقد أصدَرْتُ فرمانًا بأن لا تنام معي في غرفة واحدة بهذين الطفلين..

كنتُ لا أُطِيقُ النظر إليهما نِهائيًّا.. ولم أَحتفل بهما بل لم أعترف بهما إلا على الأوراق الرسمية.. اختارَت لهما اسميهما.. فأطلقَت على الولد اسم قمر وعلى البنت شمس..

ها لقد صار في بيتي الشمس والقمر.. مَلِكٌ أنا.. كنتُ أقولها لنفسي وأضحك ساخرًا من تلك الفانتازيا التي أتورطُ فيها شهيقًا وزفيرًا.

بعد فترة قصيرة عرفت أن عَمة هديل المُتَوفَاة منذ عشرين عامًا كانت تحمل نفس الجين لمرض "الألبينو".. ولو كنت أعلم.. بالطبع ما كنت تزوجتها وكان هذا كافيًا لأتخلص منها بآخر يدي.. ولكن من الآن وصاعدًا سيكون هذا وحده كل الدوافع لأن أجلدها وأمحقها بجرعة كملح المُحيط من الشقاء

والعذاب المر الأمْهَق كولديها اللذَين فَرَضَتهما عليَّ بجينات عائلتها التي زَحفت لذريتي.

وهكذا بدأت نفسي تتبجح مع الله شيئًا فشيئًا وأسأل نفسي.. ماذا يريدُ الله مني؟ ولماذا يفعل بي تلك الأشياء الغريبة؟ كنت أتساءل وأخاله سيجيبني.. وكأني يومًا لم أؤذِ بعوضة.. فقد استيقظت صباح أحد الأيام بين جُدران هذا المنزل المُضَفر في لونه الباهت البارد.. أقف في "الفرندة" متأملًا هذا الامتداد العظيم المسمى بالأفق تتجول عيناي بين المارة والسيارات.. لا شيء يُعجبني ولا شيء يُرضيني أو يملأ نفسي..

أطبقت جفني بقوة كجبلين يَصطَكَّان.. وأنا أمسك بسور "الفرندة".. اخترقني صوت عصفورين جَلبَتهما ربة الصون والعفاف الطبيبة المُعلبة.. وسَوَّرَتهُما بقفص جميل وتطعمهما كل يوم كما تُطعم طفلي (الألبينو).. التففتُ إليهما أرمقهما بتساؤلات كتلك التساؤلاك التي يطرحها الوجوديون.. من أنتما؟.. وماذا تفعلان في بيتي.. وما كل هذه المثالية فيكما لِيَنظُمها الشعراء والسماء والضمير.. أكره كل هذا الادعاء.. فما من أحد مثالي وما من أحد بلا خطيئة وما من رمز لأي شيء..

وتسربت علامات الاستفهام تغزو كل مساحات المنطق لدي.. وبينما أنا كذلك كان العصفوران يلقيان على بعضهما تحية حب وأُلفَة ورفق لم تعتدها عينيَّ..

فتحتُ القفص ومددت يدي إلى أحدِهما كي أطلقه لأترك الآخر وحيدًا يُغرد ألمَه.. ولخمس دقائق أو أكثر وأنا أفحصه كطبيب بيطري وصوته يتلو في أذني أغنية البراءة والحرية.. وبتبلد تام أَطبَقْتُ عليه بكل قوتي.. أتأمل كيف يموت الامتداد والجناحان.. والوئام.. مات وعيناه تستقبلان وجه وليِفه الذي أخذ يدور كالمجنون في مَحبسه يُطلق صيحات انكساره.. فتحتُ القفص وتركته أمامه بلا أدنى شفقة وهو فاقد الظل تَخفِقُ رايته وتتمزق كجثة بلا هوية.. ذلك اليوم بكت هديل كما لم تبكِ لفراق أبيها.. إنها لا تعلم كيف ولماذا مات.. لكن حَدسها كان يطالني بأني القاتل ولم يمضِ أسبوع حتى مات الآخر.

الآن لا أعرف لماذا تُوجِعني تلك القصة بهذا الشكل المخيف؟ !!!

واستمر جبروتي وتوسعت دائرة دَمامتي.. غَذَيت غولي بألف امرأة ولم يشبع.. كنت أنتقى الطيبات بلا شك والعفيفات.. فأنا أعرف كيف أُمعن فيهن الطعن.. ولم أترك امرأة في عينيها البراءة والانكسار إلا وجعلت منها ملحمة لا تنام.. بعضهن كن يلاحقنني فينالهن سهمٌ مُميتٌ يُخرسهن للأبد.. وبعضهن يفر لآخر مدًى خوفًا من بطشي الذي لا يَرحم..

كان يُمتعني إلى حَد التَجَشؤ أن أنزع ستر البيوت الآمنة والسعيدة.. يَقُضُّ مضجعي بيت مضاء بأطفال مطمئنين.. خاصة هؤلاء المتفوقين الرائعين.. إلى أي حد كان شري كخلية سرطانية تتوغل حد الهواء الذي أتنفسه..

إن زوجةً كانت تتحول عن صومعتها كان أعظم الإنجازات لديَّ.. ولا أدري لماذا كنت أنتشي لذلك؟.. لماذا كان يُوجعني حب امرأة نقية لزوجها؟.. رغم حب زوجتي الطاهرة الرفيع لي.. وكان يَقتلع خَلجات روحي حب رجل لزوجته وهذا تحديدًا كان يحرمني النوم لأيام وربما لشهور.. تَعصرني فكرة وفاء رجل لشريكته.. ربما لأني لم أكن أحب زوجتي ولم أستشعر أركان بيتي الذي كان ينساب نقاءً كشلال ورد.. لكن بصيرتي العمياء لا ترى إلا العتمة التي يخرج منها عناكب الظلم.

والآن أعرف كم هو موجع بَطش الله من الظالمين.. حين حاولت أن أغرر ب (دميانا) زوجة (موريس) صديقي أيضًا منذ الطفولة.. لكنها تعففت.. كان حبها له يكتظ بأخلاق العهد والحب رغم انقطاعه عن معاشرتها معاشرة الأزواج لعدة سنوات لمرضه بالقلب.. كما روى لي عن تفاصيل حبهما الذي يُكتب في الأساطير.. كانت ابنتهما الوحيدة مصابة بمرض نادر في النخاع يحتاج لعلاج شهري باهظ أو سفرها للخارج لإجراء جراحة دقيقة.. وقَدم كل المساعي لحل الأزمة لكن زِمام الأمور قد فَلت منه وقد باعا كل ما يملكان لعلاجها..

لم أكتفِ أنا بما أهداهما القدر من آلام فوق احتمال البشر.. وبكاء أرواحهما أطراف الليل وأطراف النهار.. كل ما كان يَعنيني تمسكه بزوجته وحبه لها ووفائها له.

كان موريس يعمل مستشارًا ماليًّا لأحد شركات المقاولات الكبرى وكان محل ثقة لا حدود لها من صاحب الشركة وكان موضع سره.. كان يضع في أمانته عهدة الشركة وإنهاء الصفقات الكبيرة.. حكى لي كيف كان يحترمه هذا الرجل ويعتبر وفاءه قيمة مُقدسة.

أخذتُ أفكر ليالٍ طويلة.. كيف أقضي على هذا البيت الآمن بالحب.. المُكلل بِنَصل المرض.. ثم.. نفذت مخططي البسيط الذي لم يكن أكثر من بضع كلمات ألقيت بها في أُذن سريرته بكل عزمي وقوة شري.. أن يأخذَ من مال العُهدة التي معه دون أن يَشعر أحد لإجراء جراحة ابنته.. فالوقت لم يعد في صالح الطفلة وقد وعدته الكنيسة بجمع المبلغ المطلوب خلال شهر بينما تتأخر حالة ابنته يومًا بعد يوم..

ناورني واستعصم وهو يحاول الاحتماء بعفته وأنه لا يرغب حتى في مساعدة الكنيسة له.. فأوحيت له أن يأخذ حاجته من مال العهدة لإنقاذ الموقف ثم إيداعها كما كانت عندما تصله مساعدة أهل الخير على وعد مني له بأن أساهم في ذلك فور انتهائي من عَمل أُنجزه رغم قُدرتي المالية.. ضَللته وأخذت أزين له عمله وأنه مضطر والله يعلم بحاله ومقصده فهو ليس بسارق إنما هو مضطر وسيعيد الأمور إلى نصابها.

كان يرفض لكني كنت على يقين بأنه سيفعل ولقد فعل في الوقت الذي كان فيه صاحب الشركة خارج البلاد في مهمة عمل.. فأعد موريس العدة سريعًا

للسفر وأنهى إجراءاته وبعد سفره بابنته وزوجته بيومين قمت أنا بإبلاغ صاحب الشركة على طريقتي المعهودة.. فقام بإبلاغ النيابة ليتم إيقاف المسكين في مطار القاهرة فور وصوله وسط فضيحة مدوية كادت تفتك بزوجته وابنته المريضة وأنا أزعم تعاطفًا كاذبًا وحزنًا دفينًا.. وأكثر ما أثار حَنقي وحقدي هو دفاع (دميانا) عنه باستماتة رغم اعترافه الكامل وتأكدها بأنه اختلس أموال الشركة.. كان صوتها يشتت فرحتي بما حققته.

- موريس مش ممكن يعمل كدا.. جوزي وحبيبي.. أنا عارفاه.. وحتى لو عمل برضه هيفضل أشرف راجل في الدنيا في عيني.. طول عمره رمز الأمانة والشرف.

كلماتها كانت آيات الحب في وجه شيطان الضغينة.. كلما تكَلمَت أحسست نارًا تلتهم روحي.. لماذا منح الله بعض عباده تلك القدرة على الحب؟.. ولماذا لم يمنحني بعضه؟.. لماذا حرمني نعمة الإنسانية؟.. إن الحب أعظم آيات خلقه سبحانه.. إنه مفتاح الله فينا.. يدُ حنانه التي تمنع غضبه وتحول بين المرء وذله وشيطانه.

أُصيب (موريس) بذبحة صدرية وتم إيداعه العناية المركزة وقد عفا عنه صاحب الشركة بكل إنسانية وبكى لحاله في الوقت الذي فارقت روح موريس الشفيفة صدره الرحيب.. ليترك ابنة مريضة وزوجة أرملة جميلة في شبابها الأخاذ.. كان مُجرد ظله على الأرض هو كل ثروتها في هذا العالم

المُقفر المُوحش.. جَلسَت في عزائه كَزُنبُقة وحيدة ذابلة وسط صحراء لا قرار لها.. وأنا كالعادة أُقبل قتيلي وأَتبرَّك بجنازته.. وسط كم من البشر كان كل منهم يُلقي في نفسي مواقف موريس التي تحفر في أثره أجمل معاني الترفع والشرف والنقاء.

تُرى ماذا سيقول الناس عني في عزائي؟.. كيف ستكون عينا هديل وما الذي ستحمله ضلوع أولادي وذاكراتهما؟!

كنت أهرب كَفَأرٍ من معركة كلما طل على زجاج مخيلتي أيٌّ من تلك الأسئلة.. كنتُ أعرف أن كل ما يمكنه أن يلحق بموتي خبر يتصدر الصحف.. مجرد مانشيتات تعبر بي إلى جثمان شيطاني الأعظم.

مروع لآخر مدًى أن لا يترك قلبٌ ما أثرًا طيبًا على جدران هذه الحياة.

استيقظت ليومٍ لم يَعرف الشمس.. ولم يتعرف على يدها الدافئة بعد نوم عميق لا أعرف كيف داهمني.. دخلت إلى الحمام لأمارس طقوس يومي المعتادة وقفت أمام المرآة أَجذب معجون الحلاقة والماكينة.. فتحتُ صُنوبر المياه.. رَفعتُ وجهي و رَأيتُه يَطل أمامي بصُورته كما هو.. يبتسم في مكر.. وشعرت بأقدامي تَنغُز الأرض من تحتي.. شيطاني الذي يبدو أنه قرر المثول بمحاذاتي لأراه.. كأنها مكافأة على بلوغي أسمى تبريكاته.. يمنحنى تاج الولاية برؤيته.. أغمضتُ عينيَّ خافضًا وجهي ثم عاودت النظر في المرآة.. هو.. هو.. يخترق آخر حاجز بيني وبين صوتي ونفسي وآخر أمل في قطرة إيمان تُغيث

قلبي.. عاودتُ إغماض عيني حتى نسيت كل مفاتيح الاستعاذة.. بل قد نسيتُ الله.. كأني لم أعرفه.. فتحتُها كرة ثالثة لم أجده.. هرولت خارج الحمام.. لا أعرف كيف ارتديت ملابسي بسرعة البرق.. لم أنتظر المصعد ابتلعتُ السلالم كلها دفعة واحدة في خطوة واحدة لا أدري أيها السلم وأيها قدمي.. استقللتُ سيارتي متجهًا لمكان تصوير فيلمي الجديد لكني قلبي كاد يتوقف وأنا لا أدرك مِن أي طريق أمر به أو يمر بي.. وقفت في جانب الطريق ألتقط أنفاسي وأنا أشعر بحرارة السيارة كأنها قابلة للاشتعال.. أستشعِر وجوده بها.. وحُنجرتي تكاد تُطبق عليَّ..

كان هاتفي المحمول على الكرسي المقابل لي.. جذبته بيدين مرتعشتين.. وفَتحت زجاج السيارة لأتنفس.. وفَتحت الهاتف أقلب في أخبار الصباح عَلِّي أهرب لشيء يشتت ذُعري.. كان أول خبر يطل علي.. انتحار صاحب شركات أفروديت للسياحة بطلقة من مسدسه في حي المعادي.. صورة سليم مرفقة بالخبر..

مات سليم منتحرًا.. مات سليم الذي كفل قطعة مني مُستقبلًا خِنجري بكل حب العالم وسكينته.. بصحبة أم وزوجة عاهرة.. أنهى حياته المُلَفقة في كأسٍ من الزيف شربه حتى آخر قطرة بكل الود والاستسلام.. مات النهر الكريم وانتحر ماؤه الرقراق.

اتصلتُ بالعاهرة من فوري وقد والاني صوتها ببكاء مُفتعل وهي تُخبرني أنها قرب المشرحة فقد انتحر إثرَ سماعه لمحادثة تليفونية بينها وبين صديقتها الجزائرية عَرف فيها أن أيمن ابني.. وعَرف تفاصيل القصة بالكامل فَاستل مسدسه أمامها وهي تظن أنه سَيقتُلها لكنه دَفَعها بقوة القهر ونار الظلم وأطلق الرصاصة في صدره لِيَخر صريع الغدر والخيانة.. وتدعي الخسيسة حزنًا لا يعرف قلبها على هذا الطيب.. وورِثَت ثروة طائلة من خَلف رجل لا يُهال على روحه كل تُراب الأرض ولا يَستر وجعه كفن ولا لحد.

حاولتُ أن أستجمع كل خستي لحضور عزاء سليم.. كي يبدو المشهد طبيعيًا.. كموتِ ظل في أرض الظلام أو تَنحي الشمس في بيت الأفول آخر كل يوم.

جَرّتني قدماي وحَمَلني شيطاني كما يُحْمَل المُلوك على الأعناق.. وأنا أتَصدر عزاء كافِل ابني.. ولا أحد يعرف سبب الانتحار الذي كان لغزًا حير كل من يعرفوه لوقت غير معلوم.

كان حاتم في مواجهة الصوان يقف كنخلة اقتلعتها ريح الخوف.. عانقني إلى الحد الذي شَعرتُ فيه بامتزاج صدرينا.. يُخبئ ملامحه الوديعة فيَّ.. وبصوت مُتحشرج يخرج من بين هالات الحزن الأليم نظر في عينيَّ تَنسابُ دموعه محيطًا من الفزع كقمرٍ فُقِأَت عينه.. لا يأويه طريق.. فاقدٍ أحد أجزائه.

- سليم.. سليم يا راغب.. سليم مات.. مات أحن واحد في الكون وأطيب قلب.. ضرب قلبه بالرصاص.. قلبه اللي ما عرفش غير الحب والنور.. مات.. مات.

ارتعدت أوصالي وانتفَضْتُ كأني ورقة سِدر ميتة في محاولة صحو.. لم أرد عليه ولم يسعني أن أَسْتَحضِر أي لغة تَلُف هذا المشهد العاصف غير أني عاودت عناق حاتم بكل دمي الكافر لتقع عينيَّ على أيمن ابني الذي غدا يتيمًا مرتين في أبشع أنواع اليتم ضَراوة في قواميس الفقد..

أيمن البريء الذي يَحمل وجهي بين طِيات ملامحه لكن صدره يَحمل قلب سليم بين حناياه.. قلب بلون النهار المفجع الذي تركه فيه فريسة لمصيره.. ماذا لو كانت أمه التي رَحَلت أو أنا؟؟..

ألم يَكُن هذا ما أريده؟.. أن أَلدَغ الحياة في وريد سليم الذي طالما زَعمْتُ أن لحمه لا يتأثر بشيء.. يااااا الله... لقد تأثر لحمه حتى أَقام مأتمًا في كل شيء.

أَخذتُ أدوُر في مكاني وأنا بِمُحاذاة حاتم.. لأجد إنجي تتقدم نحوه تَذرفُ وجعها وتحتضن حاتم بكل الحب وتمسح على رأسه بأمومة لا نظير لها.. وترفع دُموعه بين كفيها.. هذا المشهد كان كافيًا ليقطَع على رأسي المحشو بهيبة الموقف كل طريق.. فَاصلة بين ما أعيشه اللحظة وما سيكون.. اعتدَلتُ وانتَصَبَ شَري وأنا أردد للحبيبين ترنيمة وَعد بأن اقتربت الساعة.. وأنتم اللاحقون.

في الطائرة المُتجهة إلى جنوب إفريقيا والتى حَملت طاقم العمل لفيلم جديد من إخراجي وبطولة إنجي.. جَلسَت في الكرسي المقابل لي.. نظارتها الشمسية الداكنة لا تُفارق وجهها والصمت المُريب يكسو كل تفاصيلها.. تبدو في عالم آخر.. شاردة لا تسمع أي جملة من أي شخص إلا في إعادتها.. كانت مثار العجب للجميع خاصة بعد أن رفضت كل ما عُرض عليها من أعمال لعامٍ وأكثر بلا أي سبب سوى أنها غير مستعدة للعمل وأنها في فترة راحة.. كاد الفضول يقتلني وأنا أحاول أن أفهم دوافعها الحقيقية.. حَاولْتُ أن أفهم من حاتم الذي تكررت لقاءاتي به كلما كانت تسمح ظروفه العملية وكان في نفس الحال تقريبًا.. غير أني في آخر لقاء به قبل سفري مع إنجي بإسبوع.. ضَغَطْتُ عليه ليتحدَث لأنه لم يعد حاتم الذي أعرفه.. وبعد جُهدٍ جَهيد أطلعني على سِره الذي شرخ جدران بيته وأمانه..

أنا ما باخلفش يا راغب.. ودا اللي حول حياتنا لجحيم.

قالها وطلب مني عدم الحديث في الموضوع لأن تناوله يؤلمه جدًّا وهو يتحايل على النسيان والراحة ولو لبعض الوقت.. وبقي السكوت يلازمنا أنا وهي لاثنتي عشرة ساعة مدة الرحلة لم تفعل فيها شيئًا إلا قراءة رواية (نيكولاس سباركسي) "دفتر الملاحظات "

تقرأ عددًا من الصفحات ثم تُغلق الكتاب وتعاود الشرود والصمت ثم تَقرأ بعد قليل.. حاولتُ أن أفتح حوارًا بيننا فكانت إجاباتها مُقتضبة تُعبر عن

حالتها.. فسألتها عن سبب حالتها تلك التي تبدو عليها وعن فقدان وزنها الملحوظ فأجابتني أنها بمزاج ليس على ما يرام.. ثم تُحاول تَغيير الحديث بجملة قاطعة وتعود للصمت.

لقد حانت فرصتي التي انتظرتها لسنوات.. حاتم عقيم.. فما الذي يدعوها ويَستَجديها للبقاء بصحبة رجل أَبْتَر.. من أجل ماذا؟ ما الميزة التي تَشفع له لتتفوق على أمومتها.. يبدو أن حبهما يَتصدع.. أعرفها لن تتحمل لأكثر من ذلك.. إنها في حالة استدعاء مُلِحة من أمومتها.. حانت اللحظة.. أتتني على طبق من ذهب.

نَزلنا جميعًا بفندقٍ واحد في حَجز مُسبق.. وكانت غرفتها بجوار غرفتي ورغم أننا عَملنا سويًّا ما يقرب من عشرة أفلام إلا أنه لم يجمعنا سفر واحد هكذا.

بدأنا التصوير ولعدة أيام كنتُ أَدعَمها كما لم أدعمها يومًا في بداية مشوارها وكان أداؤها ناجحًا بَحق.. ثَمرةٌ بَلغت أَوجها.

(الحزن سيد الإبداع).. مقولة حُفِرَت في وِجداني سَمتعها من والد إنجي (أكرم رشوان) أثناء كتابته لأروع أفلامه بعد وفاة زوجته التي كان يعشقها بعامٍ واحد.. وكُنتُ أَحَار فيها كثيرًا.. كيف يكون الحزن سيد الإبداع؟!

الألم فعلًا يَصنع عَظمة رُوحك لِتَتخلل كل ما تفعله بتلك اللمسة المرتعشة فَيتحرك أَصعب ما فيك لتَكون من العظماء..

تَأملتُ إنجي التي ولأول مرة أراها تَنْسَلِخ عن الشخصية فور كلمة(stop).. رغم تفوقها على نفسها وعلى الشخصية.. وكان الجميع يُعارضني على بطولتها للفيلم لكني وحدي أَصْرَرتُ أن تكون لها وراهنتُ على نجاحها الذي أَمسَكَت أول خيوطه مع أول مشهد لها.. شخصية الجاسوسة التي اختُطِفَ ابنها وقُويضَت إما الوطن أو ابنها.

بَقيتُ لأيامٍ أُتابعها بعد انتهاء العمل.. تَجلسُ بمفردها تتناول قهوتها وتُدخن نصف علبة السجائر.. إنجي التي لم تُحب التدخين يومًا وتَكره رائحته كما تكره الموت.

اقْتَربتُ منها بحذر وكنت الوحيد الذي تَأنس له حتى ولو بالصمت.. عيناها كانت تلوذ بي.. أحسُها تفكر بحلول لعقدة ما لا تجد لحلها سبيلًا.. دعوتها للتنزه في ساحة "مانديلا" بعيدًا عن الأعين.. لم تَقبل ببداية الأمر.. فلا رغبة لها في الخروج من الفندق الذي لم تَبرحه منذ وصولنا منذ تسعة أيام.. أَقنعتها وألَحَحتُ في طلبي.. فاستجابت.

وهناك سألتني بشكل مباشر.. عن علاقتي بأولادي وماذا لو كانت الحياة بدونها؟.. لم تجد غيري على وجه الأرض لتسأله هذا السؤال!!.. إنه لمن سُخرية القَدر ولكني كعادتي مُزيفٌ مُدعٍ لا تحمل شفتي أبدًا حقيقتي.. وعَرفتُ مَغزى سؤالها.. فَتفضلْتُ عليها وناولتها إجابة تُثير أمومتها باستفزاز وتُشعل فتيل أزمتها العارِمة.

-دول نور عيني يا إنجي.. روحي.. لولاهم ما كانش هيبقى عندي أي دافع للشغل ولا حتى للحياة كلها.. الولاد دول فعلًا هُمَّ الدنيا بما فيها..

زَاغت عيناها في كل اتجاه تَلتقِطُ المعنى.. ثم بدأت دموعها في الحضور سريعًا لا تعرف كيف تَدرأُها ولا تجد حيلة لذلك..

اعتذرت منها اعتذارًا يفتح جرحها..

-أنا آسف.. أنا جاوبت كدا مرة واحدة بغشامة وما انتبهتش.. سامحيني.

ابتسمت بحزن..

-ولا يهمك أكيد طبعًا ما تقصدش

رَبتُّ على كفيها وكأني لا أعرف شيئًا..

-أنا دلوقتي بس عِرفت سبب الحالة اللي انتِ فيها.. يا ترى أنا صح؟

استرسلت دموعها لا تخفيها.. تكاد تَحفر في قلبها أُخْدُودًا..

-إنجي.. أنا أول مرة أشوفك في الحالة دي.. أول مرة.. ليه كدا؟.. اتكلمي من فضلك.. اتكلمي ما تكتميش كدا في نفسك.. كل شيء وله حل

بيأس ووهن..

إ-لا مشكلتي يا راغب.. مشكلتي أنا بالذات ما لهاش حل

تَزَايدت دموعها إلى حدٍّ بدأ يلفت الانتباه.. ثم قَطعَت حديثنا وطلبت مني العودة للفندق لأنها مُتعبة.. فَألحَحتُ عليها أن تَبُثَّني مشكلتها لكنها أصرت على عدم الحديث الآن والعودة بسرعة إلى الفندق.. لَبيتُ مَطلبها.. وعدنا

وصَعدَت سريعًا إلى غرفتها مُعتذرة مني حيث أنها ترغب في النوم والراحة.. أظهَرْتُ تقديري الكامل لذلك وتركتها لثلاث ساعات تُحاول فيها استعادة توازنها ثم اتصلتُ بها للاطمئنان عليها فإذا بها لا تزال تبكي وفي حالة انهيار تام.. أَغلقتُ الهاتف بسرعة وتَوجَهتُ لغرفتها.. طَرقتُ الباب فَفَتَحَت لي والدموع تَتناثر من دمها.. كطفلة ميتة على رصيف الوجع.. أَغلقتُ الباب وابتَلَعتُها بين ذراعيَّ.. يَنْخُر ضعفها في أَخْمَص قوتي.. رَفَعتُ وجهها الذي تَبدد وسط الدموع...

-أنا لازم أعرف دلوقتي حالًا في إيه؟... مش هاسيبك يا إنجي.. أرجوكِ انطقي أنا ما اقدرش أستحمل أشوفك كدا

قُلتها وقد نَسيتُ خُطَة العمر للانتقام منها.. إنها تَدنو من ضعفي وتَمسح بماء عينيها على وجه قلبي المُتْرَف في شَرّه.. تَحْضُرني الآن أغنية "أيظن" (ونَسيتُ حِقدي كله.. مَن قال أَني قَد حَقدتُ عليه) ...

فَتحَت لي جُرحها عن آخره.. وصارحتني بما لم أتوقعه.

-أنا ما باخلفش يا راغب ما باخلفش.

لم أستطع أن أُخفي دَهشتي مما فَجرته أمامي.. إنها عَاقِر!!!! إذن.. ماذا عن تصريح حاتم لي بأنه عقيم؟.. أَكَلتني ألف علامة استفهام وأنا أحاول تهدئتها..

-هو دا اللي مزعلك وعامل فيكِ كدا.. مش يمكن كدا خير.. إنتِ تعلمي ربنا حكمته إيه؟!

بكل ألم العالم صرخت..

-حكمته؟ إيه حكمته إن الراجل الوحيد اللي حبيته في الوجود أكون أنا سبب عذابه وأحرمه من أجمل نعمة في الحياة.. إنه يكون أب.. أنا؟.. أنا أعمل كدا في حاتم.. أنا؟

أكاد أَفقِد عقلي فلماذا أخبرني حاتم بعكس ما تقوله؟!

-إنتِ مَا حرمتيهوش.. دا قَدر وأمر الله.. هنقول له لأ؟

تُواصل بُكاءها وأنا أَمسح على شعرها وسألتها

-هو حاتم متضايق من الموضوع دا؟

-أكيد طبعًا.. بس مش بيبين ولما عِرف قال لي وإيه يعني.. دا أمر الله وأنا مستغنى بيكِ عن الدنيا كلها.. إنتِ بنتي وحبيبتي وكل حياتي.. ولو الولاد مش منك مش عايزهم.. ومِن ساعتها وهو بيحسسني إنه بيحبني أكتر من أي وقت عدا علينا وطبعًا أهله فاهمين إن المشكلة فيه زي ما قال لهم.. بس أنا بقى اللي باتعذب يا راغب مش قادرة أستحمل إحساسي إني باظلمه معايا.. قلت له اتجوز بعدها فِضل مِخاصمني شهر اللي عمره ما كان يقدر على خصامي ساعة.. استغليت فرصة خصامنا وزقيت عليه ست كويسة جدًّا.. مُطلقة وعندها بنت وفيها كل المواصفات اللي تخليه يتجوزها.. بس ما كانش يعرف إن أنا اللي زقاها وقلت له اتجوز عشان أحفزه.. رفض وعاملها أسوأ معاملة وقطع عليها كل الطرق.. قلت له نتطلق اتجنن.. وأنا بقى مش قادرة أتحمل

وجع قلبي دا.. وأنا باشوفه كاتم جواه وهو بيحب الأطفال قوي ويا ما كُنا بنحلم بولادنا يا ما.. يا ما يا راغب.

تحكي وأنا أموت كمدًا.. هل يُحبها أكثر مني؟! ألهذا الحد هو فارس ونبيل.. متى يموت حاتم في عينيها؟... متى تراه حقيرًا؟... متى يَكُف لسانها عن الاحتفاء به في كل موقف وكلمة؟ متى تتوقف عن حبه؟.. حتى أنا لم يُخبرني الحقيقة.. كيف تَصمد كل هذه المعاني في كيانه لِتَمْنَحَه رجولة كاملة؟.. أي صِنف مِن الرجال أنتَ يا حاتم؟

سألتها

-وانتِ عشان كدا عايزة تطلقي؟

-أيوة طبعًا لازم أكون أنبل منه.. بافكر أخلعه.. بس ما اقدرش أكون ندلة معاه وبالطريقة دي كمان.

واصلت بكاءها المر الذي لم يتوقف للحظة.. وضعت رأسها على صدري.. حاولت تهدئتها وهي تُشعل سيجارة تلو الأخرى ومَدرسة إبليس كلها تَحضر في وسواسي.. ثُم قُمتُ مُتجهًا لثلاجة الغرفة لِأُقَدم لها عصيرًا وزجاجة مياه.. وقعت عينيَّ على عُلب البيرة التي لم تَذُقها طيلة عمرها وناولتها واحدة.. شَرِبَتها دون أدنى مقاومة وهي تُخبرني أنها تفعل ذلك منذ فترة بعد مشاكلها مع حاتم ثم طَلَبتُ زجاجة نبيذ وتناولناها سويًا.. إنها لا تفعل ذلك إلا بثقة

كاملة فيَّ... رغم إدراكها التام أني أُكن لها حبًّا يفوق احتمال البشر لكنها تثق بِنُبلي ووفائي لصديقي واحترامي له.. تثق بإنسانيتي أكثر من ثقتها بحبي لها!!

لثلاث ساعات هي تحكي وتملأ كأسها وتُفرغه في جرحها.. لقد شَحَذَت كل سنوات حبي لها في تلك اللحظة وما إن أَرخَت رأسها على الأريكة ودموعها تنساب في ثمالة حتى انطلقت مني الكلمات من كل الجهات..

-أنا جَنبِك.. لو كل الدنيا اتخلِت عنك.. لو نفسك اتنكرت لك أنا هاوفي لك يا إنجي

عيناها تترنحان وتَستجمع ملامحي

-صحيح يا راغب؟!!!.. إوعى تتخلى عني.. أنا تعبانة وتايهة

أَرْخَت جَفنيها بينما أَجذِبُها بين ذراعي وأُرَبِّتُ على ظهرها.. أَفقِدُ كل الحدود.. وأَفِيضُ عن جسدي.. أَتَحرر من كل القوانين حتى من لساني وعظمي..هامت روحي كفراشة و ارتفعت كريشة.. أَغَمضتُ عينيَّ وتَخيلتُ وجهها قبل أن أفتحها مرة أخرى.. حبيبتي في صدري لأول مرة منذ أحببتها.. ومَرَ شريط طويل كطول الزمن الذي لم يجمعنا.. امتزجنا.. لم أدرِ كم مَر من الوقت وأنا أُقَبلها وأَظمَأ وأَرتوي آلاف المرات في اللحظة.. أموت وأحيا لأحيا وأموت..

لماذا تَأبى الحياة ويَأبى القَدر إلا أن تكون قُبلَتنا قُبلة الخطيئة؟.. كنتُ أُمسك بيدها.. تذوب أصابعها بين أصابعي حتى اصطدمت بخاتم زواجها وكأنه صفعة على قلبي.. خَلَعْتُه من إصبعها.. أَلقيته بعيدًا.. لا شيء يَردني

الليلة.. الآن.. لابد لحاتم أن يموت.. أن أَخمِش كيانه بكل قوتي.. وأَسترد كل لمسة لم تكن من حقه وأن أُمَثِّل بكل شهيق له في صدرها أَراق روحي بلا رحمة.. لم يكن حاتم صديقي.. كان قاتلًا.. مُجرمًا يقف بين قلبي وخَفقه.. تلك الليلة اعتَصَرْتُ عمري كله فيها.. كنت في كامل قواي القلبية.. حتى أَوشكَت أن تفقد وعيها تمامًا ونَطقَت باسمه.

- باحبك يا حاتم.

حضر شيطاني.. الذي أَصرَّت أن تناديه باسم صديقي المُغفل.. وأَجهَزْتُ عليها حتى نَزَعتُ كل أَثرٍ لزوجها الحبيب.. لَقد شَيعتُ حاتم لمثواه الأخير.. واستسلَمتُ لتعبي.. وبَقيتُ معها في سريرها لظهر اليوم التالي.. حتى أَيقظني صوت بكائها المُر.. وبَدأَت في مواجهة عنيفة معي.. لا تَتَذكَر ما حدث بالليلة الماضية ولا كيف حدث ما حدث بيننا.. انهارت وهي تصرخ فيَّ..

-إنتَ آخر واحد في الدنيا أتصور إنه ممكن يعمل حاجة زي دي.. إنتَ يا راغب؟.. بتستغلني؟.. بتضرب حاتم في ظهره؟!

بكيت وأنا أَخِرُّ على رُكبتيَّ فَاقدًا كل صلابتي..

أنا باحبك يا إنجي.. سنين طويلة من واحنا صغيرين.. سنين كُنتِ بتموتيني.. وتصحيني.. أنا ما كنتش عايش.. عمري ما فكرت أخون حاتم لحظة واحدة.. بس أنا بني آدم لحم ودم.. وإنتِ كنتِ عارفه كل دا كويس

تُحَدِّق فيَّ بذهول كأنها تُحَدِّق في دمها على مِقصَلة وأنا أتابع..

أيوة كنتِ عارفة ما تعمليش بريئة وعبيطة.. مش هاصدقك لأنك كنتِ بتستمتعي بعذابي ومتأكدة إني عمري ما حبيت هديل.. تفتكري كنتِ هتعيشي ازاي سعيدة وانتِ دبحاني كدا.. حتى حاتم كان عارف إني باحبك!!

تَتسع حَدقتها من فرط الدهشة و تصرخ

حاتم؟ إنتَ بتقول إيه.. بتقول إيه؟

بسخرية..

أيوة كان عارف.. ولو سألیته هيقول لك

تَلطِم وجهها وتصرخ..

أنا هَابُص في وشه إزاي؟.. إزاي هاقول له إني خُنت كَرمه ووفاؤه ليَّ؟.. وحبه وقلبه وشرفه.. ومع مين؟! صاحب عمره؟ إنت خُنت صاحبك وأنا قَتلته.. قَتلته.

تَركتُها وخَرجتُ من الغرفة وقد أَوشَكَت على الجنون.. وظَلَت هكذا لا تَبرح غُرفتها حتى تفاجأنا جميعًا بعودتها للقاهرة فجر اليوم التالي دون علم أحد.. وكانت كارثة بكل المقاييس وأَغلقَت هاتفها المحمول ولا أحد يعلم أين ذَهبَت؟.. واضطُرِرنا لاستكمال كافة المشاهد الأخرى التي لم تَكن لها.. وعُدنا بعد خمسة أيام لا أعرف كيف مضت وأنا أحترق.. عُدتُ للقاهرة.. بحثت عنها في كل مكان وأهلها وحاتم.. لا أحد يعرف أين ذَهبَت حتى أَرسلَت رسالة من هاتفها المحمول لحاتم تُطمئنه أنها بخير وستعود بعد يومين تسترد فيها

أعصابها وطَلَبَت منه أن يُحافظ على هدوئه وألا يَقلق ويُطمئن أسرتها.. هذا ما أبلغَني به حاتم وقَد تَحول لظلٍّ من شِدة بكائه عليها وكأنه فَقد أمه.. وطَلَبَ مني أن أتفاوض مع شركة الإنتاج نظرًا للأضرار الجسيمة جراء ما حدث.. في هذا الوقت قَررتُ أن أُطْلِق سراح كل ما تبقى من رصاص لديَّ في حياة إنجي وحاتم.. فَطَبَعْتُ كل الصور التي كُنت قد صَورتها لإنجي في تلك الليلة دون ظُهوري فيها.. لم أترك جُزءًا من جسدها إلا صَورته.. وأَعدَدْتُ العُدة لإرسالِها لحاتم قبل وصول إنجي.. ضَاربًا بكل شيء عَرض الحائط.. فلن أترك أبدًا فَرحَة انتظرتها بكل صبر العالم.. ولابد أن تنتهي عَلاقتهما بموت كليهما.. ولابد أن أُمَثِّل بالأنقى فيهما.. تَركتُ الصور في الحقيبة الخلفية لسيارة حاتم دون أن يَشعر بعد أن أخبرني أنه سَيغادر ليلًا في مَأمُورية عمل لهجوم أمني على خلية إرهابية بينما عادت إنجي في الصباح إلى بيتها.. تَجمع كل متعلقاتها لمغادرته نهائيًّا.. في الواحدة ظهرًا كانت كل وسائل الإعلام تُعلِن استشهاد حاتم ضمن ثلاثة ضُباط وخمسة مجندين في المداهمة الأمنية لهم..

لقد فَقَدْتُ مَنابع إحساسي بالكامل من هول صَدمتي.. لقد استُشهد حاتم.. أَبَى الله إلا أن يُكرمه بفيضه ويُخلصه من طَعنات الحياة القاسية التي لم تكن لترحم طهارة مُحياه.. رَحل صديقي.. رحل ضميري الحقيقي الذي عذبني ساعة بعد ساعة..

اختار صُحبة أنقى وأرحَب وترك لي أَثَرَه يعذبني أكثر مما عذبني هو.. مَدَّ لي من كل صوب بحره الشَفيف المُستَجير بنور المُستَجَار.. ليته أَغرَقَني يا حبيبي ليته أغرقني...

لا أَعرف كَم مَر مِن الوقت وأنا أَعتَزل الحياة في غُرفتي بعد أن ازدَاد الأمر تعقيدًا بانتشار صُور إنجي التي تَركتُها في سيارة حاتم على كل وسائل التواصل الاجتماعي.. لا أعرف حتى اللحظة من حصل عليها؟..وكيف؟!!.. وسَمِعتُهَا بروحي تُناجي نَدمها وتَتَبَتَّل إلى ربِ الألم.. رب الأبرار.. تقول يا رب.. إنَّ لي عينٌ تُصَدِّق عيون الشيطان.. فكيف تَلتَحِفُ الجنة بالنار..؟ وتنام اللَّعْنَة في الأقدار؟.. وكيف تُصَلى السكين في بَيت الحب؟.. كيف يا رب تَرتدي التوبة وجه الكفر؟..

وأُسقِط في يَد نَوازعي أني نَهَشتُ لَحم الياسمين حتى أَرَقْتُ براءته وأَحرَقتُ أَرضه حتى بكى الدخان..

ولَفَظَت إنجي أَنفاسها كغزالة مذبوحة بعد خمسة أيام من تلك الفضيحة.. وبعد الإضراب عن الطعام ثم الشراب.. هكذا.. هكذا.. انتهت حياتهما للأبد!!

أنا لا أُصدق.. لا أُصدق.. لقد ماتا.. موتًا كاملًا.. حَارقًا.. لم أكن أَعني ذلك.. كل ما أردته أن يفترقا.. أن لا تَراه فَارسًا ولا يَراها أميرته.. أحقًّا أنا من قَتلتُ إنجي؟!!.. قَتلتها بيدي؟.. مَثَلت بروحها كما لم أتصور أن أفعل يومًا؟.. كيف عَرَّيتُها وأَلقَيتُ بماء النارِ على عِرضِها؟؟!.. كان حُبي لها يُحرك كل قَذَارتي

نحو كل شيء إلا هي.. كُنت أتوعدها في نفسي دومًا لكني.. لم أكن لأجرؤ أن أفعل.. كيف فَعلت؟.. دَمُها البريء يَتَفَصَّد حتى من الهواء حولي.. الجُدران تَعوي والأرض من تحتي.. وما زلت لا أُصدق.. هل ما زلت حيًّا لأَقُصَّ وأروي.. لم أَغفُو ولم أَمُت ولا أُدرِك للنور طريقًا.. لَعنة حُبها على كل أبواب الدنيا التي لم ولن تفتح للمغفرة..

أَطْلَقتُ لِحيتي وأَصبَحتُ شَبَحًا يَمشي على الأرض.. أمشي حافيًا تَنْتَعِلُنِي خَطاياي.. تُنَاولني هَديل الطعام.. تَدُجُّهُ دَجًّا في فمي.. مَذاقه كالصَدأ.. وكل شيء يَمُر في حَلقي هو دَم إنجي.. صِرت أَتَّقِي حتى وجهي الذي غدا عبئًا على مرآتي.. مرآتي؟!!!! لا أذكُر أنها رأتني بعد ذلك اليوم المشؤوم.. والناس تأتي للسؤال عني.. تَطْرُقُ بيتي وأنا أَصرخ في هديل..

-قوليلهم مات.. مش عايز أشوف حد

هديل التي أَصبتُها بمرض الانفصام العقلي.. أَضحَت بيانو بلا أصابع.. شجرة باهتة بلا ثمار.. اقتَلَعتُها من جُذورها.. قَهَرَها خبر موت إنجي التي واجهتني بحُبي لها قبل سفري مع إنجي بشهرين.. وأخبرتني وهي تُجهِش بالبكاء أنها كانت تَشعر بحبي لها منذ زمن طويل لكنها مَارسَت العَمى باحتراف فقط.. كي تَحظى بِقُربي على أي قَارعة وبأي وسيلة لأنها لم تَعرف رَجُلًا عَلمها الحياة والحب سواي.. هههه.. أنا أُعَلِم الحياة؟!!!.. عندما تَشْمَئِزُ الأقدَار منا!!.. وتَجعلَنا مَزحةً مُهترئة لا تُطاق على شِفاه الأيام.. أُصِيبَت هديل الكريمة

بالشيزوفرينيا.. تُنادي إنجي في البيت بصَوت عالي.. وتُحَدِثها أمامي وأمام الأولاد...

_ راغب بيحبك والله

ثم تبكي..

_ وأنا كمان باحبك

وتَنخَرِط في انكسارها كموجةٍ ثَائرة لا تجد حيلة في غضب البحر الغارق في ملحه الظلوم.. كانت تُعذبني وهي تُمسك بالجريدة التي تَحمل صُور إنجي بفضيحتها وتُحدثني...

_ هُمَّ ليه فاكرين الفيلم حقيقة دي كانت بتمثل.. ما كانتش قالعة هدومها بجد.. إنجي ما تعملش كدا...قول لهم يا راغب.. قول لهم

ثم تترك الجريدة وتَنكَمِش بين صَغيريها في خَوفٍ وتُغلق عليهم الباب بالمِفتاح حتى يُشفِق الله على هذين الطفيلن فتفتح لهم..

كان لابد لي أن أَستجمع ما بقي لي من قدرة.. للوقوف على الأرض لأَصحَبَهَا للطبيب النفسي بعد إلحاح أمها عليَّ.. أُمها التي لا تعلم أنني من أَصبتها بالمرض حيث لم أدع ذنبًا اقْتَرَفْتُه في حقها إلا وأَسْقَطْتُه عليها.. فَكم أَهنتُها أمام الآخرين.. أولادها والخدم..الباعة والممرضات في عيادتها وزُملائها.. كم حَقَّرتُ منها واتَهمتُها مع كل رجل تَلفَظَت باسمه حتى لو كان في المريخ.. أُسَفِّه

من كل سنتميتر فيها وأمدح أسوأ النساء أمامها.. أُوقظُها وهي نَائمة بفزعٍ وأصفعها.. أُخِيفها وهي كالعصفور في الريح وأقول لها..

_ مين (فلان) اللي قلتِ اسمه وانتِ نايمة؟

كانت تُصدقني حتى لم يَعد يعرف النوم لها سبيلًا.. لقد مات قلبها من فَرط الإدراك...

كَتَب لها الطبيب علاجًا كيميائيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا.. أودَعتُها بيت أمها ليَنُوبوا بمتابعة العلاج عني حيث لم أَعد صالحًاً للحياة.. وأرسلت أولادي الشمس والقمر لخالتهم ترعاهم مع نفقة شهرية.. هذان الطفلان اللذان كُتب على قلبيها اليُتم على حياة عيني.. فلم أذكر أني قَبلتهما على الإطلاق ومع ذلك لم أكن أرَ أيًّا منهما إلا مبتسمًا كما تكون البراعم في أوج الربيع..

وانفضَّ البيت الحزين على روحي المُبعثرة التي لم يعد لها ظل.. واعتكَفتُ في موتى.. ليتني مِت حقًّا.. لماذا لم يَقبضني الله إلى الآن؟ لماذا يُمهِلني.. وماذا هو فاعل بي؟...

فجأة قَرَّرتُ الذهاب إلى الطبيب النفسي الذي يُعالج هديل.. دكتور (نادر عبد المهيمن).. ربما يجد لي حلًّا أو بعض حل أو.. لا شيء..

اِندهش لزيارتي له لأنه يعلم حالة زوجتي.. ارتاب في أمرنا.. وبعد أربع جلسات ناقُشتُه فيها في علم النفس وعَارضَني كثيرًا في أَنَّ شخصًا ما يَستمتع بالشر المُطْلَق كهواية وتكوين.. شَعرت أنَّ الرجل لا رغبة له في علاجي.. خاصة

بعدما تأكد أنني جَعلتُ مِن هديل مريضة نفسيًّا عن قَصدٍ وفَهم.. وعَرف مني كيف استخدَمتُ معها كل الأساليب المُمَنهَجَة لتحويلها إلى مُنعطف المرض الذُهَاني العُصَابي باستخدام العَزل الحِسي وتَشويش الإدراك وتَوحيد مَنَابع الأَعرَاض.. وذلك بعد أنْ بحثتُ في علوم الطب النفسي كي تَصل لما هي عليه الآن دون أي ذَنب يُذكر فَعَلَتْهُ.. فكل من قَدموا لي الحب والبَذل قد دَمرتُهم عن طيب نَفس.. كنتُ أُحدثه بكل ثقة ولم يبدُ عليَّ أكثر مِن بعض أعراض الحزن حتى أنه دَوَّن كثيرًا من النِقاط التي لم يكن يَعرفُها هو شخصيًّا أو جَربها كَمُعَالِج.. وكان في ذهول تام.. وبَدأتُ أنا أسأل وهو يُجيب وبَعد أن سَألني وتَحَرى عن تاريخ عائلتي في المرض النفسي والعقلي ولم يجد سببًا واحدًا في الطفولة أو المراهقة أو في أي مرحلة من مراحل عمري تُنذر بإصابتي نفسيًّا أو عقليًّا..

كان يسألني بصورة استِدراجية بَدَت لي تقليدية وقديمة وعقيمة لم يَصل إليها التَحديث كما فهمت.. اهتم بحالتي كثيرًا بعد أن كاد يَفقد الأمل.. ووجَدتُ بَابًا جديدًا يَمُر على حَواسي وقُدراتي..

أَنْ أكون صَديق الطبيب الذي رآني حالة مُتَفرِّدة وهو لم يَسمع بَعدُ أَغلب ما عِندي من قِصص قَد تَفتك بتاريخه المِهني والطِّبي.. وبعد ثلاثة أسابيع.. سألني بعد أن أَحسَسْتُ بفشله كطبيب وعجزه عن تناول حالتي.. سُؤاله

كان إنسانيًّا وديًّا وهو يَتناول معي القهوة بعد انصِراف كل المرضى.. فأنا دائمًا آخرهم في عيادته حتى صِرنا نتحدث لبعضنا دون ألقاب.. سألني :

- إنت بتحب ربنا؟

إنه يستحضر إبليسي يسأله لا يسألني أنا.. اِرتَبَكَت كل أوصالي وهو يطل بالسؤال على كل مَنابع إدراكي.. واهتز فنجان القهوة في يدي.. وشَعر أنها والآن فقط اللحظة المناسبة وأول الخَيط الذي سَيقوده إلى ضَبط الحالة وتحديدها.. لقد استخدم ذكاءه الفِطري معي.. لكني لم أَستَغرق وقتًا وصَدمته بإجابة سريعة وأنا أفحَص عَينيه جيدًا.. و أضحك

- ما تبقاش مباشر قوي في أسئلتك.. دا مش عشاني.. دا لمصلحتك كدكتور.. ومع ذلك هاجاوبك.. أيوة طبعًا باحبه

ابتسم وهو لا يُصدقني..

- إحنا اتفقنا على الصراحة مع بعض ونكون صادقين عشان نوصل لنتيجة يا راغب

ضحكت بكل ثبات العالم..

- إنتَ مش مصدقني؟

- لا مش مصدقك.. أرجوك لازم تساعدني.. طب اديني علامات تقول إنك بتحب ربنا

- أنا بانفذ إرادته

فتح عينيه يُحاول امتطاء الجملة وتَخَلُّلِها بكل حواسه

- بتنفذ إرادته؟!.. في إيه وازاي؟

- هو خلقني كدا.. عايزني كدا.. كان يقدر يخليني زي حاتم.. أو زيك مثلًا.. بس هو حابب كدا.. وزي ما هو حابب أنا حبيت كمان.

- بس ربنا ورانا الخير والشر وترك لنا أمانة الاختيار.

أَطلقتُ ضحكة أَخافته حقيقة..

- مش هو برضه اللي قال "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها "

- كمل "قَد أفلح من زكَّاها وقد خَاب من دسَّاها" ودا لا يتعارض مع النُص الأول من الآية.

- إنتَ كدا مش بتتكلم في مشكلة نفسية.. لا.. بتتكلم في مشكلة عقائدية.

- هي حَلقة واحدة على فكرة بس انت اللي مش عايز مواجهة.

- باقول لك دي هوايتي أنا مَفطور على الشر.

- الإنسان بيتولد بريء أبيض وهو اللي بيختار الشر بإيده.

رَشفت قهوتي..

- إنتَ مصدق نفسك كدا ليه يا دكتور نادر؟.. ناس كتير مُلحدة وما تعرفش ربنا أصلًا.. بس مش شريرة.

- على فكرة.. كل اللي ما عرفوش ربنا.. جُزء كبير جدًّا من الخير والسلام جواهم ميت وعندهم مشاكل نفسية كبيرة.. دي حقيقة وثابتة.

- إنتَ ليه مُعتبر إن الشر حاجة وحشة؟

- لو ما كانش حاجة وحشة ما كُنتِش جيت لي

- ومين أكد لك إني جاي عشان أقول لك إنه حاجة وحشة وأثبت لك دا؟!!!

رَفع حاجبه بدهشة

- أُمال إنت جيت ليه؟!

- جيت أقول لك إن لولا الشر مَا كانش بان الخير.. يعني الشر ليه فَضل كبير على الخير والليل ليه فَضل كبير على النهار.. زي ما انا ليَّ فَضل كبير عليك دلوقتي.. يا دكتور.. الطب النفسي دا أُكذوبة كبيرة.. الحكاية كلها بتتلخص في الحياة والموت.. دي حَدوتة وجودية كبيرة روشتاتك ما تفهمهاش..

خُسارة اللي اتصرف عليك عشان تِخدع نفسك بإنك بشوية نظريات وأبحاث.. تقدر تِخفف إنسان مَسجون جوَّا نفسه.. عمرك عالجت حد وخف؟؟.. ما تضحكش على نفسك.. بس انتَ يا بروف نسيت تسألني.. ربنا بقى بيحبني؟!!! طب قول لي إنتَ ازاي يكتب على قلبي العذاب.. وبعدين يعاقبني.. مش هو برضه اللي بِيقَدَّر.. قول لي.. الحب فرض ولا فطرة ولا ضمير؟ وإن كان ربنا هو الحب فازاي قِبل الحب يبقى خطيئة؟ أنا زعلان قوي منه.. قوي.. قوي.

وقفت أمامه مُتوترًا أمنع بكل جبروتي دموعًا غلبتني وأواصل

- الحب هو الروشتة اللي لازم تعالج بيها مَرضاك يتأملني..

- بس يا راغب ربنا أكيد دلوقتي ما بيحبكش.

- أنا ليَّ كلام كتير معاه.

انحنيت نحوه وأنا أقف وأَهم بالانصراف.

- باقول لك إيه.. ما تسيبك من الشغلانة دي اللي هتخليك عيان بجد.. دا إذا ما بقيتش عيان فعلًا.. الحياة مش ناقصة خانكة.. ما تيجي أعلمك إخراج وسيبك من فيلم أين عقلي دا؟

فاغرًا فمه ببلاهة..

- انتَ مريض بجد ومش هتخف لأن أول خطوة في العلاج الإقتناع بإنك مريض.

أضحك متجهًا نحو الباب.

- ربنا هو الشافي.. عمنا حجاب بيقول..

(وذكرى عمري في توهة.. وفي توبة راح)

هي توبة مستنيها.. اِقفل وروَّح يا دكتور نادر.

في الصباح توجهت لقبر حاتم.. مثواه الأخير.. حاملًا أجمل باقة ورد عرفها الوجود وقفت أمام شاهد قبره تباغت عيني كلمة الشهيد.. إنني أقف على ضريح رجل من أهل الجنة.. كيف يَستقبل الله أَنفاس رجل مثلي من أهل

النار وهو عامدٌ على رُفات واحدٍ من أهله.. روح حاتم تَلُف المكان وتحيط جرحي وندمي.. تَنَهدتُ ورفعتُ يدي للسماء أتلو الفاتحة.. إياك نعبد وإياك نستعين.. إهدنا الصراط المستقيم.. صراط الذين أنعمت عليهم.. أنعمت عليهم؟!.. أنعمت عليهم؟!.. رحايا تدور في صدري يا حاتم.. هل تَشعر بي يا صديقي الشهيد؟..

- اغفر لي يا حاتم.. اغفر لي يا حبيبي عشان ربنا يغفر لي.. طب قول لي الجنة شكلها إيه؟.. وليه انتَ في الجنة وانا في النار؟.. ممكن تقول لربنا يخليني جنبك؟.. بس ازاي أقتلك وابقى جنبك؟.. أنا باحبك قوي يا حاتم.. أيوة باحبك قوي.. بس كنت ضعيف قدام قلبي.. قدام حقدي وغيرتي منك.. كنت باتعذب على طول.. كُنت بَاحضنَك وأنا ماسك سكينة .. كُنت بِتمسَح دموعي وأنا بادبحك.. إنجي بريئة.. كانت بتحبك.. عاشت بتحبك وماتت بتحبك.. سامحني يا حاتم.. سامحني.. لو لسَّا باقي مكان للندم يا صاحبي يا عشرة ضميري.

لحظتها كان صوت بكائي يَقض نوم الأموات.. رائحة موتي كانت تُزعج أرواحهم فأنا الميت الوحيد في هذا المكان.. وما من ذنب يستعصي على الستر كذنب قتل النفس.. وكم من نفس قتلتها حتى تلاشت من روحي الحياة.

نَثَرتُ الورود على قبر حاتم الحبيب.. كنت أقبل كل واحدة قبل أن أزرَع عبيرها في ثراه.. هل يَشفع العبير للظلام؟..

كنت أَجُرُّ قدمي جَرًّا إلى الخروج من المدفن.. وناولت التُربي حزمة جنيهات لا أدري كم عددها.. واحد.. خمسة.. مائتين.. لا أعرف.. ومشيت نحو سيارتي أفقد لساني.. مُتَخَلِيًا عن جسدي.. تَمُر فيَّ كل طُيور السماء التي كانت تُحلق بكثافة فوق مدافن عائلة حاتم التي ضَمت ما يقرب من عشرين شهيدًا من حروب الاستنزاف..

تَحركت بسيارتي لا أعرف إلى أين أمضي؟.. فَأخذت أجوب منطقة المقابر بالبساتين حتى استقرت قدماي في مقابر الإمام الشافعي أمام مدافن عائلة إنجي التي لفت جثمانها العفيف.. أنا أمام مدفن إنجي.. لم أصطحب باقة زهور.. فأيُ زهور تفوق روحها؟.. أَلقيتُ التحية.. نحن السابقون وأنتم اللاحقون يا حبيبتي.. قرأت الفاتحة وبَذلتُ أنفاسي فيها حتى بَلغت صدر الغالية في كفنها.. ودموعي تبكي عيونًا..

- حاتم بيسلم عليكِ.. لسَّا بيحبك.. مش هيفرقكم الموت.. صدقيني يا إنجي.. المرة دي بس صدقيني.. اتخلقتوا لبعض وهتفضلوا مع بعض.. أنا مش هاقول لك سامحيني لأني مش هَاسامح نفسي مهما سامحتيني.. مش هاقول لك يا ريتني مكانك.. لأن الصح إني أفضل هنا أتعذب باللي جوايا.. بس فاضل حاجة واحدة ماقولتهالكيش.. إن ربنا مش هياخد روحي قبل ما

يخَلص حقك.. نامي واوعي تخافي.. حُضن ربنا بيحب اللي زيك.. آآآآه.. آآآآه يا حبيبتي..

لحظتها بدأ صوتي يعلو تصاعديًّا وأنا جَاثِم على شاهد قبرها يكاد التراب ينبت من ماء عيوني وسَمِعت صوتها يهز أرجاء الموت..

- باحبك يا حاتم

جاءني صوت التُرَبي وهو يربت على ظهري..

وحد الله يا ابني.. وحد الله.. ربنا أحن عليها مننا.

رفعت وجهي صوبه وأنا أكاد أراه من فرط البكاء..

_أُومال مش حنين عليَّ ليه؟

استغفر الله يا ابني.. قول يا رب.. ما خابش اللي قالها

- ياااا رب

خَرَجْتُ يَخترقني صوت الموت.. وصوت القارئ بمدفن مجاور يُفتت قَدمي (وما كان ربك نسيًّا) ...

كم هو مهيب صوت الموت.. أطفال المقابر يُطالعون وجهي ويحملون فطائر الرحمة ويبتسمون.. يَسأل ضَعفهم وَهني.. لماذا لم تَمت إلى الآن وقد مَرت جنازتك كثيرًا من هنا؟.. أيها الموت... متى أحيا حتى أموت...

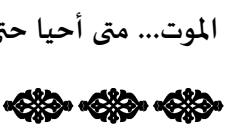

في غرفتي المُعتِمة التي كانت أُنسي الوحيد بين جبال الغم.. غَاصت روحي في وَهلة من النعاس التقطتُ فيها وجه أيمن.. شعرت بجبل عظيم قد سقط على قلبي.. استيقظت مفزوعًا..

_ أيمن.. عايز أشوف أيمن.

فورًا اتصلت بمريم ليأتيني صوت الرسالة الإلكترونية

"الهاتف الذي اتصلت به ربما يكون مغلقًا"

نزلت كما أنا في العاشرة مساءً أُهرول إلى بيت سليم أقود سيارتي بسرعة ضوئية.. ناداني حارس العقار.. لم أجبه.. كُنتُ أعدو على السلالم كالمجنون.. لم أنظر للمصعد.. حتى وصلت للطابق الرابع حيث شقة سليم.. طرقت الباب ففتح لي شخص غريب وعيناي زائغتان دَلفتا إلى الشقة بحثًا عن أيمن..

_أيوة مين حَضرتَك؟

_ مش دي شقة المرحوم سليم بركات؟

_ أيوة يا افندم.. المدام بتاعته مأجرهالي من شهرين.

ما زلت زائغًا لا أدري ما أقول

_ يعني هي مش موجودة؟

باقول لحضرتك أنا مُستأجر

- نَزلتُ مُهرولًا لحارس العقار الذي علا صوته ذو النبرة الصعيدية..

- حضرتك مين؟..و إزاي تطلع كدا؟

- مدام مريم فين؟

- مدام مريم سافرت كندا هي وابنها هتقعد هناك على طول.

مبهوتًا...

- يعني إيه مش راجعة تاني؟!!

- تقريبًا كدا.. لأ.. وأنا بأجر لها الشقة وبأدي لخالتها الإيجار كل شهر.

- يعني انتَ معاكش تليفون مريم؟

- لأ.. ممكن تكلم خالتها.. هو في حاجة؟

انتهى الموقف بأن ناولني رقم هاتف خالتها التي حدثتها بصفتي صديق قديم لمريم يرغب في العمل معها.. أخبرتني أنها هاجرت نهائيًا إلى كندا..

صفعات الله لن ترحمني.. جاء أيمن إلى الحياة وسأرحل ولن أراه.. يا الله ما أشد بطشك.. كيف أُكَفِّر عن كل ما فَعلت.. كيف أَضم يدي إلى جناح رحمتك لتخرج بيضاء من غير سوء.. أما زال لرحمتك باب يَمُر بي.. ما السبيل إلى وصالك دُلَّني؟ ما السبيل؟...

في مَرَسمي المجْحِف.. والمستسلم للوني النَافِق.. أَمسَكْتُ بِفُرشاتي أرسم وجه إنجي لأول مرة كما ينبغي أن أرسمه.. يَمُد فيَّ شوارع الحنين والعذاب.. يُلهمني قَصائد الوجع.. تَسكُبني في الهواء وتَغيضُ بكل معاني الرفق بي.. تَجولتُ بالغرفة.. أَنفُث دُخان سجائري وأنفث معها صوت الروح.. مهشمة هشة.. كان ذلك مع أول خيوط الفجر لأول الشتاء.. فَتحت النافذة أستقبل كَتِف الشمس العاري.. خالعة معطف الليل التعيس.. تَهطل على جوارحي المُبعثرة..

"يسألونك عن الروح.. قل الروح من أمر ربي" الروح.. تلك التي لا يَملكها إلا خالقها.. يعذبها.. يُنعمها.. يَبُثها ويقبضها.. يَنثرها ويجمعها.. يُنَفِّرها ويُولفها.. تُراني بغير روح؟!!

ماذا أريد؟.. بل من أكون؟.. روحي هائمة لا تعرف مَلاذًا ولا وَطَرًا.. أين وَطَرُ الرُّوح؟... ما هو؟.. أريد أن أُعانق روحي.. أن نلتقي.. أن أبلغ السمو ولو مرة ولو اقتَرضتُه قَرضًا...

نَظرت للسماء بعينين غَائرتي الحزن.. وتذكرت جدتي لأبي حين كُنتُ طفلًا وأبحث عن شيء ولا أجده فتقول لي.. قل "يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمعني بضالتي.."

التقطتُ نَفَسًا عميقًا أتمرغ في رئة الاحتياج.. أزرع صوتي في الدعاء (يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمعني بروحي).. دُلَّني على وَطَرِها.. هل من مَنفَذ للتكفير عن دنس الخطايا.. تَطوف بي الأفكار وتُغادرني كَسَيلٍ من

القِطارات.. حتى قررت.. سأجمع كل من آذَيتُهم في مكان ووقت واحد وأعترف لكل منهم بما اقترفته في حقه.. سَأُقِر كيف قتلت كل منهم وكيف لم أُحْسِن القتْلَة؟!.. سأمنحهم ضربة الرجل الواحد.. لابد أن أُلقي بكل جبال الحديد التي تَنُوء بها روحي.. وما من مَحيص من مواجهة جهنم الحمراء التي أَوقدتها بحطب إثمى.. لقد حان الوقت لأُقَدم شيطاني على مِقصلة الحقيقة.. جميعهم.. جميعهم وفي وقت واحد ولينظروا ما هم فاعلون.. وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا...

تَوَجهتُ لبيت أبي الذي لم أَزُره منذ أربعة أشهر.. كم أشتاق وجه أبي الذي تَصَدَّع على جدران بيتنا العتيق.. هذا الرجل الذي انتقمتُ من فرط حنانه وطيبته ورجولته.. فقط لأنه كان أبًا وزوجًا ووطنًا لا يعرف الاحتلال والانحناء..

دَخلتُ إلى البيت.. فتحت لي أمل التي طَلَّقْتُها من زوجها الخلوق فقط لأن أبي أراده أن يتولى إدارة شركات المجموعة فقابل طوفاني الذي رصده وابتلعه... قَبلتُ أبي بكل البنوة الصادقة ودعوته هو وأمل ونزار لرحلة إلى الساحل الشمالي ليجتمع شمل الأسرة.. ورغبة في القرب منهم وتعويض ما فات.. رأيت منهم الحب والقبول والامتنان رغم محاولة أبي الاعتذار لظروفه الصحية الصعبة.. لكني وعدته أن لا يشعر بأي تعب وسيعود من تلك

الرحلة أفضل مما سبق.. كم هي جميلة عائلتي.. ممتدة الرحاب وأصيلة الدفء.. لماذا لم أكن أرى كل هذا الجمال من قبل؟!!!!

استأذنت أبي في حضور أمي أيضًا فوافق على الفور.. يا الله.. لم يَأكل الغدر قلبه المحب ولم يلتهم سِعة خلقه الكريم.. وتهللت أمل كفراشة كما كانت قبل أن تَنطفئ.

ذَهبتُ أيضًا إلى أمي.. قَبَّلتُها وهَدهَدت عَجزها ودَعَوتُها.. كادت تطير فرحًا لأنها ستكون بصحبة أبي.. نعم ما زالت تحبه.. لم يُخفِ الحزن ابتسامة حبها له..

ثم ذهبت لهديل التي بدأت تتحسن تدريجيًّا.. كانت تخاف كلما حاولت أن أُربِت على كَتفها.. لم تَعد تراني إلا فيل أَبرهة.. ابتَلت شفتيَّ بدموعي.. وأنا لا أعرف كيف أجمع هدوء تلك المرأة النازفة من كل أطرافها وجمالها..

اندَهَشَت وهي ترى دموعي لأول مرة في حياتها منذ عَرفتني.. قَدمتُ لها الشوكولاتة التي تحبها والفل الذي لم تتوقف يومًا عن شرائه وتكتظ به سيارتها وحقائبها.. كانت صامتة وأنا أدعوها للرحلة هي وعائلتها وأولادي الشمس والقمر.. قِطعتي النور المنسابتين على أروقة قدري.. غدًا سأبتسم لهما كما لم أبتسم من قبل.. ابتسامة تَملأُ عُمريهما أملًا وتَبُث فيهما أنغام الاحتواء والسكينة التي ما عرفاها منذ دق قلبيهما الصغير..

دَعوتُ أيضًا (أكرم رشوان) والد إنجي وألححت عليه في دَعوتي.. هذا الرجل الذي يُشبه البنفسج في كبرياء حزنه وألمه.. ثم دعوتُ أُسرة حاتم التي فرحت بصحبة عائلة إنجي ووالدة سليم.. لقد دعوت الجميع.. ولقد استجابوا جميعًا.. حتى مروان طليق أمل دعوته على وعد مني أن تعود المياه إلى مجاريها..

أنا لا أصدق.. سَيمنحني الله الفرصة الألف الآن لأتطهر وأعترف وأَرُد المَظَالِم.. سَتصفو روحي وأُخْلِي ذِمتي وأستسلم لعقابهم.. أو للموت.. لم أعد أهابه.. وان فَصَلوا رأسي عن جسدي.. اللهم لا تَهَبني رَحمتهم ولا عَفوهم.. أُريد أن أَغتسل بقسوتهم كي أَرقد في مثواي خالصًا..

كل ما أخشاه.. أَنْ يَنالهم حُزن مُضاعف إذا ما عَرفوا أني بَلغت هذا الحد من الإجرام.. وحَدها هديل من كانت تَراني باقتِدَار.. لابد أن يعرفوا جميعًا أني الآن راضٍ بأي عقاب وبأي وسيلة.. ولكن كيف سَتتقبل نفوسهم النقية مَنطق الشر الذي سكن دمي؟.. اللهم اعفِهم.. فَسأضيف إلى قائمة آلامهم ألمًا جديدًا من نوع فريد..

رَتَّبتُ كل شيء و أَعددت للرحلة كما ينبغي وعلى أكمل وجه.. بأرقَى الشواطئ وأرقَى المناطق.. وقمت بحجز عدة شاليهات من حسابي الخاص.. واسَتقلَلتُ لهم حافلة كبيرة تنقلهم في السادسة صباحًا.. وبدأنا بالتحرك وأنا سعيد بهم أيما سعادة.. وهم أكثر سعادة مني.. وقبل أن نتحرك.. صَعدت للحافلة بعد

اطمئناني عليهم جميعًا.. رَحبت بهم وأنا أبتسم ابتسامة الامتنان لعَبق أنفاسهم.. كم كان عظيمًا نور الصباح ذاك اليوم..

- أنا عايزكم تستمتعوا بكل لحظة.. بكل ثانية.. بالحياة والنور والصُحبة وعايزكم تعرفوا حاجة مهمة قوي.. إنكم وَاحشِيّ قوي.. واني باحبكم قوي قووووي.. باحبكم كلكم..

علت أصواتهم كالبلابل...

- واحنا بنحبك أكتر

ابتسمت لهم ابتسامة الحياة.

- نوصل بالسلامة إن شاء الله.

نَزَلتُ من الحافلة واستقللت سيارتي أتبعهم ومعي أخي نزار وأولادي شمس وقمر وانطلقنا وأنا أتنفس هواء الحرية والصدق لأول مرة.. ونزار أخي يُداعبني كعادته بروحه الجميلة الخفيفة..

- إنتَ مش هتسمعنا حاجة بقى ولا إيه؟ ولا هنمشيها قُرديحي؟

ضَحِكت...

- طب ما تسمعنا انت بصوتك يا كروان.. وحشني صوتك يا ولد.

- تِحب تسمع إيه مَعاليك.. ولا اختار لك على ذوقي؟

- آه أكيد طبعًا إنتَ ذوقك أحلى.. يلا اشجينا.

وأخذ يغرد..

"يا تمر حنَّة.. يا تمر حنَّة.. خليتي بينْنَا وبعدتي عنَّا
الورد كله كسا الجناين.. واشمعنى انتِ اللي شاردة مِنَّا"
اقشعرت روحي وهو يكمل..
"سَألت عَنِك في كل ناحية.. ما حد طمن قلبي عليكِ
وقالوا ماتت وقالوا صَاحية.. ويا ما قالوا وعادوا فيكِ
كنتِ شمعتنا.. كنتِ نور بيتنا.. كنتِ سامرنا.. و انفض سامرنا"
اعتصرني عصرًا..
"ما يتمر العيش في خاين العيش ولا العشرة
ولو سَقيتوه حلاوة الشهد في فنجان"
أوجعتني كلمة (الحب بالحب) وانطلقت دموعي تأثرًا بحالتي وبصوت نزار الشجي الذي أخذ يتسع ويتسع ليبلغ بي كل مبلغ من الشجن.. فشعر بحالتي التي لم تكن لتخفى على الجميع وأَمسك بيدي يَفرُكها بين يديه الأصيلتين واستمر يشدو ويمسح دموعي ويفرغ من "تمر حنَّة" ليبدأ في عاشق الروح...
"ليه يا عين دمعي سال؟ يا عيوني حبايبي ليه هجروني؟
ليه يناموا وانتِ تصحي يا عيوني ليه ليه؟"
إنه يَجتث روحي اجتِثَاثًا ويُقلِع ويُبحِر في أنَّات سماواتي
"وابيع روحي فدا روحي.. وانا راضي بحرماني"

"وعشق الروح ما لوش آخر.. لكن عشق الجسد فاني"

وأخذ يكرر..

"لكن عشق الجسد فاني"

لَحظات فَصَلتني عن الوجود كله.. ظلام حَالك لَفَّني من كل حَدب وصوب.. بِضع لحظات أَخرست كل شيء.. كل الأصوات.. حتى الهواء.. تَدفَقَّت روحي في غيبوبة لا أدري كم مَر بعدها من الزمن.. دقائق.. ساعات أو أيام.. كل ما أَذكره.. أني فَتحت عينيَّ فجأة في لحظة ما.. لأجِد نفسي في غرفة العناية المركزة في المستشفى.. الأجهزة ترتدي كل جزء في جسمي.. وبدا كل شيء كالضباب وصَفير يروحُ ويجيء في أذني.. أنظر للمكان وأُحدِّق في الفراغ.. الممرضات حولي والطبيب.. واستقرت عيني على وجه الطبيب الذي ابتسم لي..

- حمد الله على السلامة

أنا لا أفهم شيئًا.. ماذا حدث؟.. ولماذا أنا هنا؟.. كل ما أذكره أنني كنت أقود سيارتي بصحبة أخي وعائلتي وأصدقائي متجهًا للساحل الشمالي..

حاولت الحديث واستجمعت قوتي..

- هو في إيه؟ إيه اللي حصل؟ أنا هنا ليه؟

يحاول تهدئتي..

- حادثة بسيطة.. فَقَدت الوعي وجيت هنا.. الحمد لله إنك استرديت وعيك

أُحاول التركيز والنهوض.. فهَاجمتني الآلام وارتَميتُ كرةً أخرى للوراء والطبيب يحاول السيطرة علي..

- لا لا.. ارتاح خالص.. بكرة إن شاء الله هتتنقل غرفة عادية.

سألته فجأة وأنا أفتح عيني على مصراعيها..

- بتقول حادثة.. وولادي.. وأخويا؟

تَبادل النظرات مع الممرضات..

- كلهم بخير.. اِهدا انت بس.

- أُمال هم فين؟

- اِنت في العناية.. ممنوع الزيارات.

أحسستُ أنهم يخفون شيئًا ما.. ومَرت الليلة وأنا بين الواقع والهذيان أُلَمِلِم قُدرتي وإرادتي في التعافي سريعًا لأستَدرك ما يحدث.. وحَل الصباح كأنه جاء قهرًا وكرهًا ثم بالفعل تم نقلي لغرفة أخرى.. حينها دخل إليَّ رجل من النيابة بصحبة الطبيب لِيُخبَرَاني أني فَقَدْتُ كل من كانوا معي في الحادث إِثْرَ صدام طَاحن بين الحافلة وشاحنة عملاقة أَدَّت لموت الجميع على الفور عداي أنا.. الناجي الوحيد بمعجزة إلهية...

ابتلعت عيناي الغرفة والأشياء.. الزمن والوجوه وكل عَصب فيَّ.. هل تبدو كلماتهم مزحة سخيفة.. فلا يمكنها أبدًا أن تكون حقيقة.. ضَحِكت وأنا لا أُبصِر وجه الطبيب الذي عَلَقَ بصوتي وهو يَشُد على يديَّ مُؤازًا و مُعزيًا...

- أي كلام هاقولهولك ضعيف وما لوش معنى قُدام الصدمة.. لكن بارجوك أرجوك حاول تمسك أعصابك.. دا قضاء وقدر.. ربنا كبير.. شِد حيلك يا أستاذ راغب.. إنا لله وإنا إليه راجعون...

لقد فَقدت أذني.. هل كنت أسمع قبل تلك اللحظة.. هل أنا موجود؟.. كيف تَمر اللغات في خبرٍ كهذا؟.. أين أنا ولمَ؟...

تَعاطيتُ كثيرًا من المُهدئات قبل أن تغوص فيَّ الحقائق تِبَاعًا.. و عُدتُ إلى بيتي وحيدًا إلا من جنوني.. يَد الموت الكريهة تَشُدُّني من كل اتجاه تخرق ثَباتي.. قدماي لا تحملاني وكل الجدران ضيقة إلى حد العمى.. أَنظر للسماء بِحُرقَة فإذا الكواكب والنجوم كلها تسقط دفعة واحدة.. السماء مشروخة وأنا مُخْتَزَل في أنين لا يسعه الكون.. مات ابني وابنتي الشمس والقمر.. فلا قمر ولا شمس بعدهما.. فما الذي سَيُظلل طريقي.. ما الذي ينيره.. بل أين الطريق؟

لقد كانا معي بالأمس.. لم أُقبِلهُما غير آخر مرة.. لم أشعر بولادتي على شِفتيهما وأنا أسمع كلمة (بابا).. لم أَحْمِلهما ولم أُشاركهما العيد والحلوى والألعاب.. لَعَنتُ خِلقَتُهما واليوم يَلعَنُني خَالقَهما.. لم.. ولم.. ولم.. مات أولادي.. إنهاااا الحقيقة.. ماتت هديل.. رَحَلا مَعها.. إختَاراها للأبد وتَركاني.. أَفلَتا يدي وقلبي العِربيد.. صُورهما تَنخُر نَسيج الجُدران ويتآكل أمامها وجهي.. أَلعابُهما ونظاراتُهما المُلونة كَطُيور الفَرح.. ملابسهُما الداخلية

المُطَرَّزة برائحة الطفولة.. هنا كانا يقفان ويناديان وهما ينزلان لمدرستهما "باي بابي".. أكوابُهما المُنَمَقة بِريقِهما العذب.. رسوماتُهما التي كانت أضعاف سنواتهما الخمس.. ومَناشِفُهما التي حَملت ملامحهما كَعُش عُصفورٍ تَهفو قَشَّاته بعضها إلى بعض.. وأشم رِيح زوجتي.. اليوم تَجتاحني أمومتها.. التي فَطمتني حزنًا لن يموت.. قَتلت هديل وقَتلت إنجي.. حاضرًا وماضيًا..

خَرجتُ مِن بيتي أَصرخُ في الطُرقات.. إلى أين أذهب؟.. بيت أبي؟.. ما عاد بالبيت أحد.. رُكَام.. الكون كُله صَار رُكام.. أن يَمتدَ مَعكَ اللاشيء.. أنَّى شاء ومتى شاء.. لقد شاء اللاشيء.. لم يَعد لأحبتي وجود.. العالم قد مات.. وبَقيتُ أناااا.. وحدي.. كيف.. كيف؟..

وقفتُ في الطريق المُظلم.. وحدي أَصرخُ في وجه الله....

- ليه عَملت فيَّ كدا؟.. ليه؟.. هي دي رَحمتك اللي كلمتنا عنها؟.. ليه؟

دا مش عقاب.. لو فاكر إنك بتعاقبني تبقى ظالم.. إنتَ مش رحيم ولا عادل.. رُد عليَّ.. لييييه؟؟؟؟.. دا أنا كُنت رايح لك.. كنت هاتوب.. كُنت باسألك تفتح لي حضنك ولو مرة.. مرة.. لو كُنَّا عبادك فعلًا.. فازاي تعمل كدا في عِبادك؟! إزاي.. إزاااي؟؟؟.. عارف انتَ عملت فيهم وفيَّ إيه؟.. ولا يمكن قَصدك تريحهم.. بتاخدهم في حضنك وتدبحني أنا؟.. طب ما أخدتنيش أنا ليه؟.. أنا أقدر أموت نفسي برضه.. بس أنا مش عايز آجي لَك ومش هاجي لَك لأن حضنك مش حنين.. كلمني قول لي ليه.. كلمني.. رد

عليا!!!!!.. إنتَ فوق يعني في ملكوتك مرتاح وأنا هنا عشان أتألم.. طب ما أنا كُنت هاعترف لهم وقُلت لك مش عايزهم يسامحوني.. يدبحوني بس ساعتها كنت هابقى راضي ضميري..

صرت أبكي وتَفرطُني الدموع.. تَصفعُني وترميني.. وجثوت على ركبتيَّ أحثو تراب الشارع على وجهي بيد واحدة سليمة هي ما تبقت لي.. والناس يمرون بي يَفزعون ويُحوقلون.. يتحدثون إلى بعضهم ويحدثونني وأنا لا أسمع لا أرى لا أفهم.. أعوي ككلب أَجْرَب.. يَقذِفه الحَصا بالحَقَارة.. ثم حاولت النهوض وأنا أشلاء أو بعض فُتات.. أَكفُر بكل المَواثيق والأعرَاف والمَنطق والأديان.. وبالله.. أُواصل وقاحتي مع الله...

- أنا مش راضي عنك.. مش إنتَ بس اللي مش راضي عني.. إبعد عني.. إنتَ بتجيبنا الدنيا عشان تمرمطنا؟.. بتدينا الحياة عشان تعذبنا وتموتنا؟.. وبرضه بتموتهم على إيدي.. خلتني أطلعهم معايا كلهم عشان يموتوا على إيدي وأكون أنا السبب.. طب ليه.. لييييه؟ عايز تجنني يعني.. على فكرة مش هاتجنن.. أنا عاقل وهافضل عاقل عشان أقول لك بكل قوتي إني مش عايزك ومش حاسك وبرضه هاعيش على أرضك.. أنا رافضك.. أيوة أنا رافضك.. إنت عايز إيه؟؟!.. إييه؟؟!

مرت أيام طويلة.. الدقائق فيها تَعصِرُ دهورًا وأنا كاره لكل شيء.. أدعي الثبات أحيانًا.. ويَستَبيحني الجنون كثيرًا.. لا أريد أن أرى الناس ولا النور..

أَبِيتُ على أرصفة الشوارع.. أَختبئُ بين الشقوق كدود الأرض.. لا أشعر بحر أو برد.. أتمرد على فروض الله وأسخر منها.. وأَهجرهُ الهجر الذَميم.. صِرتُ أشبه بالمتسولين القذرين.. رَثَّ الثياب التي لا أخلعها بالشهر.. رائحتي أَعْطَن من مجاري الأرض.. واشتد فُجوري فَصرتُ أسرق من الدكاكين واحترفت النَّشل والسرقة وأحقد على كل أسرة تَمُر من أمامي وأصرخ فيهم "يا رب تموتوا".. وبقيتُ هكذا حتى مَرَ من أمامي وأنا على أحد الأرصفة بوسط القاهرة.. رجل معه زجاجة نبيذ.. تأملته وتابعته بكل حواسي حتى اختفى في باطن الشارع.. احتَدَم بي شبقي فجأة.. أريد أن أسكر وأشرب.. لَعنت كل شيء وعُدت لبيتي ماشيًا.. أخذت حماما دَافئًا وحَلَقْتُ لحيتي وارتديت أجمل ثيابي وأخذت سيارة أبي ومتعلقات كثيرة.. ألواني ولوحات كثيرة بيضاء وكل عُدة النحت والرسم ومَبلغًا ماليًّا كبيرًا.. وكلب أمل الذي كانت تربيه وتحبه ولطالما كنت أشمئز منه.. واتجهت لفيلتنا في (رأس عَلَم)..

سَأُقيم هُناك وحدي لا أريد العالم.. فَتحت سقف السيارة (الكابرولية) وأسطوانة لـ (سليندیون).. مَرَرتُ بميدان التحرير.. وَجدتُ العالم يثور.. يئن ويَهتف ولافتات مكتوب عليها "اِرحل".. الشعوب كلها مَخْمَصَة أغبياء.. كلنا راحلون.. الشعوب الثائرة شعوب غبية.. استكينوا لا تطلبوا الكرامة ولا توقظوا ضمائر الحجارة.. كي لا تموتوا مَقموعين..التاريخ سيواصل زيفه شئتم أم أبيتم..التاريخ شريررر .. هذه هي حكمة الحياة.. (كن شريرًا تحيا

وتَمُر في كل شيء).. كنتُ على حق ولكن لم يفهمني أحد.. أي خيرٍ يتحدثون عنه.. إن الشر هو مفتاح البقاء والحياة وهو سُدَّة السعادة...

كنتُ أراهم يَنتَحِبُون في الميدان من أجل الشهداء.. ألستم من دفعتم بهم إلى هذا المصير.. استدرجتموهم ليفتحوا قلوبهم على قلب الأرض فخانتهم وماتوا.. مِن أجل ماذا الضمير؟.. الكرامة؟.. العدالة؟.. الحرية؟!!.. ثَمة لَكمة قوية لابد أن تحثوها الحقائق في وجه هؤلاء مُدعي الفُروسية.. كم أكره الأغبياء.. يعشقون الميلودراما والتراجيديا والفانتازيا.. نَصبوا الخيام وأطلقوا الحمام.. غدًا ستفرحون كثيرًا... هههه كثيرًا

طريق طويل لمرسى عَلَم.. لَفظت فيه قلبي وخطواتي والطريق وحتى الوطن.. ألعن الظلام والنهار.. وكلبي بجواري يَأنَس لشري.. وحده يُحبني ويَفهمني...

ذو العَقل يشقى في النعيم بعقله.. وأخو الجهالة في الشقاوةِ ينعمُ.

في فيلا العائلة بمرسى عَلَم.. كان الهدوء القاتل على البحر الغادر.. كل شيء صامت الصمت المُريب المُميت.. وضعت كل شيء في مكانه.. وأخذت أُنظف المكان متحديًا الصدمة والبرد الذي كان يَدق عَظمي بكل قَسوة وضَراوة.. يتواطأ مع ذاكرتي لنَثر تفاصيل الراحلين.. أَتبلد وأتجرد من ذاتي وشعوري.. مُخيلتي تَلُوكُ كل شيء.. لا فكرة.. لا منطق.

أَعدَدت كأسًا من النبيذ مُكتَظًّا بالثلج والإنكَار والذوبان في العدم.. خَرجتُ إلى الشاطئ أَضيعُ في البحر وسَطوة اتساعه.. ما كل هذا الملح؟.. لماذا لم يَمتلئ الماء .. بالشهد أو السكر.. ألم يَتعب من هَذيانه.. الأمواج تتلاحق وتَفرِض سِرًّا ما وتنتحر على الشاطئ.. مُخيف هو البحر في الليل.. احتضنته.. أنا وأنتَ غُربتان يَمتَصُّ كِلانا عَمى الآخر.. ظَهرُ الرمال مُتعَب.. بَائس والصبر جَلاد مُختَلِس.

لقد تَحوَلت حياتي لساحة غَيبوبة مَفتوحة بلا غاية.. أَرمُح بسيارتي وأتجول في المدينة الهادئة.. أتصيد بائعات الهوى.. أقضي الليل معهن.. أُفرِغ لَذتي وأَسمع قِصَصَهن المُعتادة عن حياةٍ دَفَعَتهن لذلك.. يُبررن كل شيء.. لابد أن يَنْهَلنَ عليَّ بأسبابِ عُهرِهن.. ما من امرأة جريئة تفعل لأنها تُريد أن تفعل.. ولابد من إيحاء بأني أَحد الطَامعين.. والتبرير لي دُونَ أَنْ أَطلب ذلك وكأني أَحمل لَهُنَّ تُهَمةً مُوجَهة بالفُجور..

يَحْلُمْنَ بالفارس الذي يُجَرِّبن فيه أملهن بحياة نَقية ويَصبِح مُعِينًا.. فقط إنْ

صَدَّقَ أكاذيبهن.. إنهن للأسف ينتظرن دائمًا توبة لا تجيء.. أو رجل يبتلع زَيفَهن ومَساحيقهن ليغفَرَ ذُرواتِهن ويَمنحنهن الشرف على ظهر فرس من الجنة.. وحَبذا لو يَهَبُن بعض الزهايمر.. إنه العُهر الحلال مائة بالمائة كما تَشِي عَواطِفهن.. ثم يَتَشَدَّقن في حُزنهن عند نَوبةِ مُواجهة بمقولتهن الخَرقَاء (لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى) ...

حكت لي إحداهن عن عَلاقتها الشاذة بزوج أمها وزوج أختها.. وبالطبع زَيَّلت الحقائق ويا للأسف بأنهما المُجْرمَان اللذان كانا يُجبراها على ذلك فهربت من جحيمهم لتتسكع في أحضان رجال ليسوا بمحارم.. كم رَغِبتُ حقيقةً في قضاء ليلة واحدة مع إحداهن في صَمت دُون أَحاديث الهامش التي تَقتل اللحظات بالسخف.. فكل واحدة منهن يَقتلها الفضول لَتعرف سري وحكايتي.. لا أعرف لماذا؟.. تدريجيًّا فقدت استمتاعي بتلك الليالي الرخيصة التي كُنت أدفع فيها كثيرًا...

كان الرسم مَبعث وجودي الحقيقي وقتها.. لم أعد أرغب في رسم الوجوه.. فكل الوجوه تُعذبني.. وَصَلتُ إلى ذلك بَعد رسم أكثر بنات الليل اللواتي استنزفن لوحاتي في أجسادهن وأرواحهن.. فَكُنتُ أُلقي بكل لوحة منهن في غرفة ولا أعود لها.. ودَاهمتني السيريالية التي اختزلتها في جلدي وروحي لسنوات طويلة.. أفهمها وأحترمها.. تعرف لغتي وتفهمني وتستمع جيدًا لما أقول...

الألوان تَسكُبُ الشَفَرات في زواياي.. لا أحد يَبلُغها.. أنا السؤال وأنا الجواب...

وهكذا تَقاذَفَني الوقت بين الشبق والألوان والخمر.. آكُل بشراهة مُرعبة لأيام.. وأُفقِد شهيتي لأيام أطول.. يقترب مني مَلمس الذكريات.. أثور وأواجه الله أني لم أعد آمَن له ولم أعد آنس لفكرة وجوده.. ثم أعود وأذهب لمسألة وجوده.. أنا لا أتصور أنه موجود بتلك القسوة ولا أتخيل عدم وجوده.. لكن مسألة إنكاره حَتمية بالنسبة لي.. فأنا لا أتحمل إلهًا يَدفُع بي للهاوية...

حاولت أن أرسم الله.. لم أستطع.. توقفت ألواني وأقلامي.. وصَعَّرَت لي لوحاتي فراغها.. لكني رَسمت بكائي منه وألمي لما فعل بكل هؤلاء الطيبين.. فقط كي ينتقم من شرير مثلي.. أنا يائس تَعِس.. تلك هي الحقيقة الكاملة.. أريد أن أجد روحي لمرة في العمر قبل أن تَهجُر جُثتي.. لمرة في المدى الذي لا يَألف غُربتي ولا يَطوف بأرضي.. أَرغب في الخروج عن أضلعي.. أَغْبِطُ الطير في السماء.. إنه لا يفكر.. لا يَعبأ.. كل الفضاء بيته.. كل المشاوير أجنحته.. حتى عيناي مَهيضتا الجناح.. مُتهشمتان في عَتمتهما لأني بلا روح.. بلا روح!

أعرف قُدرة روحي تمامًا على التنفس في الماء.. وأتخيل كم مرة يُمكن للنهر أن يموت فيَّ.. أحمله كطفل أبكم على صدري.. لكني أُفكر.. كيف يُمكنني أن أَدفنه إذا انتحر؟!

في تلك الليلة نِمتُ بمهدئ من العصر حتى الثانية عشرة بعد منتصف الليل.. نَهضت من نومي كأهل الكهف.. ما أسوأ أن أفيق لأتلقى الحياة بوجهها من البداية.. جفاف بشع في حلقي.. كأن اليأس امتَصَّ رِيقي كله.. فشربت لترًا من الماء ثم أعددت كأسًا من النبيذ الأحمر وخرجت للقاء البحر في ظلمته كعادتي يَتبَعُني كلبي الذي لا حيلة له في هذا السكون المَعْفِي من الأمل والنور.. لماذا يتبعني؟ ولماذا يحبني؟.. كيف حَملَت أنفاسه اللاهثة كل هذا الوفاء لقلب لم يعرف أبدًا معنى الوفاء.. كل الكائنات تتبع شُعورها.. قلبها.. نعم قد تتجرد الكائنات من عقلها لكن لا تتجرد من قلبها.. القلب سيد العقل وسُترة نَجاته.

جَلستُ على الشاطئ كعادتي أَغْمِسُ الأفق في مُقلَتيَّ.. والنجوم ليلتها كأنها في عُرس كبير والبدر كلؤلؤة في خَصر السماء.. أَغمضت عَينيَّ وتنفست.. تنفست.. تنفست.. فتحت عينيَّ فجأة على صوت "لاكي" الكلب الذي نبح بشدة ثم سكت تمامًا.. إنه هناك على بُعد عدة أمتار يجثو بهدوء قرب امرأة لا أستبين ملامحها.. تبدو في منتصف عقدها الثالث.. مُحتشمة ترتدي ثوبًا ورديًّا فَضفاضًا وعلى رأسها وشاحًا مُحَمَّلًا بلون النهار و" لاكي" مُستكين بجوارها لا يَبرح المكان.. ناديته بصوت عالٍ فلم يَلتفت ولم يستجِب.. وهي لا تلتفت أيضًا ولا تهتز.. شَاخِصَة بَصرها للسماء كأنها تمثال من الألَق.. هذا المكان خالٍ تمامًا إلا من فيلتي وأربع غيرها بقربي وبعض الشاليهات الخالية..

فنحن في الشتاء وليس ثمة مجنون مثلي في هذا المكان.. ما الذي أتى بها إلى هنا؟!

قُمت ومَشيت نحوهما أُحْضِر "لاكي" وناديته..

- لَاكِي.. لَاكِي.

إنه لا يستجيب ولا يلتفت بينما نظرت هي له وأخذت تُربِّت عليه وهي صامته فاعتذرت منها..

أنا آسف جدًّا على الإزعاج

رَفعَت وجهها وبصرها إليَّ مُبتسمة فاختلَجَت كل ذرة فيَّ.. وعدت خُطوة للوراء تكاد جفوني ترتخي عُنوة من شدة نورها.. ليلة القدر في وجه امرأة.. كانت اللحظة الأولى في حياتي التي أحسست فيها بشيطاني يفر إلى الجحيم.. وقَدماي تغوصان في الأرض....

ووجَدتُ نفسي أسألها...

- إنتِ مَا بترُديش ليه؟

شَخصَت بصرها للسماء مرة أخرى وكأنها لا تَسمعني.. اقتحمتني الدهشة من كل اتجاه...

- هو حَضرِتك مش سمعاني؟ !!!

عَاوَدَت النظر إليَّ.. إنها لا تُعاني من أي مشكلة في السمع.. عيناها تزدحم

بالدموع.. حَدقتاها صَافيتان واسعتان ككوكب من الفَيض.. تلمعان كفصين من الماس.. أحسَبُها صَفٌّ من مَلائكة الجَنَّة.. وإذا بها تقول:

- "إني نَذرت للرحمن صومًا فلن أُكلم اليوم إنسيًّا"

أَوجَسْتُ خِيفة في نفسي.. تَجمدتُ مكاني ومرت بيننا كُتلة هائلة ذات صوت مَهيب من الهواء البارد وقشعريرة تَخطف كل خلية في روحي..

- إنتِ مين؟

ابتَسمَت ونَهضَت انصَرفَت والكلب يتبعها.. رَحَلَت وأنا أكاد أُجن وأُنادي كلبي وصوتي لا يقوى على النداء..

عَدوت خَلفها لأُمسك بالكلب وقَد عَلَقَ بكياني طَيفها.. وأتبعها بعيني لأعرف إلى أين تذهب؟ ومن أين أتَت؟ في تلك الساعة المتأخرة حتى تلاشت وأنا لا أعرف أي مكان استقبل طيفها..

بِتُّ ليلتها في حالة غريبة.. جسمي مُتكسر ولا أفكر إلا بها.. فهذا الوجه الذي لا يُحَدُّ نوره بوصف لن يغفو في وجداني.. تُراها من البشر؟ إنسية أم جنية؟.. لم أرَ ولم أسمع عن إنسيٍّ بكل هذا الضياء ولا يمكن لجنية أن تحمل هذا الصفاء.. إنه وجهٌ مُقدسٌ كريم المُحيَّا.. بَارِج النقاء.. لم أرَ الملائكة من قبل لكني لا أظنهم أبدًا غير ذلك!!.. ولكن كيف تَمْثُل ليَ الملائكة وأنا الذي لم أعد أؤمن بربهم.. من تلك المرأة؟ من؟....

ليلتان في نفس التوقيت جَلستُ فيهما في نفس المكان.. عَلّي أراها ثانية ولكنها لم تأتِ.. كِدت أفقد عقلي.. وفي الليلة الثالثة عُدت إلى الفيلا بعد يأس وجنون وبعد دخولي بدقائق إذا بـ "لاكي" يَعدو من الفرندة بسرعة خيالية.. ارتَبت في حالته وتَبِعتُه بهدوء.. فإذا هو عندها مُستكين وتُربّت عليه بكل حنان وعلى نفس هيئتها الأولى.. خَرجتُ فورًا متجهًا نحوها حافي القدمين تَجُرني روحي جرًا إلى وجهها العَطِر..

- مساء الخير.

أقولها وأترقب ملامحها تنساب على بصري.. فالتفتت نحوي مبتسمة

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ابتلعت ريقي بصعوبة..

- إنتِ جارتنا هنا؟.. ساكنة قريب يعني؟

- أومأت نعم برأسها.

طب انتِ لوحدك هنا معاكيش حد؟

- وهو معكم أينما كنتم.

قالتها بصوت أعذب من الندى.. هَالني مَكنُونها وارتعدت روحي وهي تُعاود تأمل المدى.. جَثوت أمامها أتأمل وهَجها الذي يُبارِز نور القمر.. بينما عينها لا تراني ومرة ثانية أسألها..

- انتِ مين؟

لا تراني.. لا ترد.. وأنا أذوب في نور مُحيَّاها..

- أنا ساكن في الفيلا دي و باجي كل ليلة هنا.. بس أول مرة أشوفك لما شُفتك المرة اللي فاتت..

نظرت إليَّ نظرة تخترق هالتها كل شراييني ثم أطرَقت نظرها للأرض في حياء وهَمَّت بالرحيل كالمرة الأولى.. مَشيتُ أتبعُها وأَتفقد أثرها والبرد يَعصِفُني.. حتى رأيت أحد أفراد الأمن الخاص الذي يعرفني بالمنطقة هرولت نحوه وسألته وهو يراني أتبعها حتى دخلت إلى إحدى الفيلات المجاورة..

- مين دي يا محيي؟

تعجب من سؤالي وهو يرى الدهشة على وجهي..

- دي الدكتورة مُنتهى.

- هي مُقيمة هنا ولا إيه؟

- بقالها كام شهر كدا.

- كام شهر؟!!!!! لوحدها؟!

- أيوة لوحدها.. ليها ظروف خاصة.. تقدر تقول مالهاش حد .

- إزاي فين جوزها وأهلها؟

- دي بنت الدكتور كامل الخطيب الله يرحمه.. كان راجل ما لوش زي.. مات بالمرض الوحش من سنتين وكانت هي كل حياته.

ما زلت متعجبًا حتى انتبه الرجل لأسئلتي..

- بس حضرتك مهتم يعني؟!

- لا.. أبدًا.. أصلي كنت باقعد على البحر بالليل زي ما باقعد.. ما انتَ عارف.. فلقيتها بتقعد لوحدها كدا وساكتة والكلب بتاعي بيروح لها مش قلقان منها.. فباستفهم يعني والمنطقة مقطوعة كمان.. هي ما بتخرجش خالص؟

- لا ما بتخرجش واما بتعوز طلبات بتكتبها لي في ورقة وتديني الفلوس وعربيتها أروح أجيبها لها ومن غير ولا كلمة.

- هي ليه ما بتتكلمش؟.. هي كدا أصلًا؟

- لا ما كانتش كدا بس من ساعة ما جات من 6 شهور وهي كدا.

- ست شهور؟!!!... طيب يا محيي متشكر قوي.

ناولته مائة جنيه جزاءً له بما وافاني من معلومات.. عُدت لفيلتي.. وأنا أفكر ولا أهدأ.. طبيبة؟.. ما لَها تترك عملها لتقيم هنا في الخَلاء الموحش.. إنها وحدها مثلي.. تُرى ما حكايتها وما تفاصيلها.. كيف دَلَفَت بي إلى الدهشة بعد أن ماتت فيَّ..(مُنتهى كامل الخطيب).. مَن تكون؟

وهكذا صرت آوي إلى الشاطئ كل ليلة لنفس المكان.. ولا تأتي.. هل أذهَبُ لها؟ كيف أفعل وماذا عساي أن أقول؟.. أنا لا أعرفها ولا هي تعرفني.. لكني أزعم أن شيئًا ما يَحضُر بيننا.. ومِن هُنا.. تَسلَّلتُ ليلًا إلى سُور فيلتها بعد أن رَمقته عن بعد.. تبدو غرفة ما مضاءة والنافذة مفتوحة.. تسللت دون أن

يشعر بي أحد وقد أجهدتني كثيرًا تلك المحاولة و.. رأيتها.. تَجلس على الأرض.. يقطع صوتها الزمان والمكان.. تُحدث الله وقد خِلتها تُحدِّث حبيبًا غيره..

- يا فَيض النور حين تضن الأراوح ويا مؤنس عتمتي إذا رحل الأحباء.. يا كل مَبعثي و جُل أسبابي.. يا شبع الجائعين وشفاء المُتعبين.. ضاقت بي الأرض بما رحبت وضاق وجهها الرجيم.. لا ملجأ منك إلا إليك.. ابنِ لي عندك بيتًا في الجنة فقد هدمتني بيوت الدنيا.. أشتاق سُكناك وأنا بالمنفى خليًا...

تنتفض بكاءً وتواصل:

- لا تقطع وصلك بي.. متى اللقاء يا مُقدر الصفا.. والذنب ظلمة فمن يُضيء الأسف غفرانًا.. مَن لي سواك يا كل أحبابي.

سَجدت سجدة طويلة وأنا لا أشعر بمضي الوقت والبرد الذي ينخر في عظمي.. قامت من سجودها والدموع تَقطن كل مَلمَح فيها.. تُطبِق عينيها...

- سُبوح قدوس.. سُبوح قدوس.. رب الملائكة والروح.. سُبوح قدوس.. رب الملائكة والروح.

أكاد أرى غُرفتها تضيء.. فَرَكت عينيَّ أكثر من مرة وهي تُكرر.

- نور على نور.. عاشقة أنا ومن ذا غيرك يُعشق.. بلغ سلامي حبيبك وشوقي لكوثرٍ بكفيه مَتاب.. اللهم صلِّ عليه كما تُحب وكما يُحب أن يُصلى عليه أزكى صلاة وأفضل تسليم في العالمين إنك حميد مجيد.

علا صوت "لاكي" وهو يبحث عني فهرولت عائدًا إلى فيلتي يكاد قلبي يتوقف من هول ما رأيت وسمعت..

خر جسدي على الأريكة وأنا أتصبب عرقًا في هذا الصقيع.. أمسكت بزجاجة ماء كانت أمامي.. شربتها دفعة واحدة وأغمضت جفني.. ألتمس الراحة وأنا أسمع خفقي كأنه يلهث ويعدو ألف عام.

جاءتني في منامي.. معلقة بين السماء والأرض وحَجُمها يملأ ما بينهما.. والأفق يُضيء ما بين جنباته من ضيائها.. صوتها يَرجُف الكون..

" سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .."

انتفَضتُ يَهربُ الدم من أوردتي.. و فَزعتُ على صوت زجاج النوافذ وهو يُفتح بقوة.. لم أشعر إلا وأنا أهرول وأفتح الباب أتجه نحو البحر وقد أشرقت الشمس.. كنت خائفًا أركض.. فإذا بي أقف أمامها وهي على الشاطئ تأخذ نَفسًا عميقًا والموج يُعانق قدميها الطفلتين.. تُطبِق جَفنيها وتُرخي ذراعيها.. وَقفتُ أتأملها وأنفاسي تعلو وتهبط بسرعة جنونية.. فالتفتت إلي فَجأة وأخَذَت تتلو...

- "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ".. لأول مرة منذ رأيتها أمتَعِض.. وتمتلئ ملامحي بالخوف والرهبة.. وكأني أراها بحجمها الذي رأيتها به في منامي.. وباغتتني

- إنتَ تايه ليه؟!

فتحت عيني.. وأنا أرتَعد أُجيبها باستسلام دون أن أشعر..

- مش لاقي روحي.

يبدو عليها الاندهاش..

- "قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي"

- ربي هو فين ربي؟

هطلت دموعها كالغيث وهي ترتعش تُشيح بوجهها الملائكي عني وتُحدِّق في الشمس لا تَهاب نورها.. و أنا أواصل:

- أخد مني كل اللي باحبهم.. أخدهم كلهم.. ورفض توبتي.. هو خالقني عشان يعذبني.. و....

أشاحَت بيدها مُقاطعة.. وثار الموج في مشهد عظيم.. ومرت سحابة هائلة حَجَبت الشمس.. وكأن ربَّها سَخر لقلبها السماء والنجوم..

- "فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .."

- أيوة أنا شيطان.. شيطان.. شيطاااان.

أخذت ترتعد ويعلو صوت بكائها.. وهي تستعيذ..

- "وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ .."

انصرَفت من أمامي.. تركتني وحيدًا.. وبَقيتُ مكاني أَتبعُها بعينيَّ ثم لَحقتُ بها وأنا أصرخ وأبكي.. وَقفتُ أمامها..

مش انتِ بتحبيه.. اسأليه ليه عمل فيَّ كدا.. ليه؟ كان عايز إيه مني؟.. اسأليه ليه أخدهم وليه خَلقني بكل الشر دا؟.. ليه سابني أءذيهم كلهم؟

نَظرَت إليَّ بتَجَهُمٍ وتَعجُب

- "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ"

- بس أنا بقى باسأله.. كانت رحمته فين؟ وهو كان فين.. كان فين؟

- "وَرَحمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ"

جَثوت على ركبتيَّ أبكي بمرارة وحُرقة..

- ما انتقمش مني أنا وخدني ليه؟ ليه؟

انحَنَت نحوي كأنها تُشفق عليَّ.. وبصوت حاني..

- " نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ"

اقتربت يَدها تُريد أن تُربّت علي.. ثم امتنعت وانصرفت وهي تلتفت كل بضع خطوات كأنها لا تريد أن تتركني ولكنها تركتني ومضت.. فَتحَت جُرحي الذي غدا بحرًا من الدماء وكنت أظنني قَسوت عليه فَأُغلِق.. لم تَحملني قَدميَّ وعُدت إلى البيت أَجر ضعفي جرًّا.. وأُجهش بالبكاء وأنتفض فزعًا وكأني للتو عرفت بموتهم جميعًا.. نار الفراق أكلتني ولم تذر.. كم هو مُر وجع الفِراق.. صِرت أصرخ وحدي بين جُدرانٍ تُوثق وحدتي وخوفي.. وانتابتني حالة هيستيرية من الغضب والغيظ من أقدار الله.. وقلة حيلتي أمام قوة الموت الذي حال بيني وبين أحبتي..

هَشمتُ كل شيء في البيت.. كل ما يعترض وجهي و شممت رائحة قلبي يحترق.. كل هذا الغضب لن يغير شيئًا.. لن يعيد الزمان ولن يَكر العمر من جديد ولن يُرجع الأموات.. مَادت بي الأرض وانتَفَت مني الصور.. فَقدت وعيي بأمر من اللاوعي.. وسَقطتُ مَغشيًّا عليَّ وحدي.. لا أحد يشعر بي أو يراني ولا يعرف لألمي سبيلًا.. بقيت على الأرض هامد الجثة يَنفر الدم من عروقي.. يحوم كلبي حولي ويبكي.. يا لفجاجة الوحدة تجعل من الروح جثة لا يُعَزيها سوى كلب.. أوفى من النفس للنفس.. والتقيتُ في وحدتي بوجهي الذي اختبأ العمر فيَّ.. وجَمع لي أمة من الأشياء تُغني للفراغ.. كم غَائرٍ صوت الفراغ.. عَلقم طعم اللحظات..

خَرج كلبي يتفقد أثرًا لمَخلُوق يُنقذني.. لم يذهب إلا لها.. فَزِعَت لنباحه وتَبِعَته بحذر حتى هالها منظري وأنا مُلقًى على الأرض.. حسَّست بيدها تفيقني.. كانت مقاومتي ضعيفة.. فَرشَّت الماء في وجهي.. فَتحتُ عينيَّ المتعبتين بتثاقل الجبال.. وبخوف لا أُخفيه..

- إنتَ كويس؟

بصوتٍ هارب..

- تعبان.

وخلال دقائق أَحضرَت أحد رجال الأمن الخاص ليساعدها في حملي.. فوضعا جثتي على السرير.. كَتبَت له حُقنة يذهب لشرائها من الصيدلية أو

أقرب وحدة صحية بسيارتها.. كان جسمي باردًا كالموتى.. شَفتاي بلا دم.. أخذَت تُدلك يدي بكل إنسانية ودَثرتني ببطانية.. ورَقَتني بكل آيات الشفاء تبتهل إلى ربها وتناجيه ليدفع عني ويعفو.. أراها ببصيص من ضباب وقبل أن تصل الحُقنة كانت الحياة قد دَبَّت في أوصالي من جديد.. وبعد تعاطيها رُحت في نوم عميق.. أفقت على المغرب أتحايل على تعبي وناديت "لاكي".. فهرولت إليَّ.. تسبقها صُحبة من المِسكِ تَخللت عظمي.. اعتَدلتُ في نصف جلسة على السرير وهي تبتسم كفم الصبح..

- إنتَ بخير؟

أتأملها وهي تَغُض بَصرها..

- أنا بخير لأنِك هِنا.

خَجلت..

- الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا.. إنت ليه قانط من روح الله كدا؟

سألتني وبَعثرَت روحي من جديد.. بكيت كطفل كفيف.. رويت لها مأساتي من بدايتها وحكيت لها عن كل شيء.. عن كل سمومي التي قتلت أراوح من أحببتهم لم أتوقف عن البكاء لحظة وهي تسمعني وتُنصت وتفتح رئتي الحنان لوجعي.. تُهدِّئ من رَوعي وأنا أروي.. لم تندهش لوهلة وكأنها تعرف مسبقا كل شئ عني.. قاطعتني لأكثر من مرة.. تارة تُحضر لي عصير العنب.. وتارة العسل.. وتارة تُبخر الغرفة بأعواد الفل.. وابتسامتها تخرج من بين

نواجذها الحياة.. كنتُ أنا المندهش.. فَرغتُ مِن كل ما عندي وهي على حالتها غير أنها أضافت هطول الندى من عينيها الرقيقتين الفَضفَاضتين.. ثم انطلقت تُحدثني وتَرُد قلبي في فؤاده...

- إنت عشان كدا زعلان من ربنا وبتقول له أنا رافضك؟!

سهولتها في السؤال أَرَقَت حَقَارة إجابتي..

- أيوة طبعًا؟

- مش انت طلبت منه يسامحك ويتوب عليك وتصفي ضميرك؟

أُحدق فيها...

- مش دا كان مطلبك؟

- أيوة

بس انتَ طلبت دا في صُورة قاصرة من وجهك نظرك.. إنك تعترف لهم وما تنولش عَفوهم.. ربنا بقى أحن منك عليك وعليهم واستجاب لك بس بطريقته هو.. اختار لهم الشهادة والجنة مع آخر كلمة حلوة وصادقة منك.. وفر عليك وعليهم أي عذاب ما كنتوش هتقدروا تتحملوه حتى لو انتَ تصورت عكس كدا.. واختار لك اختبار الموت عشان يتأكد انتَ صادق ولا لأ.. وهتتحمل ولا لأ.. (إنما الصبر عند الصدمة الأولى).. مش بيقولوا ان في المحنة منحة .. ده انتَ الإنسان لما بتكون عارف ان حد بيحبك بتختبره عشان تتأكد من صدق حبه ليك فما بالك بربنا ..هي الجنة دي بالساهل

كده؟ (أَحَسِبَ النَاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون).. بس انتَ بقى اخترت تسقط بجدارة من تاني في الامتحان.. حَب يطهرك بوجع الفراق..

_ يطهرني بأني أكون لوحدي كدا.. فجأة؟

_ أُومال إيه.. انتَ مَا كُنتش هتبقى لوحدك.. لأنه كان مختار لك وَنَسه بس انتَ دلوقتي لوحدك.. اعترضت وكَفَرت.. (من لم يرضَ بقضائي فليرحل من تحت سمائي وليعبد ربًّا غيري) ...

- انتِ ازاي عايزاني أتقبل الفَقْد عادي كدا بكل بساطة؟

تبتسم في وداعة ورقة...

- ما انتَ كنت فاقدهم على حياة عينهم وفاقد نفسك.. هو إيه الفقد في تعريفك.. الموت؟.. خروج الروح من الجسد؟.. هو دا؟.. تبقى وقفت عند فاصلة صغيرة قوي في معنى الفقد..(وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الخَوفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَال والأَنفُسِ وَالثَمَرَاتِ وَبَشِرِ الصَابِرِينَ)

أعاود البكاء

- بس أنا مش قادر.. مش قاااادر أعيش من غيرهم.

- من فَقدَ الله ماذا وجد؟ ومن وَجد الله فماذا فَقد؟!

- أنا تعباااااان... تعباااان.

نهضت وناولتني كوبًا من الماء تَناولتُه بغَصَّة.

- راغب.

انتبهت لها فأنا لم أذكر لها اسمي نهائيًّا.. بَدَت عليَّ علامات الدهشة وقد تَلقَفَتها على الفور ولم تقف أمامها..

- انتِ عرفتِ اسمي ازاي؟

- "وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيْم".

- إنتِ ازاي كدا؟.. يعني لو حَصل لك اللي حصل لي.. دا هيكون حالك؟

تَنَهَدت بكل مَرار.. وَروَت لي حكايتها.. كانت وحيدة أبويها.. ماتت أُختها التوأم بعد صراع مع السرطان في عُمر العشر سنوات.. ومات والديها بنفس المرض غير أن أمها فارقت الحياة وهي ابنة الثالثة عشر وتوفي والدها منذ عامين.. وخانها زوجها الذي لم تعرف الحب إلا معه منذ المراهقة.. كان يُعايرها أنها عاقر خانها مع صديقتها الوحيدة .. ثم ماتا سويًّا في حادث سيارة..

بعد وفاة والدها.. سَلبتها عائلتها إرثها.. وخاضوا في عِرضِها وطلبوا الكشف على سلامتها العقلية أمام القضاء.. وحكم لهم بعد التزوير في الأوراق الرسمية والمستندات الطبية والتحايل على ثغرات القضاء.. وتم الحَجر عليها.. فثروة والديها ضخمة..

كانت في ذلك الوقت لا تَجد ملاذًا إلا الله.. وتركت الدنيا بأهوائها وتنازلت لهم عن كل شيء وبقيت لها هذه الفيلا بمرسى علم فكتبتها باسم طفلٍ يتيم كَفلته من أحد الملاجئ وبعد أن ملأ حياتها أملًا.. ظَهرَت عائلته واستردته

فاختارت أن تعيش وحيدة هنا في مَعية الله وعِشقه لا تعاشر بشرًا.. تتأمل ملكوته وتتعبد في محبته زاهدة في هذا العالم..

- بس انتِ ما كُنتيش بتتكلمي!!

- أنا ما باتكلمش مع أي مخلوق ولولا حالتك ما كنتش اتكلمت.

- يعني انتِ مش يائسة زيي؟

- أنا زَاهدة وفرق كبير بين الزُهد واليأس.. "لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القَومُ الكَافِرُونَ".. إنت كدا بتوصل لقمة الشِّرك وليس بعد الكُفر ذنب.

إنتَ جَربت لذة العشق؟

صامت أتأمل سؤالها..

- عِشق الله.. إنتَ جربت كل حاجة.. جرب تعشقه هو بس.. تنزع عنك الأنا والحزن لدُنياها ومتاعها.. مُناجاته والناس نيام.. والتسبيح لجلال وجهه.. جَربت الرضا؟.. هَروِل إلى الله إنه بانتظارك.

وَقفَت...

- أنا هاسيبك تِرمي نفسك في رحمته... بس الأول لازم ترضى لاازم ترضى..

- خايف ما يقبلنيش؟!

- "وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا" تَركتني بعد أن طلبت مني الاغتسال وأن أُقيم صلاة توبة وأن يكون هدفي هو اللحاق بأحبتي في الجنة.. خَرجتُ من غرفتي بعد انصرافها لا أشعر بجسدي

فإذا بها قد رتبت المكان ونظفته وأعدت لي بعض الطعام.. وتركت لي مصحفًا كبيرًا على حامل وسجادة صلاة افترَشَتها على الأرض وقد عطرت المكان كله.. دُرت في مكاني لا أدري هل أجرب أم لا.. لكن سكينتها دفعت بشلال من التسليم لله في قلبي.. رُبما خَشيتُ أن يوصد الباب في وجهي مرة أخرى؟!!

وبينما أنا أفكر وَجدتُ ورقة على رخام المطبخ المفتوح كَتبَت عليها.. " وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"

رَفعتُ عينيَّ التي صَلَّت فيها الدموع.. فوجدتُ كل زجاجات النبيذ فارغة ومغسولة تمامًا من أثرها.. رَافَقْتُ قدميَّ إلى الحمام أزرع نفسي تحت ماء التوبة وأسأل نفسي أين ذهب عنادي؟.. هل يَغفر الله لإبليس؟.. الماء يتدفق في كل جَنَباتي كأنما يَغسِلُ دَمي وصوت شمس وقمر في أذني لا يرحمني.. ضحكتهما تمشي على ما تبقى مني.. والذكريات تَمُر كجلادٍ مُحكَم التدريب على سُوطِ الوحدة.. وأخذت أردد يَعصِرُني الحُزن....

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

وقفتُ أستقبل القبلة وأنوي صلاة التوبة ورفعتُ كفيَّ الهزيلتين كمركب مخروق تخرج مني الكلمات لا أعرف من أين تسيل؟!

وأَني رَحَلتُ إليك يفيضُ عفوك على جُرمي.. أُدق ظُلمتي وظِلي في مِشكاة نورك.. أتوسل إليكَ وأقرأ على ذَنبي.. رَحمَتُكَ سَبقت غَضبك.

وأنا أصلي سمعت صوت نوره يَذبَح شيطاني على غُفرانه.. سَجدتُ لأول مرة.. تحملني السكينة.. ما أحلى الرجوع إليه.. لم أكن حيًّا.. كنت أظنني الميت .. وقفت على البحر كأني للتو قد أدركت وجه الحياة.. أُناجيه..

_ إني أعدو إليك من أول أنفاس الخلق وحتى آخرها.. أتقَصَّد ندمًا بين يديك..

زَرَعْتُ شَري بين الرمال وبين الحصى.. وحصدني نور غفرانك.. إنك تخلقني من جديد.. متى لُذت بجنبات إثمي في المدى يستقبلني وجهك.. ما أرحمك يا الله..

التفت فوجدتها والبحر في شَرف استقبالها.. أرى روحها تَنزلق إلى ضلوعي الثكلى وقلبي يقول لها....

ثَمة شيء لا تَبرَحه الروح يَعرُج في ضَعفي.. كلما مَرَت أَنفَاسُكِ بذنوبي.. ثَمة عباد لله طَرَحَ لَهم مِن النُور ثَنايا تَلِجُ في القلب فيكون مِحرابًا أو.. قَبضَة من أَثر نَبي.. إنَّ امرأة مثلك كلما نظرت إليها سَبَّحَت عُيوني برحمة الله.. كيف جَمع الله بين يديك فُلك تَسبيحي وسَبحي.. (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) مِسبحة أنتِ في هيئة امرأة.. صَافَحتُ بِكِ الإنَابة.. وافتَرشتُ قلبكِ مُصلاي..

قالت وهي تغتسل عيناها في زُرقة البحر..

- شايف البحر دا.. اللي بيقولوا عنه غدار.. وبيرموا فيه الأسرار.. البحر دا ليه شفايف بتبتسم بالحب.. ليه قلب بيدق زينا زي الشجر والطير والطفل مَر سِربُ حمام في السماء وتواصل والندى ينساب منها..

_ شايف الحَمَام دا.. اللي ما يعرفش خَطِية ولا ذنب.. دينه هو الحب.. جنحاته هي الحب.. سماه هي الحب.

نَظَرَت للرمال...

_ حتى الرمل دا بيستحمل قسوة الموج وغُربة الملح وبيحضن البداية والنهاية عشان بيحب.

عاودت النظر للأفق..

- حتى السما بتفتح شراييها على الكون بالحب.. والورد في الأرض والياسمين بيرضع منها مطر الحب.

نَظرَت في عينيَّ وقلبي يَسجُد بين الضلوع...

- إنتَ يا راغب اتولدت بالتوبة لأن التوبة ضمير الحب.. لأن الله هو الحب سيب قلبك بين إيديه هيغسلهولك بالحب.

أَطبقَت جفنيها وأنا صامت كوليد لم يختبر الكلام بعد.. وتدعو

-اللهم أحْيِنَا بالحب وأمتنا على الحب وألحقنا بجنة الحب.

لقد وَلِد ضميري بين زَبد البحر وقلب امرأة يُصلي على مرفئه الكون.. عرفت الله وأنبت إلى حبه في عيونها واغتسلت من خطايا العمر على دموع خشوعها.. آمنت بالله.. آآآمنت بالحب ورب الحب.

كانت رائحة الهواء وهي تَضخ في قُحولتي مطر الحياة.. عبير لم تَعِه حواسي قبلها.. لماذا لم أكن أرى كل تلك الخيول في أرضي.. لماذا لم أكن أرى السماء والطير والورد والبحر حتى الملح كما وصَفَت.. لماذا كُنت أذهب مني وأعود إليَّ بين بشاعة وبشاعة.. سَاعتي كانت معطلة في لغة الكره.

خَلعَت مسبحتها الصدفية من معصمها وناولتنيها...

- دي مش بس عشان تَسبح عليها.. بس عشان تِفضل فاكر إن الجماد كمان بيحس.. بيبقالوا قيمة لما يمر عليه اسم الله بكل الحب.

فجأة وهي تُحدثني سَقطت مَغشيًّا عليها.. أَرعبني سُقوطها المُفاجئ حاولت إفاقتها.. فأنا أعرف أنها لا تنام جيدًا أو تأكل جيدًا حتى لا تُثقل جسدها عن التعبد والوصل مع الله.. حاولت وحملتها إلى بيتها مهرولًا خائفًا.. فأقرب طبيب يبعد عدة كيلومترَات عن منطقتنا.. وضعتها على الأريكة.. ذهبت إلى غرفتها أبحث عن أي عِطرٍ لإفاقتها.. رشَشت وجهها ويديها.. وهي تفتح عينيها بصعوبة بالغة.. كنت أتأملها وأغيب في رقة ملامحها.. وخصلة من شعرها الأسود الأسيل جَمَحَت وطَلت من وشاحها.. لا فرق بين وجهها ومسبحتها..

وجسدها النحيل المغلوب على تعبه يحمل روحها الطاهرة وتُثقله خَطايا الناس فيها..

تُرى لو كُنت قابلت مُنتهى في الوقت الذي لم أكن أرى فيه الطيبين إلا أغبياء الأرض فماذا كنت فاعل بها؟.. ربما لم أصل لما وصلت إليه من موت الضمير.. وأنا أضحك من أعماقي على سؤال قفز إلى ذهني دون أن أشعر.. كيف استطاع أقرب الناس إليها أن يفعلوا ما فعلوا بها؟ دار كل ذلك بخاطري فلم أجد إلا يدي تجذبها وأعانقها بقوة الحب الذي لم يطرق روحي.. إلا الآن.. عناق يَدُس بضعفي في روحها وراودتني نفسي لا أعرف كيف حتى اقتربت من شفتيها أقبلها.. فصرخت صرخة تَشق القلب وقد شَحب وجهها...

- ابعد عني.. ليه كدا حرام عليك.. حراااام عليك ..ليه.. اتَّقِ الله.. ليه كدا.. اخرج من هنا.. اخرج...

كيف فعلت ذلك؟ كيف فعلت؟ ما فعلته عن قصد.

- أنا آسف... آسف سامحيني والله ما كنت أقصد.

- أرجوك.. أرجوك.. لو سمحت.. اتفضل أنا تعبانة ومش قادرة أواصل كلام.. مش عايزة ناس.. سبني من فضلك.

كان صوتها مبحوحًا يشبه الناي المكسور وأنا تفزعني فكرة ابتعادها عني.. كيف أبتعد عنها وقد وهبني الله الحياة بها.

تآمر على حُنجرتي البكاء..

- سامحيني.. اطلبي مني أي حاجة غير بُعدك عني.. حرام عليك تاخدي مني الأمل الوحيد اللي صِحي جوايا.. بتطرديني من جنتك ليه.. بتموتيني تاني.

بدا التعب يتكاثف عليها أكتر..

- أرجوك يا راغب من فضلك الله يهديك.. سبني في حالي.

- أسيبك ازاي وانتِ تعبانة كدا؟

- بإذن الله هابقى كويسة.. هارتاح شوية.. سبني من فضلك.. من فضلك.

خرجت ولا أدري كيف أتركها.. لقد أحببتها.. يارب لقد رَزقتني حبها تلك المرأة التي قرأت في نورها ألف كتاب وشهدت على أثرها ألف حَضرة وعلى كتفها وَلِدت لي مليون نخلة وتوسعت شهيتي للإيمان والتوبة حتى بلعت توبتي خطايا الأرض.. كنت حين أسمع صوت البحر ليلًا وهو شَريد في موجه.. أَفقد ذاتي موجة بعد موجة.. لقد خرج وجهي الجديد من رحمها.. يا الله.. ماذا فعلت من خير لتُنزل إليَّ امرأة من الجنة.. بماذا آمنتُ أنا لأبلغ وَحي الحب في أرضك وأي خطيئة غفرتها لحقيرٍ مثلي كي ترسل له كتابًا مُقدسًا في صورة امرأة؟ أنا الذي كان يَلدَغ الشمس في فَجرها ويُبطل وضوء القمر في قيامه.. وأشتهي أن أسبُغ أسرار عفوك يا كريم..

جَلستُ في رُكن مُتطرف من فَرندة غُرفتها لا تراني منه.. لم أتحرك حتى اقتربت الشمس من المغيب.. لا أعرف كيف أدق بابها مرة أخرى وقد آلمتُها

هي التي طَبَبت جُرحي كيف أسامح نفسي؟.. قُمت وقد قررت أنا أطرق بابها وليُعنِّي الله..

طرقتُ الباب أكتر من مرة فجاءني صوتها..

- "هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنكَ"

- أرجوك يا منتهى اِديني فرصة.. افتحي طيب.. ما تخافيش مني والله نيتي كويسة..

- اللي بيحب ربنا عمره ما يخاف.. أنا زعلانة عليك لأنك خُنت الباب اللي اتفتح لك من عنده.

- لا يا منتهى لأ.. أنا صحيح مَا اعرفش أنا عملت كدا إزاي صدقيني بس أنا خلاص رجعت له وما اقدرش على زعله تاني أبدًا.. أرجوكِ افتحي هاقول لك كلمة وامشي.. والله ما تخافي.

فَتحَت الباب بحرص وحذر.. ابتسمت لها والدموع في عيني

- أنا باحبك.

- وأنا ربنا ما لوش في قلبي شريك.

- قلبك دا اللي عَرَّفني الحق وعرَّفني بربنا.

- عايز مني إيه يا راغب؟

- عايزِك جنبي.. تعالى نسيب الدنيا دي كلها ونبقى مع بعض في حب الله.

- أنا مش عايزة حد.. مش عايزة حد.

- نتجوز.

بنظرة ساهمة..

- مستحيل.

- ليه مستحيل؟ انتِ لسَّا مش واثقة في توبتي؟

- ربنا هو اللي بيحيي ويميت ويعذب ويغفر لكن أنا عايزاه هو لا شريك له لا يشغلني عنه مثقال ذرة.

- بس ربنا أحل الجواز.. النبي عليه الصلاة والسلام كان بيتجوز.

- أنا ما عنديش حاجة أديهالك يا راغب.

- عندك الجنة وما فيها.

- ما عند الله خير وأبقى وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.. تصبح على خير.

أغلقَت الباب وصَفعَت قلبي وروحي.. عُدت لبيتي مُنهكًا ممزقًا لا حيلة لي أمام الألم الذي يغتالني من كل صوب.. ومضى الليل وحالي حالها أقيم الصلاة وأقرأ القرآن وأتذلل بين يدي الرحمن.. أخرج للشاطئ أتأمل في خلقه وأنتظر طيفها فلا تحضر وفي الليلة الرابعة.. أرسلَت لي مع حارس الأمن ثلاثة كُتب عن العارفين بالله والعشق الإلهي ومعهم ورقة تُذكرني فيها بأن قيام الليل يفتح البصيرة ويرفع الدرجات ويُنقي الروح وتنصحني بأني في مَرحلة لابد أن أنشغل فيها بالله فقط لا يُخالطني في حبه سواه.. كنت أُقَبل أثرها على الورق فكتبت لها مُطَمْئنًا أني مُلتزمٌ بتوبتي وسَأُنفذ ما قالته لكني أريد أن

أراها لأطمئن عليها فردت عليَّ مع حارس الأمن بأنها بخير وتطلب مني أن لا أذهب إليها أبدًا.

كنت حزينًا بائسًا لا أجد سبيلًا لرؤيتها.. وبعد أربعة ليال أخرى.. جاءت.. يهرول إليَّ نورها.. كاد قلبي يتوقف خشية أن تراني فَتُغير وِجهتها وتعود.. لكنها تَعمَدت القدوم نحوي وبدا عليها التعب.. مدت بَصرها للأفق تتحاشى التقاء عينينا.. يكسوها الضعف...

- السلام على الفقراء.

لم أفهم مقصدها لكني رَددت..

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- هل تَعرف الفقراء؟

أومأت نعم برأسي فأَكمَلَت

- ليس هم هؤلاء الذين يحتاجون إلى المال.. الفقراء هم من احتاجوا إلى الله في كل حال.. هُم أهل الله وخاصته.. وهو القائل سبحانه "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ".. الفقر هو الاستغناء بما عند الله على ما في أيدي الدنيا والناس وهو حِلية الأصفياء.. خاصة الرحمن من عباده وصفوتهم.

- يا راغب.

نادتني وأنا طفل بين يديها التي تمسح عن روحي غَم الذنب وعَنائه..

- لو طَلبتَ منه فأعطاك فالتَهيتَ بالنعمةِ عن المُنعمِ فقد أصبحت حقيرًا لا فقيرًا.. إذا سلكت مسلك العارفين بجلاله فعليك بالزهد والفقر.. الفقراء هم المُلوك.. تعفف بفقرك إلى الله.

جلست على الرمال.. مُتعبة صوتها مُرهَق وأنفاسها لا تهدأ وأنا أخلُص من ذاتي في دهشتي لثباتها وزهدها ونورها..

- انتِ بخير يا منتهى؟.. أوديكِ لدكتور؟.. هو أنا باسألك ليه؟.. قومي حالًا هاوديكِ لأقرب مستشفى أو نرجع القاهرة أطَّمن عليكِ وبعدين أرجعك.

ابتسمت بالكاد...

- هو طبيبي غنية بيده عن العالمين.

بس انت دكتورة وفاهمة.. إن العلاج مهم.

- سيبك مني..

لما اشوفك قربت منه بصحيح والتزمت طريقه هابقى بأمره أحسن واحدة.

- ما تسيبينيش يا منتهى ما تسيبنيش.. إنتِ ربنا بعتك ليَّ.. انتِ نور.

- هو الغني.. استغنى بيه عن متاع الدنيا.

- عَرفيني يا غالية.

- رُد المظالم يا راغب.. أوصل الرحم.. ما تنتظرش المقابل من أي كائن ولا حتى التقدير.. الانتظار عبودية للذات.. لإرضائها.. إوهب عشان تفيض.. الحب الحقيقي ما لهوش شروط.. ما فيهوش أنا.. اكسر رِياءك وكِبرك الخفي

واوعى تِرضي غرورك.. الذُل من صفات العارفين.. وكل اللي باقولهولك دا بينك وبينه مارد.. شيطان النفس متجبر.. يقول رب العزة في الحديث القدسي: "أنا عند المُنكَسِرة قلوبهم من أجلي".. إوعى تنكسر إلا ليه هو.. لمحبته والشوق إليه.. إوعى تزعل من اللي حصل لك.. كان بيأدبك عشان عايز يحبك.. وكما قال المصطفى صلوات الله عليه "أدبني ربي فأحسن تأديبي"

كنت أبكي كأني لم أعرف البكاء قبل أن أعرفها وأحبها تنير لي روحي وتفسح فيها الرُبى ومُتعة البحث في الوصل إلى الله.. وهي مُتعبة أسمع ألمها ولكنها في عشقها لا تتعب ولا يكلؤها وجع.

_ ابعد عن الشهوات.. كل الشهوات روض نفسك واشتهاءك.. الاشتهاء خُنوع الروح.

عيناها زائغتان.. وأخرجت ورقة بعنوان ورقم هاتف لأحد الشيوخ العارفين

_ تواصل مع الشيخ دا.. لأنه هيفتح لك آفاق كبيرة.

- ما انتِ معايا.

ابتسمت.....

- أنا ليَّ ظروف خاصة مش هاقدر أكمل معاك يا راغب.

نهضت بوهن شديد..

- أستودعك من لا تضيع ودائعه.

تَرنَحَت فقمت مذعورًا أسندها..

- هاوصلك.

- لا أنا بخير.

- أرجوكِ.. تَعبتِ قلبي.

نظرت لدموعي وبأمومة وحنان همست

- سلامة قلبك يا رب.

- انتِ لسَّا زعلانة مني؟

تَنَهَدت...

- غَفر الله لك ولنا ولعباده المخلصين.

رافقتها حتى باب بيتها وأنا أفكر بتلك الأقدار الغريبة.. إن الحياة لا تَهب لنا وجوهنا ولا قلوبنا.. إنها تهب لآذاننا صوت الضمير حين ننشطر ألفًا على طريق مَهيب نلتقي فيه أنفسنا.. لكن الزمن يَعرف أين ومتى يطرح تجاعيده على أرواحنا وكيف له أن يَحرمنا الفرصة الأخيرة والوحيدة للحياة.. كنتُ أجمع ضميري بين يدي مُنتهى في ذات الوقت الذي كانت روحي فيه تنثرها خُطة الزمن لعقابي.. أَمسكتُ بطرف ثوبها الطاهر.. وأنا أرى الله في وجهها.. أرجوكِ اغفري...

أعرف مدى حزنك يا حبيبتي.. دموعك الداخلية تُسَربِل قِيعان أنهاري.. إنها تجري مني مجرى الدم.. لها صوت يشبه صوت الريح حين تفترس الحياة..

بدأت أستقبل أيامي بوجه آخر غير الذي عَرفت.. ومشيت على وصفات العارفين كما أوصلتني لها مُنتهى.. لكني لم أرغب في الوصول لشيخها.. لأني اكتفيت بطريقها وقناديلها.. فقد اشتدَّ عليها التعب ولم تزل تَشد من أزري.. وأنا لا حيلة لي أمام عنادها.. لا ترغب في العلاج ولا في زواجنا.. ومع إلحاحها أن أتركها لخلوتها إلا أني لم أستطع.. فقد تكرَّرَت نوبات الإغماء.. وازدادت ضعفًا وأنا لا أعرف ماذا أفعل إلى أن بدَأَت تَفقد بَصرها فُجن جنوني حيث اكتشفت ذلك متأخرًا فلم تُبدِ أية علامة أو مؤشر يقودني لذلك..

في ذلك اليوم عَرفتُ عندما طلبتُ منها أن تقرأ لي من كتاب عن أسماء الله الحسنى وأسراره وكنا نتبادل القراءة.. شَعرت بروحي تنزف.. لقد ذَهبَت العينان الصافيتان كفص من الماس عند ربهما.. وكانت كُلما اشتد تعبها ازدادت صفاء وراحة من الداخل.. أيُ امرأة أحببت وأي بصيرة مُنحت لها لترى كل شيء بلا عينين.. وازدادت نوبات الإغماء وأنا أتمزق.. حتى حَسمتُ أمري وطَلبتُ لها عَربة الإسعاف.. لم أكن أتحمل أن أراها على هذه الحالة أمامي وهي ترجوني أن لا أفعل.

في المشفى عرفتُ أنها مُصابة بورم سرطاني في المُخ وأنها ستدخل في غيبوبة ترحل بعدها عن الحياة ونظرًا لعدم دخول أي علاج على حالتها وإهمالها.. فقد تطور المرض بسرعة خطيرة.. فكان هذا بالنسبة إليَّ الضربة القاضية القاسمة.. كيف تَتركني من أعادت لي الحياة؟.. لقد عاهدتُ الله أنْ أكون

على عهده ووعده ما استطعت وأن أحب كل ما يقضى به كما علمَتني.. لكني لم أكن أتصور أنها كانت تُعلمني حُب إرادته في رحيلها.

لَزمتُ المستشفى بجوارها كنت مُعلقًا ومصابًا بالأمل.. لا أبرَح الصلاة والدعاء لها حتى طَلَبَت مني إحضار ورقة وقلم لأكتب وصيتها التي أوصتني بها.. أن تكون الفيلا التي رَدها لها أهل الطفل الذي كفلته وقفًا باسم دار العارفين بالله.. وأن تكون للتعبد وكفالة الأيتام.. وأن أقوم أنا على خدمتها ورعايتها وأن تُباع سيارتها ويُودع ثمنها لمستشفى السرطان.. والمبلغ البسيط المتبقي في البنك والذي كانت تعيش منه لأي حالة مريض يستعصي علاجه لضيق ذاتِ اليد.. ثم مَضت وبَصَمَت بصعوبة بالغة وناولتني هاتفها المحمول لأدون اسم ورقم مُحاميها لإتمام الإجراءات.. ثم فاجأتني لتكتمل ذبحتي في القلب.. أنها أحبتني!!! لكنها عاهدت الله بأن لا يشاركه مخلوق في قلبها فقاومت خاصة أنها كانت تعلم بمرضها ورفضت العلاج لأنه كان سَيُعيقها عن عباداتها وتأكدها من عدم جدوى العلاج.. ثم أوصتني برد المظالم ليقبل الله توبتي.

شَابت عيون صبري يا منتهى.. شَاخت وفقدت عُكازها وأنا مصلوب على زمن يُذيب لَحم بداياتي.. الحب ليس في المتناول يا حبيبتي.. هو دائمًا يُصفق بيد واحدة.. ويضع أحمر الشفاه والكحل لليالٍ بلا كَبد تنتهي على مقابر لا تَعرف كيف تُغلِق أفواهها.. فَيعِدُنا بالأغاني القمرية على فوهة الرماد

ويُحصينا عدًّا وغدرًا وجهرًا وشنقًا.. الحب مَوسم لا يَجيء.. يُؤَجِل نومه دائمًا للموت الكبير.. من أجل ذلك غنوا للسهر.. الفراق رُكبة الحب التي لا تنثني إلا في الوداع..

لم يَعد بوسعي البكاء.. لم يعد بوسعي أن أزرع عيونًا أكثر مما زَرعت لحُزني السَّخي على حُدودي.. كنت أحدق فيها وأَعُد أَراملَ الدقائق التي أراها جميعًا واحدة واحدة ترتدي الأَسوَد في بَهاءِ جَمَاجِم بلا أسماء.. كُلنا أسماء.. وأي رُفات يَعرف يا حبيبتي عِظَم الأسماء؟

نمتُ على الأريكة فاقدًا وقتي أمام سريرها.. فرأيتُ أولادي الشمس والقمر كالفراشات يشربان من حوض لا أعرف له وصف ويلعبان ويفتحان كفيهما لتشرب منه مُنتهى فشربَت وارتوَت وتَسلقا كتفيها وطارا بها حتى غابوا جميعًا في السماء.. قمت أصرخ..

- مُنتهى..

لم أجدها في سريرها.. هرولتُ كالمجنون أسأل التمريض فعرفت أنهم للتو قد نقلوها للعناية المركزة لدخولها في غيبوبة كاملة.. ساعات أمضيتها بزاوية قرب المشفى أُصلي وأبتهل وأتمسك بالأمل فهو الذي يحيي العظام وهي رميم.. ثم عدت للمستشفى قلبي يسبقني فرأيتهم يحملونها على سريرها وقد أخفوا وجهها الطاهر بالغطاء متجهين إلى غرفة الغسل.. تَبعتُهم وصوتها

يهزني ويهز أرجاء الكون.. "مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى.. مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى.. خَيْرٌ وَأَبْقَى."

رحلت حبيبة الروح وقِسمَتها!!..والشمس لاتزال في سمائها تشرق وتغرب!! والقمر على ليلهِ يغدو ويذهب.. !! والعصافير بالأغصان تدنو وتَطرب!!.. ولكن فؤادي عكف على موته بلا قلب!!

طاف بي الحزن ثانية في بلاده الواسعة وشوارعه المُنهكة.. نالني ما نالني..وأنا أَعزِل نفسي من التورط في الغضب.. أجد سلوتي في الفقر إلى الله والتجلي لحبه والشوق له.. أيام لم يَبلغني عددها لا أتصل بأي إنسان حتى جاءتني في منامي في سرب من الحمام الأخضر تناشدني وصيتها.

فأسرعتُ بإتمام كافة الإجراءات وتجهيز فيلتها كما وصت لاستقبال العارفين والأيتام.. وبِعت الأصول من ثروتي كلها.. الشركات والعقارات عدا أرض في طريق الفيوم جَعلتُها وقفًا لله لبناء مشفى للكلى وصرت أجمع لها التبرعات وأعلنت عنها.. ثم مَنحت مبلغًا ماليًّا وفيرا لسمير الذي دَمرتُ مستقبله وطلبت منه المغفرة فلم يسامحني حتى وهبته الحصة المالية الكاملة لأحد شركات المجموعة لتُعينَه على حياة كريمة.. بعد أن عرفتُ أن حياته وأسرته صارت لأسوأ حال.

أما عادل زين الدين فكان كريمًا أصيل النفس.. فآثر السماح ولم يقبل بأي تعويض رغم إصابته بالكبد جراء ما ناله في المُعتقل فوهبتُ ثوابَ الأرض الوقف له والتكفل بكل نفقات علاجه بالخارج..

سامحني مَن انتقمت مِن سماحته وشهامته.. متى ينتهي عذابي بكرم الطيبين؟!!

أما أيمن فلم يُنصِفني القضاء ورُفضت الدعوى لعدم حضور طَرف النزاع والتحصل على عنوانه وأن الولد للفراش.. حُكِم بذلك لعدم الضرر بمصلحة الطفل!!! ما أخَسَّ عدل البشر.. وظُلم القضاء لمصائرنا..

قَدَّرت ثروة سليم حسبما عرفتها من خالة مريم وأديتُ حقها إلى الورثة الشرعيين نيابة عنها حتى لا أَجُرَّ على ابني فضيحة أمه أمام العالمين بعد أن أبلغتُهم بأنها ليست بحاجة لأمواله حيث أصبحَت من سيدات الأعمال المرموقين وكان هذا مثار إعجابهم وعَجبهم.. فَقدَّروه بحُسن أصلها وخُلقها وتلك نكبة أخرى تلحق بالفَجَرة تحت طائلة التكريم.

تصدقتُ بثروتي بالكامل تقريبًا وأعطيتُ ذوي الحقوق حقوقهم ولَزِمتُ دار العارفين أَهِبُ روحي وكلي لله.. أؤذن فيها وأقيم الصلاة وبعد برهة صار يأوي لها النُسَّاك من كل مكان حتى صارت علمًا في مصر وفي مرسى عَلم ومزارًا للتائهين المُتعبين.. واعتزلت الفن تمامًا وكل متاع الحياة.

وفي ليلة خرجتُ فيها من القاهرة بعد قضاء بعض المشاوير الهامة لإنهاء بعض الإجراءات.. وأنا بطريق عودتي إلى مرسى عَلم وجدتُ سيارة على جانب الطريق الصحراوي في بدايته.. فإذا بإمرأة شابة تنكَفئ على عجلة القيادة توقفتُ ونزلتُ لها مهرولًا.. فقد خالَ إليَّ أنها بمكروه فرفعتُ رأسها فإذا بها ثملة ورائحة الخمر في فمها لا تطاق.. فسألتها...

- انتِ كويسة؟

نظرتُ إلى دموعها تنهمر من عينيها ولم تُجبني فأعدتُ السؤال عليها متأثرًا بحالها...

- لو محتاجة حاجة قولي احنا خدامين ربنا.

نظرت إليَّ وهي تسألني بصوت فارغ إلا من الضياع:

- ربنا.. هو فين ربنا؟ سايبني ليه كدا؟

حدقت فيها وأنا أسمع صوتي يَرشُقني بنفس السؤال الذي استقر فيَّ كالنصل منذ سنوات...

- ربنا موجود.. ما سابكيش انتِ اللي سايباه.

- هو عايز مني إيه.. جابني الدنيا عشان يعذبني؟

أدركتُ حالتها وطلبتُ منها أن أوصلها للمكان الذي كانت تنويه.. فأجابتني بأنها لم تكن تعرف إلى أين تذهب فلم يعد لها أحد على وجه الأرض.. طلبتُ منها الانتقال للكرسي الجانبي بينما أنا سأقود السيارة لأوصلها لمكان آمن

حتى الصباح.. لم تُعارضني البتة.. تعجبتُ لاستسلامها الغريب وانطلقتُ بالسيارة وهي تروي لي حكايتي من جديد ولكن الغريب أنها امرأة مع الاختلاف في بعض التفاصيل.. كانت تحكي وأنا أبتسم وأتسأل وأنا أرى نفسي فيها.. كيف كنتُ وكيف أصبَحتُ؟.. سبحان الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير الذي يحول بين المرء وقلبه.

تعجبَت مني وأنا أكمل لها كثير من فصول حكاياتها.. وتوقفت أمام الدار وقد لامس نور الفجر جبين الأرض.. ناديت أحد العاملات بالدار لتصحبها إلى الحمام لتغتسل وقدمتُ لها ثوبًا من أثواب مُنتهى لترتديه..

بعد حوالي نصف الساعة خَرجَت وبدت هادئة.. فاصطحبتُها في رحلة العارفين بالله أدعوها لحب الرحمن والعشق في جلال وجهه الكريم.. استجابَت للنور بشراهة الأرض الجافة الجدباء للماء.. و كنتُ كلما فتحتُ بابًا لتائه أزداد شوقًا للقاء الكريم.

في موسم الحج.. نويت الإقبال على عَرفات وقبل الانطلاق إلى المطار بملابس الحج توجهتُ لمدفن مُنتهى أُلقي عليها السلام وأُبلغها رحمة الله بالفاتحة وأنا أهدهد بجوارحي اسمها على الشاهد.. العارفة بالله (منتهى كامل الخطيب).. أنظر لصفاء السماء وشذا النسيم والغفران يتسع به صدري حتى عنان المحبة تَبْتَل شفتيَّ بدموع اليقين.

- يا حبيبتي.. كل صمتٍ هو صوتك.. يَقعُ في حواسي كصوت الانفجار الأول لميلاد الكون ويدفعُني صوتها العفيف إلى حرية العشق ونقائه الرقراق.

- يا راغب.. إنَّ القلبَ الذي نَسَك روحه في قلب المُحب.. يرى الله ومن ثَمَّ فهو لا يعنيه.. إنْ رحل المحب أم بَقي.. لأن الله الذي رآه في قلب المحب لا يرحل.. ويبقى الحب.

أنا الآن أتنفس.. أعيش.. أنا أعيش لستُ آسفًا إلا على عُمرٍ ضاعَ في غَير الحب.. أَنَبتُ إليه يا حبيبة الروح وقد عَتَّقْتِ نَشوة العِفة بين ثَكَناتِ روحي.. يا سَجدة التوبة على جَبين الخطيئة.

يااااارب..... يااااااارب.... مِنكَ المُبتَدى وإليكَ المُنتَهى.

أنتَ وَطَرُ الرُوح.

تم بحمد الله..

المراجع:-

-كتاب كيف تصنع مريضًا نفسيًا (جورج ويلز – ترجمة د.عبد العزيز علي).